

الجزء الأول

ناصر بن سليمان العمر
رئيس الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم



الطبعة الثانية

١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣

الرياض – الدائري الشرقي – مخرج ١٥

هاتف ٢٥٤٩٩٩٣ تحويلة ٣٣٣ ناسوخ ٢٥٤٩٩٩٦

ص.ب : ٩٣٤٠٤ الرمز : ١١٦٨٤

البريد الحاسوبي : **tadabbor@tadabbor.com**

www.tadabbor.com

....

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمر ، ناصر سليمان

أفلا يتدبرون القرآن./ ناصر سليمان العمر – ط٢ ـ الرياض ، ١٤٣٣هـ

٠٠ ص : ٠٠ سم

ردمك : ٥ ـ١١٢٧ ـ٠١ ـ٦٠٣ ـ٩٧٨

ديوي : ٢٢٧,٦ ١٤٣٣/٩٢٥٧

رقم الإيداع : ١٤٣٣/٩٢٥٧

ردمك : ٥ ـ١١٢٧ ـ٠١ ـ٦٠٣ ـ٩٧٨


بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٠



مُقَدِّمَة

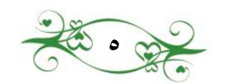
إنَّ الحمدَ لله، نَحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله، وحده، لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُه ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ (النساء: ١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٧٠، ٧١).

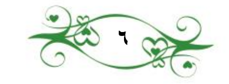
أمّا بعد، فإنّ تدبُّر القرآن الكريم، هو طريق الفلاح، وسبيل السَّعادة في الدَّارين، فاللهُ تعالى ما أنزل هذا القرآنَ لنشقى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ (طه)، بل ليُخرج الناسَ به من الشَّقاء! أنزله رحمةً كما قال: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٤)، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ



﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس: ٥٧، ٥٨)، ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٦، ٨٧)، والآيات في هذا المعنى كثيرة، لكنَّه يعودُ خسارة على الظالم المعرض عن تدبُّره، النَّافر عن آياته، كما قال ربُّنا عزَّوجلَّ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء: ٨٢)، وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٤)، وقال تعالى واصفاً أثرَ ما أنزله على كثيرٍ من الكافرين المعرضين عن الذِّكر الحكيم: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (المائدة: ٦٨).

فالقرآنُ رحمةٌ وهدىً، لكن لمن أقبل عليه، وتدبَّر آياته، وقد نفع الله تعالى به أمماً منذ أيام البعثة الأولى، وحتى اليوم، وإلى أن يرث اللهُ الأرض ومن عليها، فتغيَّرت به أحوال، وانتقل به كثيرون من الظُّلمات إلى النُّور والحبور.

وتذكَّر أخا الإسلام نعمة الله عليك خاصَّةً بهذا القرآن! وتساءلْ: يا ترى ما نحن بدونه؟ لا تاريخٌ ولا حاضرٌ ولا مستقبل! أمَّا به فقد صنعنا التاريخ، وفتحنا الآفاق، ونشرنا النُّورَ فوقَ أرض الظُّلُمات، وبالرجوع إليه وتدبُّره وتحكيمه كذلك نُعالج حاضرنا، ونضعُ أمَّتنا في مكانها الذي تخلَّفت عنه يوم



ضَعُف تمسُّكُها بكتاب ربها، وبه نصنع مستقبلنا المشرقَ البعيد الذي يتجاوزُ حدود الزمان والمكان إلى ما بعدَ الدُّنيا!

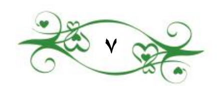
فاللهَ أسألُ أن يرزقنا تعظيم كتابه، وتقديمه على العقول والآراء المقتبسة من الشرق والغرب التي أخَّرتنا كثيراً، وأن يمنَّ علينا بتدبُّر آياته. وتدبر آياته ثمرةٌ مباشرةٌ لتعظيمه، وتعظيمُه شعورٌ طبيعيٌّ يغمر النّفس عندما تتذوق معانيه وتنظر في مبانيه، حتى إنها لتجزم -إن لم تكن تعلم- بعظمة المتكلم به سبحانه وتعالى.

وقد يغفل الإنسان في بعض الأحوال عن عظمة القرآن الكريم، فيقوُده التّدبّر والتفكّر في معانيه إلى الشعور بهذا التّعظيم واستجاشته في النّفس، ذلك أنّ من لوازم التدبر تعظيمَ القرآن الكريم، ولكنه ليس شرطاً في التعظيم، فالقرآن له هيبةٌ تأخذ بمجامع القلوب، فتجده معظَّماً حتى لدى من لم يعرف معانيه ولم يُدرك مراميه، من ذلك ما رُوي عن نصرانيٍّ: «أنه مرَّ بقارئ؛ فوقف يبكي، فقيل له: ممَّ بكيتَ؟ قال: للشَّجا والنَّظم»(١).

إنَّ القرآن كثيراً ما صرّح بأنَّ الغاية منه التدبر، وإن كانت الغايةُ من نزوله أبعدَ وأعظمَ من ذلك، ولكنْ كثيراً ما جعلها القرآنُ غايته لأهميتها، فتدبُّر القرآن هو أساسُ العمل بالقرآن وتحكيم القرآن وتعظيم القرآن، ولا يُمكن للأمة أن تعبُرَ إلى تلك المراحل العمليَّة من التطبيق والعمل والتَّحاكم

---

(١) الشفا: ٢٠٨/١.



وغيرها، إلا عبرَ جسر التدبّر، ولهذا جُعل الغايةَ من إنزال القرآن، فقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (ص:٢٩)، قال الطَّبريُّ: «يعني ليتدبر هذا القرآن، من أرسلناك إليه من قومك، يا محمد»[١].

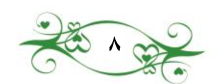
وقد جاء التوبيخ والتبكيت لمن غفل عن تدبره فقال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢)، قال الشوكاني: «دلّت هذه الآية على وُجوب التدبر للقرآن؛ ليُعرف معناه»[٢]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ قال الشوكانيُّ: «المعنى: أنَّهم لو تدبَّروه حقَّ تدبُّره لوجدوه مؤتلفاً غيرَ مختلف، صحيحَ المعاني، قويَّ المباني، بالغاً في البلاغة إلى أعلى درجاتها، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ أي: تفاوتاً وتناقضاً»[٣]، فالله تعالى كما سهّل ألفاظه للقارئين فقد سهّل معناه للمتدبِّرين، فلا اختلافٌ في أحكامه، ولا تضاربٌ في أخباره، بل يُصدّق بعضُه بعضاً، ويُوافق بعضُه بعضاً.

---

(١) جامع البيان: ٥٧٦/١٠.

(٢) فتح القدير: ٧٤١/١.

(٣) نفسه.



وقد بيَّنَ الله عزَّ وجلَّ سببَ إعراض المعرضين عن تدبُّر كتابه الكريم، فقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد: ٢٤)، فسبب انصراف المنصرفين عن كتاب ربِّ العالمين ما في قلوبهم من الأقفال، فمن وجد في نفسه انصرافاً عن تدبُّر القرآن، فليعلم أنَّه مبتلىً ابتلاءً عظيماً، وليَستعن بفالق الإصباح، ليُزيلَ ما بقلبه من غشاوةٍ لينعمَ بضياءِ القرآن.

وفي إطار هذه المعاني يجيء هذا الكتاب، متجاوباً مع المسار الطَّبعيِّ الفطريِّ، الّذي يمرّ به الإنسان، عندما تبلغه رسالةٌ من إنسانٍ عزيزٍ عليه وذي مكانةٍ عظيمةٍ في نفسه، فإنّه يُعظّمها ابتداءً، ويدفعه هذا التعظيم إلى قراءتها بتدبّرٍ ليطّلع على مضمونها، ومن ثمّ يبدأ في الاستفادة ممّا في تلك الرسالة من المعاني، التي تبدأ ثمراتها وآثارها تظهر في حياته شيئاً فشيئاً.

بناءً على ذلك، يجيء هذا الكتاب في ثلاثة فصولٍ أساسيّة:

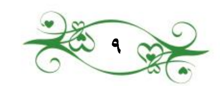
الفصل الأوَّل: وجوب تعظيم القرآن الكريم.

الفصل الثَّاني: وجوب تلاوة القرآن الكريم وتدبُّره.

الفصل الثّالث: ثمرات التّدبّر وآثاره.

إضافةً إلى فصلٍ تمهيديٍّ يُنوّه بالعلاقة الوثيقة بين القرآن والإيمان، وبين يدي ذلك كلمةً عن مشروع (تدبُّر)، واللهَ أسألُ السَّداد والرَّشاد، وهو المستعان، وإليه الجهد وعليه التُّكلان.





قصَّة مشروع: تدبُّر

في رحلة الحجِّ عامَ (١٤٢٥هـ) كان تجاذُب الحديث بيني وبين أخي الدكتور/عمر بن عبد الله المقبل(١) كما يجري بين الأحبَّة في السَّفر، ولفت نظري سيطرةُ همّ (تدبُّر القرآن الكريم) على قلب أبي عبد الله، فقلتُ له: إنَّه مشروع رائد، ولكنَّه يحتاج إلى جهودٍ ضخمةٍ ليُصبحَ مشروعَ الأُمَّة، فهل أنتَ مستعدٌّ لذلك، مهما واجهنا من عقباتٍ ومشاقَّ في سبيل تحقيق هذا الهدف النَّبيل والغايةِ العُظمى؟

فأجاب قائلاً: نعم، أنا مستعدٌّ لذلك، بل سأعتبرُه مشروعَ العمر بإذن الله.

فقلت: إذاً توكَّلنا على الله.

بدأنا بدراسةِ الخطوات الأولى، ثم انضم إلينا عددٌ من الزملاء الأخيار، وماهي إلا سنوات معدودة، فإذا المشروع يُصبح واقعاً عبر مركز (تدبُّر) في المملكة، وبما أنَّ القرآن الكريم رسالةٌ للعالمين: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (التكوير: ٢٧)، فكان لا بدَّ من إنشاء هيئة عالمية تُعنَى بهذا المشروعِ العظيم، فبدأت الخطوات لإنشاء: (الهيئة العالميَّة لتدبُّر القرآن الكريم) كأوَّل هيئةٍ عالميَّةٍ علميَّة متخصِّصة تُعنى (بالتَّدبُّر)، وتمَّ ذلك بفضل الله وتوفيقه.

---

(١) نائب رئيس مجلس الهيئة العالمية لتدبر القرآن.



وشيئاً فشيئاً، فإذا هذا المشروعُ ينمو بأسرعَ من توقُّعِنا، وإذا القَبول المُذهل من الأمَّة أكبرُ من جهودنا، وأصبح همُّنا هو تطبيعُ التَّدبُّر في الأمة، كما طُبِّع التحفيظ والتجويد من قبل.

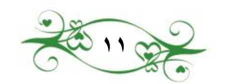
لذا فقد تمت خطوات متلاحقة تحمل أهداف (تدبُّر) إلى الأمَّة، عبرَ وسائلَ متعدِّدةٍ، علميَّة وإعلاميَّة وتربويَّة وإداريَّة.

وفي هذا السبيل كانت محاضرتي في مسجد قباء بالمدينة النبوية عام ١٤٢٨هـ بعنوان: (ليدبروا آياته) فانتشرت عبر التسجيلات والمواقع، بعد إذاعتها من إذاعة القرآن الكريم سنتين متواليتين، أثناءَ شهر رمضانَ المبارك.

ثم طُلب مني نشرُها في كتاب، وكنتُ قد ألقيتُ عدَّة محاضراتٍ حول تدبر القرآن، تناولتُ فيها زوايا مختلفة تتعلَّق بالتَّدبُّر، فتمَّ جمعها وتنقيحُها والإضافةُ إليها وإعادة ترتيب موضوعاتها، فكان هذا الكتابُ الذي بين أيديكم: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾.

وهنا أختمُ بهذه الكلمات التي تكشف عن سرّ هذا المشروع المبارك، مشروع (تدبر):

منذُ عشرات السنين، وأنا ألحظُ إجماعَ الناس على البحث عن السَّعادة، ولكنَّ القليلَ منهم من يُوفَّق لسلوك طريقها، فكانت من أولى محاضراتي: (السَّعادة بين الوهم والحقيقة)، ثمَّ مع مرور الزَّمن، وجدتُ أنَّ سرّ السعادة الحقيقية هو في القرآن الكريم، وأنَّ مفتاح هذه الكنوز والأسرار هو (التَّدبُّر):

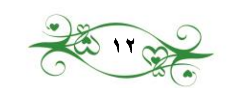


تأمَّل معي أيُّها المبارك: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ (سورة طه: ١، ٢) كم وقفتَ عندها متدبِّراً؟

وخلاصةُ فهمي لها: أنه لا يُمكن أن يشقَى مَن معه القرآن، ووجدتُ في آخر السورة ما يؤكِّد ذلك: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ سورة (طه: ١٢٣)، وأعظم الهدى هو القرآن، وآية الاسراء توضح هذه الحقيقة: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٩)، وإذا سورة طه تُبيِّن مرة أخرى سرّ الشقاوة والتعاسة في الدنيا والآخرة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ (طه: ١٢٥، ١٢٦)، والإعراضُ عن القرآن هو إعراضٌ عن ذكر الرَّحمن.

ويستمرُّ القرآنُ يرسم لنا طريق الخلاص من المرض والشَّقاء، حيث نجد أن سورة الإسراء التي بينت أنَّ القرآن هو مصدر الهداية، تكشف لنا أنَّ القرآن ذاته هو الكاشف عمَّا يحل بالمؤمن من شقاء وعنت: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أما المعرضون عن الاستشفاء به فجزاؤهم: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء: ٨٢).

إنَّ مفهوم الاستشفاء بالقرآن، ليس – كما يظن البعض – محصوراً



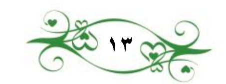
بالرقية الشرعية، (وهي إحدى وسائل الاستشفاء)، ولكن المفهوم أوسع وأشمل وأعمق، حيث يتناول جميع أنواع الاستشفاء لمشكلات الأمة وأفرادها، يكون بالتحكيم لهذا الكتاب: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٥).

ويكون بالعمل بالقرآن كله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ (البقرة: ٨٥)، وإذا لم يتحقق الإيمان فلن تتحقق السعادة، ولن يذهب العناء، لأن الله قال: ﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء: ٨٢).

ووجدتُ في كتاب ربي الدليل الذي لا يخطئ نحو تحقيق الحياة الهنيَّة: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٩٧).

وقد تعجبتُ وأنا أجد القرآن يرسم لنا منهج السعادة بأساليب شتى، ويدل على الخلاص من البلاء والشقاء بوسائل نافعة ناجعة، تأمل معي هذه الأقسام من الله، في سورة الليل:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ (الليل، الآيات: ١ ـ٧)، ثم يبين أن هذا المال الذي يعتبره أغلب البشر سرّ السعادة، إنما هو سرّ الشقاء والعناء، إذا لم يكسب وينفق وفق أمر الله وشرعه، ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾ (الليل، الآيات: ٨ ـ١١)، ويختم هذه الآيات بهذه الحقائق:



١. ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾ (الليل: ١٢)، والموضح لسبيل ذلك هو القرآن.

٢. ويضرب أنموذجين متقابلين:

أ. مثال الشقي التعيس دنيا وأخرى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ (الليل، الآيات: ١٤ ـ١٦).

ب. مثال التقي الذي نال جماع السعادة دنيا وأخرى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ (الليل، الآيات: ١٩ ـ٢١).

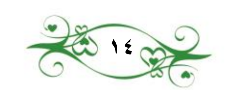
ويزداد عجبي وأنا أجدُ هذه المعاني العظيمة، في هذه السورة بعد ما مضى من العمر شبابه وكهولته، مع أنَّني حفظتها في الصغر، فَلِمَ لْم أفقه هذه المعاني إلا في الكبر!

ما السرّ في ذلك؟ إنه (التدبر)! من أقبل عليه فسيجد مفاتيح هذه الكنوز، ومن أعرض عنه فلا يلومنّ إلا نفسه، وقد يستمر في غفلته طول حياته: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ (محمد: ٢٤)؟

من خلال التدبر، وجدت أعظم وسيلة لتجاوز المصائب التي قد تعترض الإنسان في حياته، فيا ترى ما هو هذا المفتاح؟

إنه في سورة الشورى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ (الشورى: ٣٠).

ومثاله الواقعي في سورة آل عمران: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ (آل عمران: ١٦٥).



والمفتاح هو أن تدرك بأن سبب هذه المصيبة من كسب يدك، فتفرّ إلى ربك تائباً مستغفراً صادقاً، فتنجو من تلك المصيبة بعد أن تُكمل شروط التوبة ولوازمها: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال: ٣٣).

والخلاصة التي أصل إليها: أنَّ السعادة كلَّ السعادة في العيش مع كتاب الله، مصداقاً لقول المصطفى ﷺ: «تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب الله»[1].

ولن نصل إلى لبّ هذه السعادة، إلا من خلال الطريق الذي جعله الله لذلك: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (صورة: ٢٩)، مع الحذر من الاقتصار على مجرد التلاوة بلا تدبر، فهذا شأن أهل

---

(١) عن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه و سلم خطب الناس في حجة الوداع فقال: قد يئس الشيطان بأن يعبد بأرضكم و لكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم فاحذروا يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا: كتاب الله و سنة نبيه ﷺ إن كل مسلم أخ المسلم المسلمون إخوة و لا يحل لامرىء من مال أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس و لا تظلموا و لا ترجعوا من بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض. رواه الحاكم وصححه، تعليق الذهبي قي التلخيص: احتج البخاري بعكرمة واحتج مسلم بأبي أويس عبدالله وله أصل في الصحيح.

ورواه مالك في موطأه مرسلا: (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه)، قلت وأصل الحديث عند مسلم وأبو داود وابن ماجة بدون لفظة: (وسنتي) أو (وسنة نبيه ﷺ). وفي سنن الترمذي: لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي.



الكتاب الذين ذمهم الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ (البقرة: ٧٨)، قال بعض المفسرين: إلا تلاوة.

وأثنى الله على آخرين من أهل الكتاب لتدبرهم ما أنزل الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ (البقرة: ١٢١)، ومن حق تلاوته تدبُّرُه والعملُ به، كما نصّ العلماء.

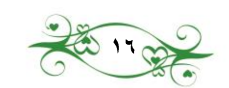
وبهذا يتحقق الإيمان الذي هو شرط السعادة والرحمة والشفاء ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الإسراء: ٨٢)، وإلا كان الشقاء والعناء: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء: ٨٢).

وبعد:

فمن خلال هذا الفهم لكتاب الله، طفقت أدلُّ الناس على ما يسعدهم ويحقق لهم أمانيهم ويخرجهم من الشقاء والعنت.

ولقد رأيتُ والحمدلله نتائج باهرة عظيمة، من خلال هذا الفهم الذي أعتبره توفيقاً من الله لي ولإخواني في (تدبر)، حيث لا أُحصي من يتصل ويشكر على هذا الدواء الشافي بعد أن ضلَّ سنين عدداً في بلاء وتعاسة، استخدم خلالها أنواعاً من العلاجات الحسية والمعنوية التي لم تحقق له مراده ولم تجلب له السعادة.

وإنْ ادَّعى مدَّعٍ أنه قد استعمل هذا الدواء (دواء العلاج بالقرآن من خلال التدبر، ولم يتحقق له الشفاء القلبيُّ أو الحسيُّ، وشفاء القلب أعظم من



شفاء البدن) فليعلم أنه لم يستعمله على وجهه الصحيح، أو أنَّ هناك موانع حالت بينه وبين تحقق ذلك، ولبّ الشفاء هو الحمد والرضى، ولو بقي ظاهرُ البلاء.

فكلام الله حق ووعده صدق ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ (طه: ١، ٢)، والخطوة الأولى أن يكون القرآن في قلبك، وليس على طرف لسانك ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ (الشعراء: ١٩٣، ١٩٤)، ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (محمد: ٢٤)، فالمنافقون يتلون القرآن لكن لا يتدبرونه، لذلك لا ينتفعون به.

آمل أن تجد أخي بعض ما أشرت إليه في هذه الصفحات من الإيمان والهداية والسعادة والرحمة، وتتخلص من ما يعترضك من الغمِّ والضنك والشقاء، كما نجا يونس عليه السلام ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ (الأنبياء: ٨٧، ٨٨)، ثم يكرمنا سبحانه وتعالى بأن هذا ليس خاصاً لذي النون، بل لكلِّ من أصابه الغم فاستشفى بعلاج يونس: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٨)، فيا طولَ حسرة المفرطين:

كالعيسِ في البيداء يقتلها الظمأ والماءُ فوق ظهورها محمول

وهذا الكتاب جزء من هذا المشروع المبارك (تدبُّر) المشروع الطموح الذي من أجله أُنشئت (الهيئة العالمية لتدبر القرآن).

نسأل الله أن يرزقنا الصدق والإخلاص وحسن القول والعمل، وأن يبارك في مشروعنا الذي هو مشروع الأمة جميعاً، وأن يجزي خير الجزاء كل من ساهم في هذا المشروع بأيِّ جهد حسي أو معنوي، فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وهل صلح أولها إلا بالكتاب والسنة، وأسأل الله أن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

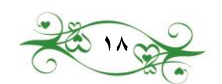
وأشكر كلَّ من أثرى هذا الكتاب بإضافةٍ أو فائدة أو اقتباس، أو ساهم في إخراجه إلى النور، وأستغفر ربي من كل خطأ وتقصير.

والحمدلله أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على نبيِّنا محمد وآله وصحبه.

وكتب: نَاصِر بن سُليمَان العُمَر

رئيس الهيئة العالمية لتدبر القرآن

جدة، مساء الاثنين: ١٤٣٢/٠٧/١٨هـ



فصلٌ تمهيديٌّ

نورٌ على نورٍ: الإيمانُ والقرآنْ!

١. أين الخلل؟

إنَّ الأمة الإسلاميَّة اليومَ تُعاني من بلاءٍ ومصائبَ، وكثيرٌ من الناس يسألُ: أين المخرجُ، وما هو العلاجُ؟ وكيف السَّبيل لتجاوز هذا النَّفق المظلم؟ ومن أين تُسفرُ شمس الأمَّة؟ ومتى سيكونُ مولدُ فجرِها؟

ومن ناحيةٍ أخرى، فإنَّ جميعَ المسلمين على يقينٍ بأنَّ المخرج من هذه الأزمات المتعاقبة على الأمة، وهذه الكُرُبات والليالي الحالكات، هو في كتاب الله، إلاّ أن هذا اليقينَ يبقى في القلوب دونَ أن يترتّبَ عليه أثرٌ عمليٌّ في الواقع!

نعم، كثيرٌ من المسلمين إذا سُئل عن سبب واقع الأمَّة المرير، أجاب قائلاً: ذلك لبعدنا عن كتاب ربنا!

وإذا سئل: فما هو الحلُّ، وكيف نُغيِّرُ هذا الواقع إلى ما نرجوه لأمتنا من الرِّيادة والمجد؟ أجاب قائلاً: يكونُ ذلك بالرجوع إلى كتاب ربنا!

فإذاً: الداء معروف، والدواء معروف، فأين تكمن المشكلة؟

يُصوِّر مشكلتنا أدقَّ تصويرٍ، حالُ المريضِ، وهو يُصغي إلى طبيبه،



يحدِّثهُ عن الجرعات اليوميّة للدواء، وكيفيّة استعماله وموانع استعماله، ثمَّ وهو يقرأ وصفة الدّواء، يتعرّف من خلالها على صفات الدواء، لكنّه رغم ذلك يُهمل في استعمال هذا الدواء، فلا يهتمُّ بتناوله، وإذا تناوله لم يأبه بإرشادات الطبيب حوله!

هذا هو أيُّها الإخوة حالُ كثير منّا مع القرآن، الّذي أنزله الله سبحانه وتعالى شفاءً وهدايةً ورحمةً، فلم نُعطه حقّه وما يستحقُّه من التّلاوة والتّدبُّر! فلذا ظللنا، وظلّت أمَّتُنا تُعاني من الأمراض والعلل والأدواء!

٢. (كالعيس في البيداء).

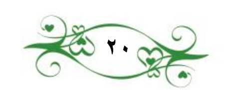
وهذا كلُّه مع علمنا ويقيننا بأنَّ القرآنَ شفاءٌ ناجعٌ مُجرّب، جرَّبتهُ الأمّة يومَ استقامت على منهجه، فدانت لها الدّنيا بأسرها، واستضاء بنورها الكونُ كلُّه.

والله سبحانه وتعالى قد قرَّر فيه حقيقةً ساطعةً، إذ يقول في محكم آياته:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦).

ويقول: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ (الجن: ١٦).

ويقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٩).



فما أعجبَ حالَنا وحال أمّتِنا!

نمتلك كلّ مقوّمات النّصر والمجد، ولكن لا نأخذ بها، ونرضَى بدلاً من ذلك بحياة الذُّلّ والهوان، فصدق علينا قولُ الشّاعر:

ومن العجائبِ والعجائبُ جمّةٌ قربُ المرادِ وما إليه وصولُ
كالعِيسِ في البَيداءِ يقتلها الظّما والماءُ فوقَ ظهورها محمولُ

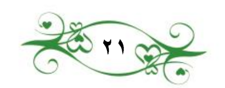
٣. مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ؟!

أخي المسلم،

لا شكَّ أنَّك غارقٌ في لُجَجِ المشاغل والهموم، واللّهث المحموم وراء حُطام هذه الدُّنيا، قد أُحيط بك، وقيل لك: هذه هي حقيقةُ الحياة، بلى هذه هي حقيقة الحياة الدُّنيا، ولكنّها ليست هي حقيقةَ الحياة التي يُريدنا الله عزّ وجلّ أن نحياها، والتي أنزل القرآنَ نوراً يضيء طريقنا فيها!

حياتُك هذه وحياتنا – نحن المسلمين في هذا العصر – هي الثّمرة الطبيعية لبعد كثير منّا عن الله عزّ وجلّ، وإعراضهم عن الذّكر الّذي أنزله لهدايتنا، اسمع لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، أليس هذا هو واقعُ حياتِنا، وياليت الشقاء يقفُ عند هذا الحدِّ! قال: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ (طه، الآيات: ١٢٤ ـ١٢٦).

عجباً! لقوم يعرضون عن ذكرهم، وفيه سعادتهم وفلاحهم في الدّنيا والآخرة!



﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ (الانفطار: ٦)!

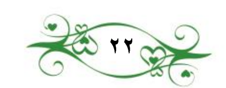
ألا فلنكُفَّ عن السَّير في هذه الدروب المظلمة، ولنُيَمِّم وجوهنا شطرَ القرآن الكريم، ونفوسُنا ملأى بالثقة واليقين بأنّه طريقُ النّجاة والسّعادة!

نعم، ثق بأنّك، وقد وضعتَ أُولى خطواتك في هذا الطريق، تُريد أن تُوثِّق الصِّلة بينك وبين خالقك، من خلال توثيق الصّلة بينك وبين كتابه الكريم، ثِقْ بأنّ هذا هو طريقُ الفلاح والنّجاح في الحياة، وهو طريقُ التّكريم والتّشريف والسُّموّ والرّفعة، وأنّك على نورٍ من الله، فلتقتبس منه صباح مساءَ، ولتُضِئْ به حياتك وحياة الآخرين!

٤. يأسٌ ساذَجٌ!

(الشَّكُّ في حقيقةِ أنَّ القرآن هو المخرجُ من الأزمة)!

ولا ريبَ أنّه قد طرق مسمعكَ يا أخي قولُ فئةٍ من النّاس، ممّن ينتسبون إلى الإسلام، ولكن قد بلغ منهم اليأس مبلغاً بعيداً، حتّى صاروا يشُكُّون في تلك الحقائق النّاصعة والسّاطعة، المؤكّدة بأنّ كتاب الله عزّ وجلّ هو مخرجُ الأمة من أزماتها، وهو طريقُ سعادتها ومجدها في الدّنيا والآخرة، فيقول أحدُهم بلسان حاله: لقد قلّبتُ المصحف ورقة ورقة، فلم أجد فيه علاجاً للمشكلات التي يُعانيها الإنسان في هذا العصر، من القلق واليأس والضّنك، كلاَّ ولم أجده يذكر منهجاً واضحاً لخروج الأمَّة من واقعها المأزوم، وكيفيّة انتصارها على عدوّها، كما لم يذكر القرآن أمريكا، ولا بيَّنَ آليةَ التعامل مع الأمم المتحدة، و ... الخ!!!



وتلك لعمرُ الله نظرةٌ ساذِجة في ظلّ واقعٍ مليء بالمتغيرات والمتباينات والمجاهيل!

إنّنا ابتداءً نعترفُ بالتّعقيد الّذي يكتنفُ واقع الحياة المعاصرة، ولكنَّ ذلك كلّه هو ثمرةٌ للبعد عن المنهج الإلهيّ، كما أنّ المشكلات المعقّدة التي يعرضونها على الإسلام ليحُلّها هي مشكلاتهم، قد نشأت نتيجةً لبُعدهم عن الهداية الإلهيَّة!

ومع ذلك، فإنَّ حلَّ جميع مشكلات الإنسانيّة، كما هو واضحٌ لدى كلِّ مسلمٍ يؤمن بالله واليوم الآخر، إنّما يتمثَّل في شيئين، هما: الإيمانُ وهذا القرآنُ! بالإيمان والقرآن نُغيّرُ أنفسنا، وعندئذٍ يتغيّرُ العالَم كلُّه من حولنا!

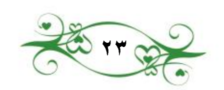
إذن، مهما ادلهَمَّ ظلامُ الكون من حولنا، وأحاطت بنا الحوادث والنّكبات، فنحن على يقينٍ بأنّ ذلك كلّه بتقدير الله عزّ وجلّ، وأنّه لا ملجأ من الله إلا إليه!

فهذا الظّلام والقتام الّذي يُغطي وجه الكون، إنّما يتمثّل سببُه الأساس في البعد عن الله عزّ وجلّ ومعصيته، وبالتّالي فإنَّ علاجه يتمثّل بصورة رئيسة في الإيمان بالله سبحانه وتعالى وبهذا القرآن الّذي أنزله لهداية الناس إلى الصراط المستقيم!

فيا أيّها المسلم، وقد أكرمك الله عزّ وجلّ بأن تكون من أمّة الإيمان والقرآن، فاعلم أنَّ هذا هو الطريق، ولا تُلق بالاً لمن بالَ الشيطانُ في آذانهم، فباتوا يُشكِّكون في عقيدة أمَّتهم وكتاب ربِّها، واسمعْ لنداء محمد إقبال[1]:

---

(١) انظر: نشيدنا، لأبي الجود ص١٢٢.



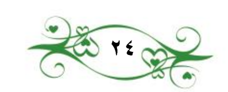
إنّ هــذا العصــر ليــلٌ فــأنر ... أيّهــا المســلمُ ليــل الحــائرين!
وســفينُ الحــقِّ في لُــجِّ الهــوى ... لا يُــرَى غــيرُك ربّــانَ السَّــفين!
أنــت كنــز الــدُّرِّ واليــاقوت ... في موجة الــدُّنيا وإن لم يعرفــوك!
محفــلُ الأجيــالِ مُحتــاجٌ إلى ... صوتِك العالي وإن لم يسـمعوك!

٥. حقيقةُ الإيمان:

الإيمان هو الحياة الحقيقيةُ للإنسان، وبالمقابل فالكفر هو الموتُ الحقيقيُّ، ولقد وصفَ القرآنُ الذين عاشوا على غير هديه بالموتى، مع أنهم يأكلون ويشربون ويروحون ويغدون، قال الله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ۝٨٠ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ (النمل: ٨٠، ٨١).

ويقف ابن القيم رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: ٢٤)، ليقرِّر «أنَّ الحياة النافعة إنما تحصُل بالاستجابة لله ورسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياةٌ بهيميَّة مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياةُ من استجاب لله والرَّسول ظاهراً وباطناً، فهؤلاء هم الأحياءُ وإن ماتوا، وغيرُهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان.

ولهذا كان أكملُ الناس حياةً أكملَهم استجابة لدعوة الرَّسول، لأنَّ ما



دعا إليه فيه الحياة، فمن فاته جزءٌ منه فاته جزءٌ من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرَّسول»[1].

«والإنسان مضطرٌّ إلى نوعين من الحياة: حياة بدنه التي بها يدرك النافع والضارَّ، ويُؤثِرُ ما ينفعه على ما يضرُّه، ومتى نقصت فيه هذه الحياةُ ناله من الألم والضعف بحسب ذلك، ولذلك كانت حياةُ المريض والمحزون وصاحب الهمِّ والغمِّ والخوف والفقر والذُّل دون حياةِ من هو مُعافى من ذلك. وحياةُ قلبه وروحه التي بها يميز بين الحق والباطل والغيِّ والرَّشاد والهوى والضلال، فيختار الحقَّ على ضده، فتُفيده هذه الحياة قوة التمييز بين النافع والضار في العلوم والإرادات والأعمال، وتفيده قوة الإيمان والإرادة والحبِّ للحق، وقوة البغض والكراهة للباطل، فشعوره وتمييزه وحبُّه ونِفرتُه بحسب نصيبه من هذه الحياة»[2].

٦. حقيقة القرآن:

يقول الرّسول ﷺ: «**كتابُ الله، حبلٌ ممدودٌ من السَّماء إلى الأرض**»[3]، وفي حديثٍ آخر عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَبْشِرُوا وَأَبْشِرُوا، أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،

---

(١) الفوائد: ص ٨٨.

(٢) الفوائد: ص ٨٩.

(٣) السلسلة الصَّحيحة (٢٦٠).



وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا، وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا»[١].

ونظر بعضُ العلماء إلى القرآن من ناحية طرفه الذي بيد النّاس، فعرّفوه بأنه: «اللفظ المنزل على النبي ﷺ من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس»[٢]، وعرّفه آخرون بأنّه: «الكلام المعجز، المنزل على النبي ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته» وأنت ترى أن هذا التعريف جمعَ بين: الإعجاز، والتنزيل على النبي ﷺ، والكتابة في المصاحف، والنقل بالتواتر، والتعبد بالتلاوة، وهي الخصائص العظمى التي امتاز بها القرآن الكريم»[٣].

وهذا الطرفُ من حبل القرآن المتين، هو الّذي يملك الناس أن يتعاملوا معه، فيشُدّونه ويتمسّكون به.

وأمّا الطرف الآخرُ الّذي بيد الله عزّ وجلَّ، ولا يملك الإنسان أن يتعامل معه، فهو أنّ القرآن «نورٌ من عند الله، أنزله إلى خلقه يَستضيئونَ به»[٤]، وهذا النور، يسكبه الله عزّ وجلّ في قلب المؤمن ومن شاء الله هدايته من

(١) السلسلة الصحيحة (٧١٣).

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن: ١/ ١٩.

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن: ١/ ١٩.

(٤) تفسير الطبري: ١٩/ ١٨٨.



الناس، عند تلاوته للقرآن الكريم أو سماعه، أي عندَ هزِّه وتحريكه وتمسّكه بطرف الحبل الّذي بيده.

إذن، فالقرآن له طرفانِ، طرفٌ نستطيع أن نمسك به، ألا وهو تلاوةُ القرآن خاصَّةً (باعتبار أنّ السمات الأخرى، متحقِّقة في القرآن أصلاً) والتّلاوة هي ما نحن مطالبون به. أمّا الطرف الآخر من القرآن، فليس بيدنا الإمساك به، إنما هو بيد الله عزّ وجلّ، ألا وهو كون القرآن روحاً ونوراً!

وعندما يُمسك المسلم بالطرف الذي يليه تالياً للقرآنِ، فعندئذٍ يُفيض الله عزّ وجلّ من أنوار القرآن وروحه، على عبده بحسب ما في قراءته من صدقٍ وتدبُّر وإخلاص!

أمّا عن آثار هذا النور الإلهيِّ الفائض على القلب، فيقول سيد قطب: «ويجدُ الإنسان في قلبه هذا النُّور؛ فتتكشَّف له حقائقُ الوجود، وحقائق الحياة، وحقائق الناس، وحقائق الأحداث التي تجري في هذا الكون وتجري في عالم الناس.. تتكشَّف له في مشهد كذلك رائع باهر، مشهد السُّنَّة الدقيقة التي تتوالى مقدماتها ونتائجها في نظام محكم، ولكنه فطريٌّ ميسر»[1].

فما أعظم القرآنَ!

وإذا كان القرآنُ بتلك المثابة: رَوحاً للقلوب، ونوراً يُضيء طريق

(١) في ظلال القرآن: ٣/ ١٣٨.



الحياة، ويكشفُ عنها الظلام ويُزيل من ملامحها القَتام؛ فما أحرانا بأن نُعظِّمَهُ ونُكرِمه، ونوليه ما يستحقُّه من العناية والاهتمام!

فلنتذكَّر دائماً: أنّ القرآن هو كلام الباري جلَّ في علاه، وأثرٌ من آثار رحمته، وحبلٌ متينٌ ممدودٌ بيننا وبينه سبحانه وتعالى، طرفٌ منه بأيدينا، إذا تمسّكنا به تلاوة وتدبّراً واستماعاً وحفظاً، جازانا بالطرف الّذي بيده سبحانه وتعالى علماً وضياءً ونوراً وشفاءً!

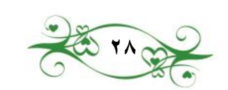
فإذا أحكمنا السُّوَر والآيات الّتي نقرؤها أو نسمعُها تلاوةً وتدبُّراً، رفع اللهُ درجتنا وأعلى مرتبتنا، وجعلنا في مقام المناجاةِ له سبحانه وتعالى، والفهم عنه، والتّعلّم منه، والتّعرُّضِ لرَوحه ورحمته ونوره!

لعلّنا ندرك الآن: أنّ أول واجبٍ علينا، نحو هذا القرآن، هو أن نوليه ما يستحقُّه من التّعظيم والتّوقير والإجلال! وحُقَّ له ذلك!

نـــورٌ علـى مَـــرِّ الزمـان تألَّقـا — وأضـاءَ للـدُّنيا طريقـاً مُشـرقا
وهُدىً مـن الـرَّحمن يَهـدينا بـه — للصَّـالحات وللمكـارم والتُّقـى
هـــذا كتـــابُ اللهِ زادُ قلوبِنـــا — وشـفاؤنا مــن كـلِّ داءٍ أرهقـا
هـذا هـو القـرآنُ مصـدرُ عزِّنـا — فَبِــهِ تبوَّأنــا المكــانَ الأسمقــا

٧. العلاقة بين الإيمان والقرآن:

قد رأينا أنّ الإيمان بالنسبة للإنسان هو حياته الحقيقية، هو روحُه! ورأينا كذلك أنّ القرآن في الحقيقة نورٌ يُفيضُه الله عزّ وجلّ على قلب عبده، عندَ تلاوته للقرآن!



وكلاهما: الإيمان والقرآن، لا بدّ منهما للإنسان، لا يمكن الاستغناء عن أحدهما بحالٍ من الأحوال!

وللإنسان من حيثُ اجتماع صفتي الإيمان وتلاوة القرآن أربع مراتب.

روى الإمام البخاريُّ في صحيحه، عَنْ أَبِي مُوسَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ:

«الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ، كَالْأُتْرُجَّةِ: طَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَرِيحُهَا طَيِّبٌ! وَالْمُؤْمِنُ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ، كَالتَّمْرَةِ: طَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَلَا رِيحَ لَهَا! وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، كَالرَّيْحَانَةِ: رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا مُرٌّ! وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، كَالْحَنْظَلَةِ: طَعْمُهَا مُرٌّ أَوْ خَبِيثٌ، وَرِيحُهَا مُرٌّ!»[1]!

فالمرتبة الأولى، يجتمع فيها الإيمان والقرآن، تشمُّ رائحةً طيّبة، ثمّ تذوق الطّعم فتجده كذلك طيباً! ومثال هذه المرتبة ورمزها هو (الأُتْرُجَّة)!

وفي المرتبة الثانية، يحضر الإيمان ويغيب القرآن، فلا تشمّ رائحةً طيّبةً، ولا ترى سمتاً رائقاً، ولكنّك إذا ذقت الطعمَ ألفيتَه طيّباً! ومثال هذه المرتبة هو (التّمرة).

وفي المرتبة الثالثة، يغيبُ الإيمان، ويحضر القرآن، فتشمُّ رائحةً طيّبةً، وترى سمتاً حسَناً، ولكنّك إذا بلوتَ وجرّبتَ وذُقتَ؛ لم تجد طعماً طيّباً، ومثالُ هذه المرتبة هو (الرَّيحانة).

---

(١) متّفق عليه: البخاري (٥٠٥٩) ومسلم (٧٩٧).



وفي المرتبة الرابعة، غابا معاً: الإيمان والقرآن، فرائحةٌ خبيثةٌ وطعمٌ مرٌّ، ومثالها (الحنظلة).

إذن، فينبغي على المسلم، أن يُقبل على القرآن، بكلِّ صدقٍ طمأنينة ويقين، واثقاً ممّا سيُفيضه الله عليه من رَوحه ورحمته، عند إمساكه بطرف الحبل الّذي يليه من القرآن، أي عند تلاوته!

فالإيمان حياةُ الإنسان الحقيقيّة التي يتميّز بها عن الحيوان، والقرآنُ هو روحُ هذه الحياة الإنسانيّة!

أو بعبارةٍ أخرى، للإنسان حياتان:

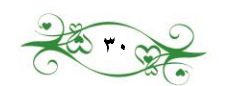
الحياة الأولى، تكون بنفخ الرّسول الملَكيِّ، وقبلها يكون من جملة الأموات، وحقيقتُها هي الإيمانُ بالله عزّ وجلّ، وإلا فهو مثلُ سائر البهائم!

الحياة الثّانية، وتكون بنفخ الرّسول البشريِّ، أي بالقرآن والوحي، وهي حياة القلب.

وكما يقول ابن القيّم: «فَمن أَصَابَهُ نفخُ الرَّسُول الملكيِّ، وَنفخُ الرَّسُول البشريِّ؛ حصلت لَهُ الحياتان، وَمن حصل لَهُ نفخُ الْملَكِ دون نفخ الرَّسُول حصلت لَهُ إحْدَى الحياتين وفاتته الْأُخْرَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾»[1]، فجمع له بين الحياتين: الحياة الإنسانيّة غير الحيوانيّة، والحياة الرُّوحيّة القرآنيّة.

---

(١) الفوائد لابن القيم ص: ٩٠.



ويقول ابن القيِّم: «وَقَوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ يتَضَمَّن أموراً:

أَحدهَا: أَنه يمشي فِي النَّاس بِالنُّور، وهم فِي الظلمَة، فَمثله وَمثلهمْ كَمثل قوم أظلمَ عَلَيْهِم اللَّيْل، فضلُّوا وَلم يهتدوا للطريق، وَآخرُ مَعَه نورٌ يمشي بِهِ فِي الطَّرِيق ويراها وَيرى مَا يحذرهُ فِيهَا.

وَثَانِيها: أَنه يمشي فيهم بنوره، فهم يقتبسون مِنْهُ لحاجتهم إِلَى النُّور.

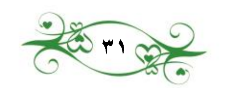
وَثَالِثهَا: أَنَّه يمشي بنوره يَوْم الْقِيَامَة على الصِّرَاط، إِذا بَقِي أهلُ الشّركُ والنِّفاق فِي ظلمات شركهم ونفاقهم»[1].

٨. تأثيرُ القرآن على غير المسلمين والأعاجم!

لحظ كثيرٌ من العلماء القدماء والمعاصرين، ظاهرةً عجيبةً وهي بحق ملفتةٌ للنّظر، ألا وهي أنّ القرآن الكريم قد أحدث تأثيراً عميقاً في نفوس أُناسٍ من غير المؤمنين به، لمّا سمعوه، بل وقد أحدث تأثيراً عميقاً في نفوس بعض من لا يفهمون اللغة العربية أصلاً! وذلك يدلُّ على ما ذكرناه من حقيقة أنّ القرآن الكريم روحٌ ونورٌ إلهيٌّ، وآية ذلك أنّه يخترق القلوبَ، ليُحدث فيها تأثيره العميق.

فمن ذلك ما روي عن الوليد بن المغيرة، أنّه: «كان سيِّدَ قريش، وأحد فصحائهم، لَمَّا سمعه أُخرِسَ لسانُه، وبلد جَنانُه، وأطفِئ بيانه، وقُطعت

(١) الفوائد لابن القيم ص: ٩٠.



حُجَّته، وقُصم ظهره، وظهر عجزه، وذُهل عقلُه، حتى قال: قد عرفنا الشِّعر كلَّه هَزَجَه ورَجَزَه، وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشِّعر!

قالت له قُريش: فساحرٌ؟

قال: وما هو بساحر، قد رأينا السُّحَّار وسحرهم، فما هو بنفثه ولا عقده، والله إنَّ لقوله لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر، وإنَّه ليعلو ولا يُعلى، سمعتُ قولاً يأخذ القلوبَ!

قالوا: مجنون!

قال: لا واللهِ، ما هو بمجنون!! ولا بخنقه ولا بوسوسته ولا رعشته!

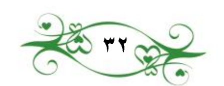
قالوا: كاهنٌ!

قال: قد رأينا الكُهانَ، فما هو بزمزمة الكهان ولا بسجعهم»[1]!

ورُوي: «أَنَّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وكَانَ سَيِّدًا، قَالَ يَوْمًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قُرَيْشٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحْدَهُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَلَا أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأُكَلِّمَهُ وَأَعْرِضَ عَلَيْهِ أُمُورًا لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضَهَا فَنُعْطِيهِ أَيَّهَا شَاءَ، وَيَكُفُّ عَنَّا؟ وَذَلِكَ حِينَ أَسْلَمَ حَمْزَةُ، وَرَأَوْا أَصْحَابَ رَسُول اللَّهِ ﷺ يَزِيدُونَ وَيَكْثُرُونَ، فَقَالُوا: بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ، قُمْ إِلَيْهِ فَكَلِّمْهُ، فَقَامَ إِلَيْهِ عُتْبَةُ حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُول اللَّهِ ﷺ، ... حَتَّى إِذَا فَرَغَ عُتْبَةُ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَمِعُ مِنْهُ، قَالَ: أَقَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَاسْمَعْ مِنِّي، قَالَ: أَفْعَلُ،

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٢/١١١.



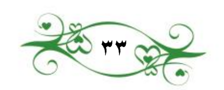
فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، ﴿حمٓ ١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ (فصلت: ١ ـ ٥) ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهَا يَقْرَؤُهَا عَلَيْهِ، فَلَمَّا سَمِعَهَا مِنْهُ عُتْبَةُ، أَنْصَتَ لَهَا، وَأَلْقَى يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا يَسْمَعُ مِنْهُ، ثُمَّ انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّجْدَةِ مِنْهَا، فَسَجَدَ ثُمَّ قَالَ: قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ، فَأَنْتَ وَذَاكَ!

فَقَامَ عُتْبَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: نَحْلِفُ بِاللَّه لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو الْوَلِيدِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ، فَلَمَّا جَلَسَ إِلَيْهِمْ قَالُوا: مَا وَرَاءَكَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟ قَالَ:

وَرَائِي أَنِّي قَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَاللَّهِ مَا هُوَ بِالشِّعْرِ، وَلَا بِالسِّحْرِ، وَلَا بِالْكِهَانَةِ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَطِيعُونِي وَاجْعَلُوهَا بِي، وَخَلُّوا بَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ فَاعتزلوه، فو الله لَيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ، فَإِنْ تُصِبْهُ الْعَرَبُ فَقَدْ كُفِيتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ، وَإِنْ يَظْهَرْ عَلَى الْعَرَبِ فَمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ، وَعِزُّهُ عِزُّكُمْ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ، قَالُوا: سَحَرَكَ وَاللَّهِ يَا أَبَا الْوَلِيدِ بِلِسَانِهِ، قَالَ: هَذَا رَأْيِي فِيهِ، فَاصْنَعُوا مَا بَدَا لَكُمْ» [١].

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٢٩٣.



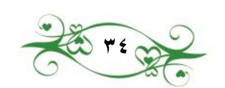
وهكذا «رُوي عن نصرانيٍّ أنه مرَّ بقارئٍ فوقف يبكي، فقيل له: ممَّ بكيتَ؟ قال: للشَّجا والنَّظم»[1]!

قال القاضي عياض: «وذكر أبو عُبيد أنَّ أعرابياً سمع رجلاً يقرأ: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ (الحجر: ٩٤)، فسجد، وقال: سجدتُ لفصاحته، وسمع آخرُ رجلاً يقرأ: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗا﴾ (يوسف: ٨٠)، فقال أشهد أنَّ مخلوقاً لا يقدرُ على مثل هذا الكلام!

وحُكي أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يوماً نائماً في المسجد، فإذا هو بقائمٍ على رأسه يتشهَّد شهادة الحق، فاستخبره فأعلمه أنَّه من بطارقة الروم، ممن يُحسن كلام العرب وغيرها، وأنَّه سمع رجلاً من أسرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأملتها، فإذا قد جمع فيها ما أنزل الله على عيسى ابن مريم من أحوال الدُّنيا والآخرة، وهي قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ (النور: ٥٢).

و«عن جُبير بن مطعم، قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَۜيۡطِرُونَ﴾ كاد قلبي أن يطيرَ للإسلام، وفي رواية: وذلك أولَ ما وقر الإسلامُ في قلبي». وحُكي أنَّ ابن المقفع رامَ أن يتحدّى القرآن، وينسج على مثاله، وشرع فيه؛ فمرَّ بصبيٍّ

(١) الشفا، ٢٠٨/١.



يقرأ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ (هود: ٤٤)، فرجع فمحا ما عمل، وقال: أشهدُ أنَّ هذا لا يُعارَض، وما هو من كلام البشر، وكان من أفصح أهل وقته.

وكان يحيى بن حكم الغزَّال، بليغَ الأندلس في زمنه، فحُكِي أنه رام شيئاً من هذا، فنظر في سورة الإخلاص، ليحذو على مثالها، وينسج بزعمه على منوالها، قال: «فاعترتني منه خشيةٌ ورقَّة، حملتني على التوبة والإنابة»[1].

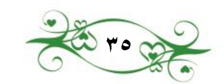
وقد روي عن حكيم العرب في الجاهليّة أكثمَ بن صيفيَّ، أنّه قد بلغه «مخرجُ النَّبيِّ ﷺ، فأراد أن يأتيه فأبى قومُه أن يَدَعوه، وقالوا: أنت كبيرُنا لم تكن لتخفَّ إليه! قال: فليأته من يُبلِّغه عني ويبلغني عنه، فانتُدب رجلان فأتيا النبي ﷺ فقالا: نحن رسلُ أكثمَ بن صيفي، وهو يسألُك: من أنت وما أنت؟ فقال النبي ﷺ: «أمَّا مَن أنا؟ فأنا محمد بن عبد الله، وأمَّا ما أنا؟ فأنا عبد الله ورسوله»، قال: ثم تلا عليهم هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ (النحل: ١٣)، الآية قالوا: اُردُد علينا هذا القولَ، فردَّده عليهم حتى حفظوه، فأتيا أكثم فقالا: أبى أن يرفع نسبه، فسألنا عن نسبه؛ فوجدناه زاكيَ النسب، وسطاً في مضر – أي شريفاً – وقد رمى إلينا بكلماتٍ قد سمعناها، فلما سمعهنَّ أكثمُ، قال: إنِّي أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن مَلائمها فكونوا في هذا الأمر رؤوساً ولا تكونوا أذناباً»[2].

فهذا حكيم العرب أكثم بن صيفيٌّ شهد بعظمة القرآن ودعوته لمعالي الأمور ونهيه عن ملائمها، وهو يومئذ على الكفر؛ لأنه تأمَّل في آية واحدة منه

---

(١) السابق ص٢٧٥.

(٢) تفسير ابن كثير، ٧٦٩/٢.

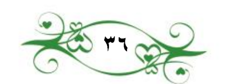


فرأى فيها معاني العظمة والسُّمو، فأرشده ذلك إلى السبق نحو أعظم دينٍ وخير شرعٍ وأجلِّ فضيلة، وفي هذا يقول الطبري رحمه الله: «إني لأعجب ممن يقرأ القرآن! كيف يلتذُّ بتلاوته ولم يفهم معناه؟»[1].

وهذه قصةٌ جميلة أوردها ابنُ الجوزيِّ، تدلُّ على تأثُّر من يسمع القرآن به، ولو لم يفهم معناه، قال رحمه الله: «بلغنا عن عبد الواحد بن زيد، أنَّه قال: ركبنا في مركبٍ فطرحتنا الريحُ إلى جزيرةٍ، فإذا فيها رجلٌ يعبد صنماً، فقلنا له: من تعبد؟ فأومأ إلى الصنم، فقلنا: إنَّ معنا في المركب من يُسوِّي مثل هذا، ليس هذا بإله يُعبد! قال: فأنتم لمن تعبدون؟ قلنا: الله عز وجلّ! قال: وما الله؟ قلنا: الَّذي في السماء عرشُه وفي الأرض سلطانه وفى الأحياء والأموات قضاؤه! فقال: كيف علمتم به؟ قلنا: وجه هذا الملكُ إلينا رسولاً كريماً؛ فأخبرنا بذلك، قال: فما فعل الرسول؟ قلنا: لما أدى الرسالة قبضه الله! قال: فما ترك عندكم علامةً؟ قلنا: بلى! ترك عندنا كتاب الملك! قال: أروني كتاب الملك فينبغي أن تكون كتبُ الملوك حِساناً، فأتيناه بالمصحف، فقال: ما أعرف هذا؟ فقرأنا عليه سورةً من القرآن؟ فلم نزل نقرأ ويبكي! حتى ختمنا السورة، فقال: ينبغي لصاحب هذا الكلام أن لا يُعصى! ثمَّ أسلم وحملناه معنا، وعلَّمناه شرائع الإسلام، وسُوراً من القرآن فلما جنَّ علينا الليل وصلينا العشاء، أخذنا مضاجعنا، فقال لنا: يا قومُ، هذا الإله الذي دللتموني عليه، إذا جنَّ عليه الليلُ ينام؟ قلنا: لا يا عبد الله، هو عظيم قيُّوم لا ينام! قال: بئس العبيد أنتم، تنامون ومولاكم لا ينام! فأعجبنا كلامُه، فلما قدمنا عبادان قلت

---

(١) معاني القرآن، النحاس، ٤/١.



لأصحابي: هذا قريبُ عهد بالإسلام، فجمعنا له دراهم وأعطيناه، فقال: ما هذه؟ قلنا: تنفقها! قال: لا إله إلا الله دللتموني على طريقٍ ما سلكتموها! أنا كنتُ في جزائر البحر أعبد صنماً، فلم يضيعني وأنا لا أعرفه! فكيف يُضيِّعني الآن وأنا أعرفه! فلما كان بعد ثلاثة أيام قيل لي: إنه في الموت، فأتيته فقلت: هل من حاجة؟ فقال: قضى حوائجي من جاء بكم إلى جزيرتي! قال عبد الواحد: فحملتني عيني فنمت عنده، فرأيت مقابر عبادان روضةً وفيها قبة، وفى القبة سريرٌ عليه جارية لم نرَ أحسن منها، فقالت: سألتُك بالله إلا ما عجلت به، فقد اشتدَّ شوقي إليه، فانتبهت فإذا به قد فارق الدنيا فغسلتُه وكفنتُه، وواريتُه فلما جنَّ الليل نمت فرأيتُه في القبة مع الجارية، وهو يقرأ: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (الرعد: ٢٤)»[١].

فهذا رجلٌ حديث عهد بالإسلام، انظر كيف تدبر الذكر الحكيم، فعظَّم القرآن وخشع لسماعه، وما أجملَ وصفَ الإمام الزركشيِّ رحمه الله للقرآن بقوله: «أندى على الأكباد من قطر الندى، وألذُّ في الأجفان من سِنة الكرى، يملا القلوب بشراً، ويبعث القرائح عبيراً ونشراً، يُحيى القلوب بأوراده، ولهذا سمَّاه الله رُوحاً، فقال: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (غافر: ١٥)، فسماه روحاً؛ لأنه يودي إلى حياة الأبد، ولولا الروح لمات الجسد، فجعل هذا الروح سبباً للاقتدار، وعلماً على الاعتبار»[٢].

---

(١) صفة الصفوة: ٣٦٩/٤.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٥/١.



ومن القصص المعاصرة، ما حكاه الأستاذ سيّد قطب، قائلاً: «كنَّا على ظهر الباخرة في عرض الأطلنطي في طريقنا إلى نيويورك، حينما أقمنا صلاةَ الجمعة على ظهر المركب .. ستة من الركاب المسلمين من بلاد عربية مختلفة، وكثير من عمال المركب أهل النوبة، وألقيتُ خطبةَ الجمعة متضمِّنةً آياتٍ من القرآن في ثناياها، وسائرُ ركاب السفينة من جنسيات شتَّى متحلِّقون يشاهدون! وبعد انتهاء الصلاة جاءت إلينا – من بين مَن جاء يُعبِّر لنا عن تأثره العميق بالصلاة الإسلامية – سيِّدةٌ[1] يوغسلافيَّة فارَّة من الشّيوعيَّة إلى الولايات المتحدة! جاءتنا وفي عينيها دموعٌ لا تكاد تُمسك بها وفي صوتها رعشة، وقالت لنا في انجليزيَّة ضعيفة: أنا لا أملك نفسي من الإعجاب البالغ بالخشوع البادي في صلاتكم .. ولكن ليس هذا ما جئتُ من أجله .. إنَّني لا أفهمُ من لغتكم حرفاً واحداً، غير أنَّني أحسُّ أنَّ فيها إيقاعاً موسيقياً لم أعهده في أيَّة لغة .. ثم .. إنَّ هناك فقرات مميزة في خطبة الخطيب، هي أشدُّ إيقاعاً، ولها سلطانٌ خاصٌّ على نفسي!!! وعرفتُ طبعاً أنَّها الآيات القرآنية، المميَّزة الإيقاع، ذات السلطان الخاص! لا أقول: إنَّ هذه قاعدة عند كلِّ من يسمع ممَّن لا يعرفون العربيَّة .. ولكنها ولا شكَّ ظاهرةٌ ذات دلالة!»[2].

---

(١) كذا قال: ويريد امرأة.

(٢) في ظلال القرآن: ٢/ ٨٢١.



٩. تدبّر القرآن و تدبّر السُّنّة.

السنة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع، وهي تشمل أقوال النّبيّ ﷺ وأفعاله وتقريراته، وقد حوت في طيَّاتها شرحاً وبياناً لكثير من آيات القرآن الكريم وأحكامه، ببيان مجمله وتقييد مطلقه وتخصيص عمومه، وقد قرر غيرُ واحد من أهل العلم أنَّ السنة قاضية على الكتاب، بمعنى أنها كاشفةٌ وموضحة لما فيه مما قد يحتمل وجوهاً متعددة، وعلى ذلك فإنَّ فهم القرآن الكريم وتدبره تدبراً صحيحاً، لا يمكن أن يتم بمعزل عن السنة في كثير من الأحيان، وكمثالٍ على ذلك حديثُ عبد الله بن مسعود في الصحيحين، قال: «لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (الأنعام: ٨٢)، شقَّ ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله أيُّنا لا يظلم نفسه؟ قال: ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ؟»[1] (لقمان: ١٣)، فقد فهم الصحابة رضي الله عنهم الظلم في الآية الأولى على عمومه، فبين لهم عليه السلام أن الأمر ليس كذلك، بل المقصود نوع مخصوص من الظلم هو الشرك، ولولا هذا البيان من رسول الله ﷺ لما استطاع أحد منهم مهما تدبر أن يعين من تلقاء نفسه أن المراد هو الشرك بدلالة الآية الثانية، فإذا كانت هذه حالهم وحاجتهم للسنة لفهم القرآن الكريم وهم أعلم الأمة، فمَن دونهم ممن جاء بعدهم أولى بهذا الاحتياج.

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣٢٤٦)، مسلم (١٢٤).



ومما يدلُّ على أهمية تدبُّر السّنّة كذلك: أنها تستقل بالتشريع وبيان الأحكام الشرعية مثلها في ذلك مثل القرآن الكريم بدليل قول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر: ٧)، وقوله عليه السلام: «ألا إني أوتيتُ القرآن ومثله معه»[١]، وذكر الشَّوكانيُّ أنَّ هذا مما اتَّفق عليه من يُعتدُّ به من أهل العلم[٢] وأهل التَّحقيق، على أنَّ هذا الأمر ليس قاصراً على الأحكام الشرعية وتحليل الحلال وتحريم الحرام، بل يشمل كل ما تناولته السنة الصحيحة، من الأحكام والعقائد والأخبار والأخلاق والفضائل وغيرها.

ومما يدلُّ على أهمية تدبر السنة قوله عليه السلام في حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه: «نضَّر اللهُ امرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه، فرُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقهُ منه، وربَّ حامل فقهٍ ليس بفقيه»[٣]، وفي حديث ابن مسعود بلفظ: «فرُبَّ مبلَّغٍ أوعى من سامعٍ»[٤]، فهذا المبلَّغُ معه من العلم والفهم والقدرة على الاستنباط ما ليس مع الأول، وهذا كلُّه يحتاجُ إلى إعمال فكر ونظر حرص عليه رسول الله ﷺ حتى دعا لمن يُبلغ كلامه مثلَ هذا الرجل بأن

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ١٣٠/٤ (١٧٢١٣)، تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(٢) انظر إرشاد الفحول ٦٩/١.

(٣) سنن أبي داود ٣٤٦/٢ (٣٦٦٠)، وصححه الألباني.

(٤) سنن الترمذي ٣٤/٥ (٢٦٥٧)، وصححه الألباني.



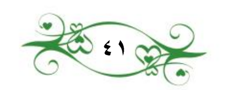
يُنضر الله وجهه، فإن تعدَّى بتأمُّله شرح ألفاظ الحديث إلى بيان مآلات كلام النَّبيِّ ﷺ وعواقبه، فهذا هو التدبر المقصود.

أوجه الاتفاق والاختلاف بين تدبر القرآن وتدبر السنة:

إجمالاً فإننا نستطيع القول: إنَّ أوجه الاتفاق بين تدبر القرآن والسنة أكثر بكثير من أوجه الاختلاف، فالاختلاف بين التدبُّرين يرجع بصفة رئيسة لكون القرآن كلامَ الله عز وجل المتعبد بقراءته وتلاوته في الصلاة وخارجها، بخلاف السنة، فهي كما سبق: أقوالُ النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته، وبعضُها قد ينقل بالمعنى، وبعضها قد ينقل مختصراً، وبعضها قد ينقل ببسط في العبارة، فهي من هذه الجهة في رتبة دون رتبة كلام الله عزَّ وجلَّ، الصادر من الله حقيقة، وكلُّ ما يتعلق بهذا الفرق بين الكتاب والسنة، يكون وجهَ اختلاف فيما يتعلق بتدبرهما، وإذا أردنا التفصيل في ضوء النقاط السابقة التي ذكرناها في تدبر القرآن، نقول:

١ ـ لا فرق بين القرآن والسنة من حيث إنَّ قراءة كل منهما مطلوبة وكذلك تدبرهما والعمل بهما، فقراءة الأحاديث مفتاح تدبُّرها، والعمل من لوازم التدبر، إلاّ أنَّ منزلة وجوب ذلك في القرآن أعلى، ثم إنَّ ألفاظ القرآن الكريم لها مزية، فالوقوف خلف ما لها من دلالات من الأهمية بمكان أسمى، فلا احتمال لنقلٍ بمعنى، بل الله قالها هكذا كما جاءت في القرآن، والسياق هو السياق فلا اختصار، ولا تصرُّف ولا احتمالَ سهو أو إغفال.

٢ ـ وكما يوجد فرق بين تدبر القرآن وتفسيره، فكذلك يوجد فرق



بين تدبر السنة وشرحها، فشرح الأحاديث يبين معاني ألفاظها ومرادَ النبي ﷺ من قوله أو فعله وتقريره، أما تدبر الحديث فيعطي صاحبه من الفوائد والحِكَم ما يتجاوز لفظ الحديث دون مخالفة ظاهره، وكما حُذِّر من تفسير القرآن الكريم بمجرد الرأي، فإننا نحذر كذلك من شرح أحاديث النبي ﷺ بمجرد الرأي، فإذا انقدح في ذهن من يقرأ الحديث معنىً أو نكتة ما، ولم يكن يعلم لها أصلاً من الشريعة فعليه ألا يُشيعها قبل أن يتأكد من أنها لا تخالف الحديث أو أمراً مقرراً في الشريعة.

٣ ـ من وجوه الاتفاق ما يتعلق بالاكتفاء بقراءة الأحاديث وحفظها مع ترك التدبر والعمل، فلا ينبغي أن يكون همُّ المسلم قراءةَ الأحاديثِ وحفظها فحسب، فإنَّ المطلوب الأكبر في هذا الباب هو الالتزامُ بما جاء عن النبي ﷺ والعمل بمقتضاه لا القراءة المجردة، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران: ٣١)، فمن عمل بما جاء عن النبي ﷺ فقد أدَّى ما عليه، فإن جمع إلى ذلك تدبُّراً لأحاديث النبي ﷺ فهو خيرٌ له، إلا أننا لا نستطيع أن نلزمه بذلك حتى مع قدرته على التدبر لعدم ورود ما يدلُّ عليه، بخلاف القرآن الكريم، حيث جاء الأمر واضحاً صريحاً بالتدبر، كلٌّ بحسبه، والله أعلم.

٤ ـ أما العقبات في وجه تدبر السنة، فشبيهة بالمتعلقة بتدبر الكتاب، إذ الإعراض عن مطالعة كتب السنة وقراءة أحاديث رسول الله ﷺ تحول بين المرء وبين تدبرها وهذا أمر بدهي، وكذلك ما يتعلق بالانشغال بحفظ الأحاديث عن تدبرها فبعض الناس يجعل أكبر همه حفظ أحاديث رسول الله

ﷺ وقد يقضي عمراً طويلاً في ذلك حتى يجمع الكتب الستة وغيرها، وغنيٌّ عن البيان أنَّ فائدة هذا الحفظ في أيامنا قد تضاءلت كثيراً عما كانت عليه في زمن الرواية وتدوين السنة وتصنيف مصنفاتها، فإن وُجد في تلك الأزمنة من جعل همه الحفظ دون التدبر، فقد كان لهذا الأمر ما يُسوِّغه وهو حفظ حديث رسول الله ﷺ من الضياع وأداؤه للأمة، وقد تمت هذه المهمة على أكمل وجه، ولم يعد هناك ما يُمكن أن يُضاف إليها من قرون، وليس المقصودُ بهذا الكلام التقليلَ من شأن حفظ أحاديث رسول الله ﷺ، فلا شكَّ أن في حفظها خيراً لصاحبها، بل إنه قد يُعينه على التدبر، لكن المقصود هو التنبيهُ على ترتيب الأولويات.

الأسباب المعينة على تدبر السنة:

هناك العديد من هذه الأسباب، نذكر منها:

- معرفةُ منزلة السنة ومكانتها في الإسلام.
- إدراكُ تأثير تدبر السنة على تدبر الكتاب.
- استحضارُ القلب عند القراءة.
- اختيار الزمان والمكان المناسبين.
- القراءة المتأنية المترسِّلة.
- تكرار النظر وتقليب الفكر في الحديث موضع التدبر.
- الاستفادة من شروح الحديث.



ـ ملاحظة كون كثير مما جاء في السنة يتعلق بأحداث كانت تجري في مجتمع المسلمين مما يجري في كل مجتمع، ومحاولة تنزيل ذلك على واقع المتدبر.

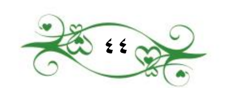
نموذج لتدبر السنة:

روى الإمام أحمد في المسند واللفظ له، والإمامان البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أنس بن مالك ﵁ قال: «كان رسول الله ﷺ يدخل علينا، وكان لي أخٌ صغير، وكان له نُغير يلعب به فمات نغره الذي كان يلعب به، فدخل النبي ﷺ ذات يوم فرآه حزيناً فقال له: ما شأنُ أبي عمير حزيناً؟ فقالوا: مات نغره الذي كان يلعب به يا رسول الله. فقال: أبا عمير! ما فعل النُّغير؟»[1]، فهذا الحديث معناه واضح لا يحتاج لكثير شرح، خلا كلمة نغر وهو نوع من الطيور، والنُّغير تصغيره، وبرغم ذلك فمن تدبر رواياته من العلماء خرج بكثير من الفوائد، قال الحافظ ابن حجر ﵀: «وفي هذا الحديث عدة فوائد جمعها أبو العباس أحمد بن أبي أحمد الطبري المعروف بابن القاص الفقيه الشافعي صاحب التصانيف في جزء مفرد ... وذكر ابن القاصِّ في أول كتابه: أنَّ بعض الناس عاب على أهل الحديث أنهم يروون أشياءً لا فائدة فيها، ومثَّل ذلك بحديث أبي عمير هذا، قال: وما درى أنَّ في هذا الحديث من وجوه الفقه وفنون الأدب والفائدة ستين وجهاً.

قال الحافظ: ثم ساقها مبسوطةً، فلخصتها مستوفياً مقاصده، ثم أتبعتُه

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٣/٢٨٨ (١٤١٠٣)، تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.



بما تيسر من الزوائد عليه»[1]، ثم سرد الحافظ رحمه الله هذه الفوائد ومنها: «جوازُ الممازحة وتكريرُ المزح، وأنها إباحة سنة لا رخصة، وأنَّ ممازحة الصبي الذي لم يُميِّز جائزة، وتكريرُ زيارة الممزوح معه، وفيه ترك التكبر والترفع»[2]، ولولا الإطالةُ لذكرت كلامه بنصه، ولكن الهدفُ أن نبين أثر التدبر لهذا الحديث الذي ظن بعض من لا علم عنده ولا أدب أنه لا فائدة من ذكره كي نقيس عليه.

١٠. خاتمة وتقسيم:

إن القرآن الكريم هو حبلُ اللهِ المتين، فهو الصلة بيننا وبينه، من اعتصم به نجا، وقد أنزلهُ الله إلينا لنقرأَه ونتدبَّره، ونتَّبعَ ما فيه من الأوامر والنَّواهي، ابتداءً من تعظيمه وتوقيره، كونَه كلامَ الله عزّ وجلّ.

بناءً على ذلك، يُمكننا حصرُ ما يجبُ على المسلم أن يقومَ به، نحو القرآن الكريم، في ثلاثة أمورٍ رئيسة، تتعلق بها فروع تُعدُّ ولا تحصى:

الأمر الأول: وجوب تعظيم القرآن الكريم.

الأمر الثّاني: وجوب تلاوة القرآن الكريم وتدبُّره.

الأمر الثّالث: وجوب إقامة حدود القرآن الكريم، وعندئذٍ ينالُ المسلم ثمراتِ تدبّره للقرآن الكريم، وتبدو على حياته آثاره.

---

(١) فتح الباري ١٠/٥٨٤.

(٢) السابق.



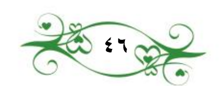
وهذه الأمور الثّلاثة، هي التي سنتناولها بإذن الله، عبر صفحات هذا الكتاب وفصوله الثلاثة، وكلُّها تقوم على ساق التّدبّر لنصوص الوحيين: الكتاب والسّنة.

وهذا التّحديد والتّرتيب لواجباتنا إزاء القرآن الكريم، يجيء متساوقاً مع خبرة الإنسان في هذه الحياة، فأنت – على سبيل المثال – لو جاءتك رسالةٌ من إنسانٍ تُحبُّه، تجيش بصدرك مشاعر الاحترام والمحبَّة لهذا الإنسان، وينعكس ذلك منك على الرِّسالة التي تلقّيتها منه، ومن ثمَّ تقرؤها بكل تدبُّرٍ واهتمام؛ لتعرف ما يُريده منك، لتسعى بعدها جُهدَك في سبيل تلبية رغباتِه وأوامره، وقد ورد عن الحسن البصريّ ما يؤكّد هذا المعنى، إذ يقول: «إنّ من كَان قبلكم رأوا القُرآن رسائلَ من ربهم؛ فكانوا يتدبَّرونها بالليل، وينفذونها بالنهار»[1].

فهذه الخطوات الثلاث: أي: اعتبار آيات القرآن رسائل من ربّهم، وبالتالي توقيرها وتعظيمها، ثمّ تدبُّرها والتّفكّر في معانيها، ثمّ تنفيذها وإقامة أوامرها ونواهيها – خطوات ضروريّة، وترتيبها كذلك ضروريٌّ، ذلك أنّ العمل الّراشد اتّباعاً للقرآن لا يتسنّى بدون قراءةٍ وتدبُّر لإدراك معانيه، كما أنّ القراءة والتدبر لا تتحقّق الثمرة المرجوّة من ورائهما، إذا لم يكن في القلب محبّة وتعظيمٌ للقرآن الكريم.

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن: ص ٢٧.



لكن هذا لا يمنع أن يقود التّدبّر إلى التعظيم، وأن يؤدي العمل إلى التّدبُّر، وأن يؤثر أيٌّ من هذه العناصر الثلاثة (التّعظيم، التّدبّر، التّطبيق) على العنصرين الآخرين.

لكن يبقى تعظيمُ القرآن الكريم هو القاعدةُ، وعلى أساسه تكون التلاوة والتدبر، وعلى أساس التلاوة والتدبر يكون الالتزام والتطبيق العمليٌّ.



الفصل الأول:
وجوبُ تعظيم القرآن الكريم

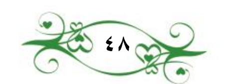
مقدّمة:

الكلام – لا ريبَ – يشرُف بشرف قائله، فكلَّما كان القائلُ عظيماً كانت كلماته كذلك، ولذا قيل في منثور الأدب: كلامُ الملوك ملوكُ الكلام، وهذا في حقِّ كلام البشر، فكيف بكلام خالق البشر؟!

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (النحل: ٦٠)!

ولقد رأينا أنَّ القرآنَ في حقيقته ليس مجرّد آياتٍ تضمُّها دفَّتا المصحف، بل ذلك ما يظهرُ لنا منه، أما في الحقيقة فهو روحٌ ونورٌ، فلذا من البدَهيِّ عندما يُحاولُ المسلمُ إدراكَ هذه الحقيقة، أن يَفيض التّعظيمُ تلقائيّاً من أعماق نفسه لهذا الكتاب الجليل، الّذي هو أثرٌ من آثار رحمة الله بالإنسان!

ومن ناحيةٍ أخرى، فإنَّ تعظيمَ كتاب الله تعالى، هو من تعظيم الله تعالى وتوقيرِه الذي أُمِرْنا به، كما قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ (نوح: ١٣)، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ (الزمر: ٦٧).



بناءً على ذلك يبدو جليًّاً: أنّ تعظيم كتاب الله تعالى، هو الواجب الأول من واجبات المسلم نحو القرآن الكريم، لذا نقف في هذا الفصل، عند معنى تعظيم القرآن الكريم، متناولين المسائلَ الآتية:

أولاً: تعظيم الله ورسوله والصَّالحين للقرآن الكريم.

ثانياً: أحكام تعظيم القرآن الكريم.

ثالثاً: من تعظيم القرآن الكريم: عدمُ هجرهِ.

أولاً: تعظيم الله ورسوله والصّالحين للقرآن الكريم.

ونتناول فيه ثلاث مسائل:

١. تعظيم الله عزّ وجلّ لكتابه.

٢. تعظيم الرّسول ﷺ للقرآن الكريم.

٣. تعظيم الأنبياء والصّالحين للقرآن الكريم.

١. تعظيم الله عزّ وجلّ لكتابه.

لقد عظّم الله عزّ وجلّ كتابه؛ فوصفه بصفاتٍ تنبئ عن عظمته، في غير ما آيةٍ، فمن ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ (ص، الآية: ١)، أي: (ذي الشَّرف)[1]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ (ق: ١)، وقوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة، الآيات: ٧٥–٧٩)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ (فصلت: ٤١، ٤٢).

كما وردت آياتٌ كثيرة، تُرشد إلى احترام القرآن الكريم، وتأمر بالأدب معه والإنصات عند سماعه، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤﴾ (الأعراف: ٢٠٤).

---

(١) تفسير الطبري: ٢١/ ١٣٩.



وفي قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الانشقاق: ٢٠، ٢١)، توبيخٌ على ترك السجود لدى قراءة القرآن، أي الخشوع والخضوع الدَّالان على تعظيم الكتاب العظيم، قال ابن كثير رحمه الله: «أي: فماذا يمنعُهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخِر؟ وما لهم إذا قُرئت عليهم آياتُ الله وكلامُه، وهو هذا القرآن لا يسجدون إعظاماً وإكراماً واحتراماً؟»[1].

وفي الآية السابقة ما لا يَخفى من ذمِّ التاركين لتعظيم كتاب ربِّ العالمين، وبالضِّدِّ فقد مدح الله تعالى المعظمين للقرآن فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ (المائدة: ٨٣)، وقال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ (الزمر: ٢٣)، وقال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: ٢١).

وما أجملَ قيودَ الشَّاطبيِّ رحمه الله في قوله:

---

(١) تفسير ابن كثير: ٦/ ٣٩٨.



فيَا أيُّها القاري به مُتَمَسِّكا مُجِلاً لهُ في كلِّ حالٍ مُبجِّلا
هنيئاً مريئاً والِدَاكَ عليهِما ملابسُ أنوارٍ من التَّاج والحُلا

٢. تعظيمُ الرَّسول ﷺ للقرآن.

كان النبيُّ ﷺ أكثرَ الناس تعظيماً وإجلالاً لكلام لله تعالى، فقد كان يقوم بالقرآن حتى تورّمت قدماه، حباً له ولمن أنزله، يتلوه في غسق الدجى، ويُناجي به الله، ويبتهل به إليه، واجداً المتعة كلّها مع كتاب الله، والسعادةَ في كلماته العطرة، فلا يكاد يشبع منها أو يملُّ، بل تُغريه القراءة منه بالمزيد فما يشعر إلا والفجر قد دهمه! كيف وهو الموحى إليه من ربه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ (النمل: ٩١، ٩٢)، وهو المأمور من الله بالصبر على ذكر ربه، والمصابرة مع أهل القرآن والذِّكْر والعبادة، قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ (الكهف: ٢٨)، وقد كان عند تلاوته أو سماع تلاوته يَدِبُّ في جسده الخشوع، كما حكى ابنُ مسعود رضي الله عنه، قال: (قال لي النبي ﷺ: اقرأ عليَّ! قلت: يا رسولَ الله، أقرأُ عليك، وعليك أُنزل؟ قال: نعم! فقرأت سورة النساء حتى

أتيتُ إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٤١)، قال: «حسبُكَ الآنَ» فالتفتُّ إليه فإذا عيناهُ تذرفان»[١].

أما أقواله ﷺ، الحاثَّة والحاضَّة على تعظيم القرآن فكثيرةٌ، منها قوله: «ولا يمسُّ القرآنَ إلا طاهرٌ»[٢]، وقال ﷺ: «لو كان القرآنُ في إهابٍ؛ ما أكلته النَّار»[٣]، ومن تعظيمه ﷺ للقرآن أنَّه كان يُعظِّم أهلَ القرآن؛ ويقدمهم في الصلاة، فيقول: «يؤمُّ القومَ أقرؤهُم لكتاب الله»[٤]، و«يُقدِّمُهم في القبر عند اشتراكهم مع غيرهم فيه»[٥]، وكان يقول: «إنَّ من إجلالِ اللهِ: إكرامَ ذي الشيبةِ المسلم، وحاملِ القرآن غيرِ الغالي فيه والجافي عنه، وإكرامَ ذي السلطان المقسط»[٦].

---

(١) متفق عليه: البخاري (٤٣٠٦)، مسلم (٨٠٠).

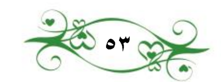
(٢) في الموطأ (٢٩٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٧٨٠).

(٣) صحيح الجامع (٥٢٨٢).

(٤) صحيح مسلم (٦٧٣).

(٥) سنن أبي داود (٣١٣٦)، وحسنه الألباني.

(٦) سنن أبي داود (٤٨٤٦)، وحسنه الألباني.



٣. تعظيمُ الأنبياء والصّالحين عموماً لآيات الله.

قد أخبر اللهُ تعالى عن إجلال الأنبياء وصالحي المؤمنين، من سائر الأمم لآيات الله، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (الإسراء، الآيات: ١٠٧ ـ١٠٩)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ (مريم: ٥٨)، ولقد بيّن الله عزّ وجلّ من صفات عباد الرَّحمن على مرِّ العصور أنّهم: ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (الفرقان: ٧٣).

أمّا السّلف من أصحاب رسول الله ﷺ، فقد كانوا يقرؤون القرآن قراءةَ من وطّن نفسه ليحيا به، قال ابنُ مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعتَ قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأرعِها سمعك، فإنها خير يأمر به، أو شرٌّ ينهى عنه»[1].

(١) رواه ابن أبي حاتم في التفسير (١٠٣٧).



ومن تعظيم السلفِ للقرآن قولُ عمر ﷺ لنافع بن عبد الحارث، لما لقيه بعسفان، وكان والياً لعمر على مكة: من استعملتَ على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى. قال: ومن ابنُ أبزى؟ قال: مولى من موالينا! قال: فاستخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارئٌ لكتاب الله عز وجل، وإنه عالمٌ بالفرائض. قال عمر: أمَّا إنَّ نبيَّكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفعُ بهذا الكتابِ أقواماً ويضعُ به آخرين»[1].

ومن تعظيم عمرَ ﷺ للقرآن، تعظيمُه لأهل القرآن، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لِمَ تُدخل هذا الفتى معنا، ولنا أبناءٌ مثلُه؟ فقال: إنَّه ممَّن قد علمتم، قال فدعاهم ذاتَ يومٍ ودعاني معهم، قال: وما رأيتُه دعاني يومئذٍ، إلا ليُريَهم مني، فقال: ما تقولون في: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ (النصر: ١، ٢)، حتى ختمَ السورةَ، فقال بعضُهم: أُمِرْنا أن نحمدَ الله ونستغفرَه إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، ولم يقل بعضهم شيئاً، فقال لي: يا ابنَ عباس: أكذلك قولك؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت هو أجلُ رسول الله ﷺ، أعلمه الله له، ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، فتحُ مكة، فذاك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ (النصر: ٣)، قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم[2].

فعمرُ ﷺ قدَّمَ ابن عباس إلى مجالس الكبار لعلمه بكتاب الله تعالى، وقد

---

(١) صحيح مسلم (٨١٧).

(٢) صحيح البخاري (٤٠٤٣).



كان البرهان الذي قدمه عمر ﵁ على أهليَّة ابن عباس اختباراً في فهم وتدبر القرآن؛ مما يدلُّ على أنَّ ذلك هو مقياس التفاضل عنده.

ثانياً: أحكام تعظيم القرآن الكريم.

أفرد أهلُ العلم – خاصَّة من ألَّفوا في علوم القرآن – فصولاً لبيان الأحكام الشرعية، التي تعنى بشأن القرآن الكريم والمصحف الذي يتضمنه بين دفتيه، ومن نظر فيها وجد كثيراً منها يعود إلى تعظيم القرآن الكريم وتبجيله، وقد أفرد الزركشيُّ في (البرهان) والسيوطيُّ في (الإتقان) مباحث خاصة، كما أنّ كتب الفقه زاخرة بهذه الأحكام التي من شأنها تعظيم القرآن الكريم، وفيما يلي نورد طائفة منها، دون عناية بترجيح المسائل الجزئية الموردة فالقصد الإشارة إلى ما ذكروه من أحكام هي فرع عن الأصل المتفق عليه: تعظيم القرآن الكريم.

وسنقف في هذا المبحث إزاء مسألتين:

١. من أحكام تعظيم القرآن الكريم.
٢. صورٌ مخالفةٌ لتعظيم القرآن الكريم.

١. من أحكام تعظيم القرآن الكريم.

١) ذهب بعض الفقهاء إلى استحباب تطييب المصحف وجعله على كرسيٍّ، وجوَّزوا تحليته بالفضَّة إكراماً له، وقد روى البيهقيُّ بسنده إلى الوليد بن مسلم، قال: «سألت مالكاً عن تفضيض المصاحف، فأخرج إلينا



مُصحفاً، فقال: حدَّثني أبي عن جدِّي: أَنَّهم جمعوا القرآن في عهد عثمان ﷺ، وأنهم فضَّضوا المصاحف على هذا»[1].

٢) ويحرم توسُّد المصحف وغيره من كتب العلم؛ لأنَّ فيه إذلالاً وامتهاناً، وكذلك مدُّ الرِّجلين إلى شيء من القرآن أو كتب العلم[2].

٣) ويحرم السَّفر بالقرآن إلى أرض العدوِّ لحديثٍ فيه، وللخوف من أن تنالَه أيديهم، ولذا قيل إذا كثر الغزاة، وأُمن استيلاء الكفار عليه لم يمنع؛ لأنَّ العلَّة مخافةُ أن تناله أيديهم[3].

٤) ويحرم كتابة القرآن بشيءٍ نجِسٍ بل هذا ضرب من الامتهان الذي كفروا فاعله.

٥) كره طوائفُ من العلماء كتابة القرآن في القطع الصغير، رواه البيهقيُّ عن عليٍّ وغيره[4].

٦) روى ابن أبي داود عن ابن المسيَّب، قال: لا يقولُ أحدكم مُصيحف ولا مُسيجد، ما كان لله تعالى فهو عظيم[5].

٧) قال السُّيوطيُّ رحمه الله: «إذا احتيج إلى تعطيل بعض أوراق المصحف لبلىً ونحوه، فلا يجوز وضعُها في شِقٍّ أو غيره لأنه قد يسقط ويوطأ، ولا يجوز

---

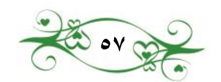
(١) البرهان في علوم القرآن: ١/٤٧٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق بتصرف.

(٤) المصدر السابق.

(٥) الإتقان في علوم القرآن: ٢/٤٥٨.



تمزيقُها لما فيه من تقطيع الحروف وتفرقة الكلم، وفي ذلك إزراء بالمكتوب، قال ذلك الحليميُّ»[1] .. والوجه عند أهل العلم أن يُدفن بمحل طاهر.

٨) قال ابن تيمية رحمه الله: «وأما حياصَة الفضة، ففيها نزاع بين العلماء وقد أباحها الشافعيُّ وأحمد في إحدى الروايتين، وأما كتابة القرآن عليها فيُشبه كتابة القرآن على الدِّرهم والدِّينار، ولكن يمتاز هذا بأنها تُعاد إلى النار بعد الكتابةِ، وهذا كلُّه مكروهٌ، فإنه يُفضي إلى ابتذال القرآن وامتهانه ووقوعه في المواضع التي يُنزَّه القرآن عنها، فانَّ الحياصة والدرهم والدينار ونحو ذلك، هو في معرض الابتذال والامتهان، وان كان من العلماء من رخَّص في حمل الدراهم المكتوب عليها القرآنُ، فذلك للحاجة، ولم يرخِّص في كتابة القرآن عليها، والله أعلم»[2].

٩) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأمَّا قراءة الجنب والحائض للقرآن، فللعلماء فيه ثلاثة أقوال، قيل: يجوز وهو مذهب أبي حنيفة، والمشهور من مذهب الشافعيِّ وأحمد، وقيل: لا يجوز للجنب ويجوز للحائض، إما مطلقاً أو إذا خافت النسيان، وهو مذهب مالك، وقولٌ في مذهب أحمد وغيره»[3].

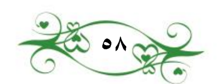
والشاهد في هذا: بيانُ أنَّ العلماء منهم من ذهب إلى حرمة قراءة القرآن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مجموع الفتاوى: ٦٧/٢٥.

(٣) مجموع الفتاوى: ٤٥٩/٢١، كذا ولعل القول الثالث سقط وهو منعهما.



حال الجنابة والحيض كليهما، ولا يخفى معلم التعظيم في هذا الاختيار منهم رحمهم الله، وليس المراد هنا بيانَ الراجح، بل المراد بيان تعظيم القرآن في شريعة الإسلام عند الفقهاء، وهذا ليس كلَّ ما ذكر أهل العلم من أحكام تُفضي إلى تبجيل القرآن الكريم، وإنما هي نُتَف للتمثيل خشية الإطالة.

٢. صور مخالفةٌ لتعظيم القرآن الكريم.

وفيه ثلاث مسائل:

أ. ما هي؟

ب. ما هي أسبابها؟

ت. ما هي طرق علاجها؟

أ. ما هي؟

أعرض هاهنا لصور مع الأسف الشديد ليست من بلاد الكفر والإلحاد، ولا أُخذت من روسيا أيام الشيوعية، أو من أسبانيا أيام محنة المسلمين ومحاكم التفتيش، ولا حتى في الحملة المعاصرة من الصليبين على الإسلام ومقدساته، ولكنها صور نراها كلَّ يوم في مجتمعاتنا الإسلامية، وهذا ما يُحدثُ في النفس حسرة:

الصورة الأولى: الدعوة به للتسوُّق.

صورة محلات بيع التسجيلات الإسلامية، تنبعث منها التلاوات

بأصوات مرتفعة يسمعها المارة من بعد، بهدف جذب الزبائن وترويج الإصدارات، وقد علّق على هذه الصورة العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك، فقال: الحمد لله، وصلى الله وسلم على من لا نبيَّ بعده، فإنَّ ما يفعله كثيرٌ من العاملين في التسجيلات الإسلامية، من بثِّ التلاوات القرآنية في محلاتهم، بصوت مرتفع، ولا أحد يستمع للقرآن، ولكن بقصد الدعاية لمحلاتهم وجذب الناس للشراء من هذه التلاوات وغيرها، لا شكَّ أنَّ هذا امتهانٌ للقرآن، يُنافي ما أمر الله به من الاستماع له إذا قُرِئَ ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(الأعراف: ٢٠٤)، وهذا العمل من أصحاب التسجيلات فيه امتهانٌ للقرآن من وجوه:

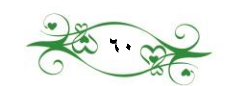
١ ـ اتخاذ القرآن وسيلةً لكسب المال، والقرآن لم ينزل لهذا، وإنما أنزله الله ليُتلى ويُستمع له ويتدبر ويعمل به.

٢ ـ تلاوته في الأسواق، وفيها اللغوُ والصَّخب وفعلُ المنكرات.

٣ ـ تلاوته والناس منشغلون عنه بحاجاتهم، فلا يستمعون إليه، ومن أراد شراء بعض التلاوات، فاهتمامه بصوت القارئ واختيار الأحسن.

٤ ـ في بثِّ القرآن بصوت مرتفع إحراج للمتسوقين وأصحاب المحلات القريبة في الجملة، فإنهم يجدون حرجاً في ترك الاستماع للقرآن؛ لانشغالهم بالبيع.

فلما تقدم نقول: إنَّ ما يقوم به أصحاب التسجيلات من جعل التلاوة وسيلةً لجذب المشترين حرامٌ؛ لما فيه من امتهان للقرآن العظيم، فاتَّقوا الله يا



أصحاب التسجيلات الإسلامية، ولا تجعلوا همَّكم زيادة الدخل، ولو ببعض الوسائل المحرمة، والقليل من الربح الحلال خيرٌ من المكاسب المحرمة والمشتبهة، فعظموا كلام الله ونزهوه وصونوه من الامتهان، أثابكم الله على ما تقومون به من نشر الخير وبارك لكم في كسبكم والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد[1].

ولعلَّ هذه الفتوى توافق ما ذهب إليه صاحبُ منتهى الإرادات، حيث قال: «ولا يجوز رفع الصوت في الأسواق بالقرآن، مع اشتغال أهلها بتجارتهم وعدم استماعهم لما فيه من الامتهان»[2].

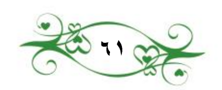
وقد نص فقهاؤنا رحمهم الله على أنه يحرم «جعل القرآن بدلاً من الكلام، مثل أن يرى رجلا جاء في وقته فيقول: (ثم جئت على قدر يا موسى)، فلا يجوز أن يستعمل القرآن في غير ما هو له، لما فيه من التهاون وعدم المبالاة بتعظيمه واحترامه.

وقال الشيخ تقي الدين: إن قرأ عندما يناسبه فحسن، كقول من دُعي لذنب تاب منه: (ما يكون لنا أن نتكلم بهذا)، وكقوله عند إصابته وعند ما أهمَّه: (إنما أشكو بثِّي وحزني إلى الله)، وكقوله لمن استعجله: (خُلق الإنسان

---

(١) نقلاً من المنتدى الإسلامي على الانترنت.

(٢) منتهى الإرادات، ١/٢٥٤.



من عجل)، فهذا وأمثاله مما هو مناسب لمقتضى الحال جائز؛ لأنه لا تنقيص فيه»[1].

الصورة الثانية: تعليق الآيات.

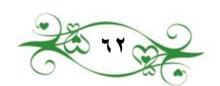
تعليق الآيات على الجدران، وتزيين الحيطان بالقرآن، وهذا صار أمراً شائعاً في بيوت المسلمين، وربما استحسنه بعضهم، وهو لا ينسجم مع تمام تعظيم القرآن، لأنه استعمال له في غير ما أنزل لأجله، ومن جملة ما يتضمنه من المحظورات ما يلي:

١ ـ تعليقها في الغالب هو للزينة وتجميل الجدران بنقوش الآيات والأذكار المزخرفة الملونة، وفي هذا انحراف بالقرآن عما أُنزل لأجله من الهداية والموعظة الحسنة والتعهد بتلاوته ونحو ذلك، والقرآن لم ينزل لتزيين الحيطان، وإنما نزل هدىً للناس وبياناً.

٢ ـ إنَّ عدداً من الناس يعلقونها للتبرك وهذا من البدع، فإن التبرك المشروع بتلاوته لا بتعليقه ووضعه على الأرفف وتحويله إلى لوحات ومجسمات.

٣ ـ إن في هذا مخالفةً لما كان عليه النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم، فإنهم لم يكونوا يفعلون ذلك، والخير في اتِّباعهم لا في الابتداع، بل

(١) مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى ١/٦٠٧.



التاريخ يشهد في بلاد الأندلس وتركيا وغيرها: أن الزخرفة وعمل هذه اللوحات والزينات ونقش الآيات في جدران البيوت والمساجد لم يكن إلا في عصور ضعف المسلمين وهوانهم.

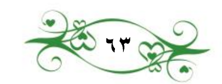
٤ ـ إنَّ في التعليق ذريعةً للشرك، فإن بعض الناس يعتقدون أن هذه اللوحات والمعلقات هي حرزٌ تحمي البيت وأهله من الشرور والآفات، وهذا اعتقاد شركيٌّ محرم، فالذي يحمي فعلاً هو الله جل وعلا، ومن أسباب حمايته تلاوة القرآن والأذكار الشرعية بخشوع ويقين.

٥ ـ ما في الكتابة عليها من اتخاذ القرآن وسيلة لترويج التجارة والزيادة في كسبها، وينبغي أن يُصان القرآن عن أن يكون مجالاً لذلك.

٦ ـ معلومٌ أنَّ بعض هذه اللوحات في شرائها إسرافٌ وتبذير، وبعض هذه اللوحات منسوجة من خيوط الذهب فتشتدُّ حرمة استعمالها وتعليقها.

٧ ـ بعض هذه اللوحات غير واضحة الكتابة، كالكتابات الملتوية المعقدة، والتي لا يُنتفع بها؛ لأنها لا تكاد تقرأ، وبعضها مكتوب على هيئة طائر أو رجلٍ ساجد، ونحو هذا من الصور ذوات الأرواح المحرمة.

٨ ـ إنَّ في ذلك تعريضَ آيات القرآن للامتهان والأذى، فمثلاً عند الانتقال من بيت إلى آخر تُوضع مع الأثاث المتراكم، على اختلاف أنواعه، كما توضع فوقها أشياء أخرى، وكذلك يحدث عند تنزيلها لطلاء الجدران أو تنظيف البيت.



٩ ـ إنَّ بعض المسلمين المقصرين يعلقونها؛ إشعاراً لأنفسهم بأنهم يقومون بأمور الدين ليخففوا من لوم ضمائرهم لهم، مع أنها لن تغني عنهم شيئاً.

وبالجملة فينبغي إغلاق باب الشر، والسير على ما كان عليه أئمَّة الهدى في القرون الأولى التي شهد لها النبي ﷺ بأنَّ أهلها أفضلُ المسلمين في عقائدهم وسائر أحكام دينهم(١).

ومثل ذلك تعليقُ المصحف خاصة ما طُبع على حجم صغير لا يصلح للقراءة في السيارات، وما لهذا أنزل القرآن، ولكن بعض الأمة غفلوا عن سبل استثماره، والقيام بحقه من التَّعظيم والاتباع.

الصورة الثالثة: كتابته على القبور.

كتابة الآيات القرآنية على القبور، وهو أمر شائع في كثير من بلاد المسلمين، فتتعرض للتدنس والأوساخ، وكذلك تغطية الميت بغطاء مكتوب عليه آيات من القرآن الكريم، ولما سئل الشيخ العثيمين رحمه الله عن ذلك أجاب قائلاً: «ليس لهذا العمل أصلٌ في الشرع (أي ليس لكتابة الآيات القرآنية على ما يُغطى به الميت فوق النعش أصلٌ في الشرع)؛ بل هو في الحقيقة امتهان لكلام الله عز وجل، بجعله غطاءً يتغطى به الميت، وهو ليس بنافع الميت بشيء، وعلى هذا فالواجب تجنبه:

أولاً: لأنه ليس من عمل السلف.

---

(١) موقع الإسلام سؤال وجواب بتصرف يسير.



وثانياً: لأنَّ فيه شيئاً من امتهان القرآن الكريم.

وثالثاً: لأنَّ فيه اعتقاداً فاسداً، وهو أن هذا ينفع الميت، وهو ليس بنافعه»[1].

الصورة الرابعة: اتخاذه نغمةً للجوال.

كاتخاذ آيات خاصة، مثل التي تتضمن دعاءً نحو: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ (آل عمران:٨)، ونحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (البقرة: ٢٠١)، وغيرها من الآيات نغماتٍ في الجوال، يتنبه به واضعُها لمكالمة واردة، ولم ينزل القرآن لمثل هذا فهو من نقص تعظيم القرآن الكريم، وأشدُّ من ذلك أنه قد ينسى حاملُ مثل هذا الجوال فيدخل به الخلاء فلا يلبث أن تنبعث الآيات منه، وهو في ذلك الموضع الذي لا يليق بكتاب الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الصورة الخامسة: امتهان ما فيه قرآن من نحو الجرائد.

كاتخاذ الجرائد والصحف سفرةً يتناول عليها الطعام، وفيها من الآيات والذكر الحكيم، ونحو ذلك، أو استعمالها في تغطية زجاج السيارات عند إعادة طلائها، ومثله التخلص من مقررات القرآن الدراسية بعد نهاية العام برميِها في المهملات، وكلُّ ذلك من أنواع الامتهان لما فيه شيء من كلام الله تعالى، ومجانبة لإنزاله منزلته من حسن الصيانة والرعاية.

---

(١) مجموع فتاوى العثيمين: ٢١٩/٣.



ولا بد من الإشادة هنا بجهات خيِّرة تسعى لمحاصرة هذا المظهر المشين في التعامل مع القرآن والأوراق التي فيها ما يجب صونه.

الصورة السادسة: تمكينُ غير المسلمين منه.

كتمكين الخادمة غير المسلمة من ترتيب المكتبة وتنظيفها وفيها كتاب الله، فتمتد يد الهندوسية، أو النصرانية أو الوثنية، إلى الكتاب العزيز الذي لا يصحُّ لمسلم مسُّه حال الجنابة، وربما عبثت به كيف شاءت، وعلى أيِّ نحو أرادت، دون رعاية لحرمة القرآن، ولا إكرام لمثواه.

الصورة السابعة: التلحين والتمطيط والتقعر في تلاوته.

التلحين الزائد والتطريب المتكلف من بعض القراء مما يُذهب هيبة القرآن، وذلك لأدائه بطريقة أقرب إلى الغناء قرآن الشيطان، ويروى عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإيَّاكم ولحونَ أهل الكتابين وأهل الفسق، فإنه سيجيء بعدي قومٌ يُرجِّعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونةً قلوبهم وقلوب من يُعجبهم شأنهم»[1]، وقال في شرح منتهى الإرادات: «وكره أحمد والأصحاب قراءة الألحان، وقال: هي بدعة، أما تحسينُ الصوت والترنم؛ فمستحبٌّ إذا لم يُفض إلى زيادة حرف ونحوه، أمَّا إن أفضى إلى زيادة حرف أو جعل الحركةِ حرفاً فهو حرام»[2].

---

(١) المعجم الأوسط (٧٢٢٣)، وضعفه الألباني في الجامع الصغير.

(٢) شرح منتهى الإرادات: ١/٢٥٤.



ومما يحول دون المرء وتعظيم ما يتلوه من كتاب الله: حرصه على التقعر في أدائه، حتى أفضى الحال بكثيرين وكثيرات إلى نوع من الوسوسة المشغلة عن تدبر الآيات، وهم يحسبون ذلك هو التحقيق!

الصورة الثامنة: إغفاله من الوعظ والتذكير.

والاستغناء عن القرآن بغيره، خاصة في الخطب والدروس، وإنَّ المرء ليحزن عندما يسمع خطبة يسرد فيها الخطيب القصص المتتابعة، ثم لا يكون نصيب القرآن من خطبته إلا قليلاً، وقد كان النبي ﷺ يجعل القرآن مدار حديثه، عن أم هشامٍ بنت حارثة بن النعمان، قالت: «لقد كان تنورُنا وتنور رسول الله ﷺ واحداً سنتين أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ إلا عن لسان رسول الله ﷺ يقرؤها كلَّ يوم جمعةٍ على المنبر إذا خطب الناس»[1].

فالنبي ﷺ تلقى الصحابيات منه – فضلاً عن الصحابة – سوراً وحفظوها من خطبة الجمعة، لاهتمامه بالقرآن وتعظيمه للقرآن وكثرة إيراده.

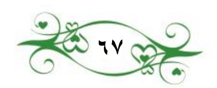
الصورة التاسعة: اقتحام حماه من قبل أهل الفن.

أهل الفن لهم تفنن في الاستهانة بالقرآن، حتى قام بعضهم بعزف بعض السور كمقطوعات موسيقية[2] والعياذ بالله، فبدل أن يعظم القرآن، ويتخذ فيما له اتخذ في ضد ما أنزله له، فإذا كان هذا سلوك بعض من ينتسب إلى الإسلام فلا عجب أن يسيء إليه من يتبرأ منه، وصدق من قال:

---

(١) صحيح مسلم (٨٧٣).

(٢) أحدهم يدعى مرسيل عزف سورة يوسف عليه السلام.



إذا أنت لم تعرف لنفسك قدرها ... هواناً بها كانت على الناس أهونا

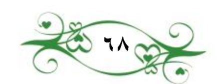
فإذا لم يعرف قطاع عريض من المسلمين قدر القرآن، فلا غرو أن يقع المؤلم والمحزن من عدوهم، ولا شك أن وقوعه من الكفار أهون من وقوعه من المسلمين كما قيل:

وظلم ذوي القربى أشدُّ مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند

الصورة العاشرة: تحريف معانيه من قبل المنافقين.

وهذه ليست آخر الصور ولكن من أنكاها، وهي تصدُّر الأقلام الجاهلة بالدين، التي أوتيت قدرة على تزييف الحقائق وتزيين الباطل وأولعت بحرب القرآن وصرف دلالاته وإفراغه من معانيه لتبقى مبانيه جسوماً بلا أرواح وكلمات بلا مضامين، إذا رأوا فيه ما خالوه يسند فكرهم ويوافق أهواءهم هُرعوا إليه، وألقوا العصا لديه، قال تعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ (النور: ٤٩)، وإن خالف أهواءهم راموا تعطيله وتأخيره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ (النساء: ٦١)، فهذا من القرآن موقفهم يقبلون بعضه ويردون أكثره كما قال أسلافهم: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ (النساء: ١٥٠)، وهؤلاء من جملة من يندرجون في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (الحجر، الآيات: ٩١ ـ٩٣)، قال القرطبي رحمه الله: «عَضَوه، أي آمنوا بما أحبُّوا منه وكفروا بالباقي؛ فأحبط كفرهم إيمانهم»[1].

(١) تفسير القرطبي، ١٠/٥٥



وتزييفهم لحقائق القرآن هم فيه مقلدون، فقد زيف قبلهم المرتدون، فقالوا لا زكاة إلا لمحمد رسول الله ﷺ فقد قال الله له: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١٠٣)، فلما انتقل إلى الرفيق الأعلى لم يبق للأخذ وجه، وقالوا لن نعطي زكاتنا إلا لمن صلاته سكن لنا وكان مما ينشدون:

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا … فواعجباً ما بال ملك أبي بكر[(١)]

فانبرى لهم الصديق رضي الله عنه وأرضاه، فردهم وعن الغي صدَّهم، وقال قولته العظيمة: «والله لو منعوني عناقاً وفي رواية عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعها، إن الزكاة حق المال، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة»[(٢)].

ولما وقع بعض هؤلاء المجترئين على القرآن في متشابهه فضربوا بعضه ببعض كان عمر رضي الله عنه لهم بالمرصاد فقد أخرج الدارمي في مسنده عن سليمان بن يسار أن رجلا يقال له صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن فأرسل إليه عمر وقد أعد له عراجين النخل فقال من أنت قال أنا عبد الله بن صبيغ فأخذ عمر عرجونا من تلك العراجين فضربه حتى دمي رأسه، وفي رواية عنده فضربه بالجريد حتى ترك ظهره دبرة، ثم تركه حتى برأ ثم عاد له، ثم تركه حتى برأ فدعا به ليعود، فقال: إن كنت تريد قتلى فاقتلني قتلاً

---

(١) البداية والنهاية، ٦/٣١١.

(٢) المصدر السابق.



جميلاً ، فأذن له إلى أرضه وكتب إلى أبي موسى الأشعري : ألا يجالسه أحد من المسلمين »[1].

فالقرآن ليس كلأً مباحاً يرتاده مفسراً من لا يحسن قراءته ، ولا حمىً مستباحاً ينازع علماءه من لا يجيد تلاوته ، ولكنهم كرهوا ما أنزل الله ، وأرادوا أن يحملوا المسلمين على خلاف ما استقر في قلوبهم تعظيمه ، وتمكنت من نفوسهم قداسته ، فلا سبيل لهم غير طمس معالمه وتفريغ مفاهيمه ومضامينه ، ليكون قولا لا معنى له ، ونصوصا لا واقع لها ، فكرههم للعلماء نابع عن كرههم للكتاب ، قال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ (محمد : ٩).

فمعركتهم الأولى مع القرآن ، ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة : ٦٤).

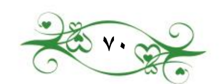
ومعركتهم الثانية مع حملته وقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ ﴾ (الحج : ٧٢) ، فتارة منهم يسخرون ، وبأقذع الأوصاف يرمون كما قال سلفهم : «ما أرى قُرَّاءَنا هؤلاء ، إلا أرغبنا بطوناً وأكذبنا ألسنةً وأجبننا عند اللقاء»[2].

فإنكارهم حقائق القرآن ، وتشكيكهم في أحكامه ، وشغبهم على حملته ، ووقوعهم في أهل العلم به ، نوع من أسوأ أنواع الامتهان لكتاب الله

---

(١) الإتقان ، ٩/٢.

(٢) تفسير الطبري ، ٤٠٨/٦.



وأحكامه بل استهزاء بالله ورسوله، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ (التوبة: ٦٥)، ولكن الله تعالى متمٌّ نوره ولو كره المشكِّكون.

وقفة ختامية:

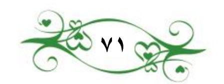
لما كانت صور الامتهان للقرآن كثيرة، ولا يزال كتاب الله تعالى يلاقي من الإنسان الظلوم الجهول ما لا يليق ولا ينبغي، أجمل الله تعالى الوعيد، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ﴾ (فصلت: ٤٠).

ففي هذه الآية لم يبين الله تعالى كيف يكون الإلحاد، بل أجمله ليشمل كافة صور الإلحاد سواء امتهان وسوء معاملة، أو استخفاف واستهانة، أو غير ذلك، كما لم يبين الله تعالى عقوبة من يلحد في آياته، للتهويل والتعظيم، واكتفى بما يفتت الأكباد خوفاً وهو افتضاح الملحدين عنده وعدمُ خفائهم عليه.

فعلى المسلم الغيور على دينه ألا يتقطع حزنا فالله تعالى أغير على كتابه، وهو سبحانه آخذ من تعدى عليه، ومجازيه بما يستحق وهو الحكم العدل.

ب. ما هي أسبابها؟

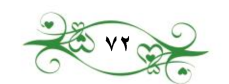
من أسباب الوقوع في هذه الصور، الّتي تُعتبر سلوكاً غير لائقٍ بما يجب للقرآن من التعظيم والتوقير، ما يلي:



١ – التقصير في الدعوة إلى تعظيم القرآن والعناية بالمصحف الشريف في كثير من دور التعليم بل وحلق التحفيظ، وهذا أمر لا يحتاج اكتشافه لأكثر من إلقاء نظرة على مصاحف بعض الدارسين، وإجالة النظر في كثير من الرفوف التي توضع عليها المصاحف في الحلق ودور التحفيظ والمساجد، فضلاً عن دور التعليم الأخرى.

٢ ـ عدم التَّربية على تعظيم القرآن في البيوت، وعدم بثِّ الهيبة الواجبة للقرآن في نفوس النَّاشئة، والإيحاء الخاطئ بأن ثمن المصحف يُساوي المبلغ الذي يُشترى به، وعدم زجر العابث والمسيء معاملته للقرآن من قبل الآباء والمربين، وتمكين حتى الأطفال الذين لا يجيدون القراءة من حمل المصحف، بخلاف الأوراق المهمة في البيت مثلاً، فإن صاحبها يحرص على وضعها في محل لا تصل إليه أيدي من قد يتلفها إلاّ بإذن، ولا يتناولها إلا تحت إشراف، فإن أساء في استعمالها أو حملها، أُدِّبَ الأدب اللائق به كالوثائق الشخصية والصكوك! أما كتاب الله تعالى فشأنه آخر!

٣ ـ عدم الجمع بين التحفيظ والتدبر والتخشع عند تدريس القرآن، مما يجعل الطالب ينظر إلى القرآن كما ينظر إلى سواه من مواد الدراسة التي عليه أن يحرز فيها درجات تؤهله للترقي في السلم التعليمي. بل ربما كانت ثمة حفاوة في مدارسنا بالمواد التجريبية، وفي مقابل ذلك إزراء بالمواد الدينية، فحصة الدين مثلاً تجيء في آخر الحصص! ولا يلتفت إلى ضعف الطلاب الظاهر فيها! بخلاف ضعفهم في المواد الأخرى، حتى إنك لتجد الطالب قد بلغ المرحلة



الجامعية وهو لا يحسن قراءة القرآن الكريم، إن قرأ وجهاً لحن حتى في الحركات، دعك من الأخطاء التجويدية أو الأخطاء التي تنشأ بسبب اللهجات، ومع ذلك لا يخطر بباله أبداً حاجته الماسة إلى دروس تقوية! في قراءة القرآن الكريم! مع أن كثيراً من المثقفين والمتعلمين إن لم يكن أكثرهم هم كذلك يحتاجون إلى دروس عصر ودورات تقوية مكثفة في قراءة القرآن الكريم وتجويده، فكيف بتدبره وتفسيره؟!

٤ ـ عدم الاهتمام بمحفظ القرآن، وتصويره على أنه أقلُّ شأناً وأهمية من معلمي المواد الأخرى، وجعل رواتب المحفظين في الحلق من أقل الرواتب مما يعطي إشارة سالبة حول قيمة ما يحمله هؤلاء المحفظون، وهذه مشكلة شائعة قد يكون لها ما يفسرها في بعض الأحيان، أما ما لا يمكن تفسيره تفسيراً صحيحاً سائغاً فحرب هؤلاء المحفظين، ومنعهم والتشريد بهم، وإشعارهم مع جليل خدمتهم بأنهم غير مرغوب بهم ولا مرحب بوجودهم إلاّ اضطراراً، فإذا اقترن بذلك الإساءةُ إلى سمعتهم وإشاعةُ ما لا يليق من التهم بسمعتهم كان ذلك أعظم في حربهم، والمجتمع المسلم الواعي يجب أن لا يمرر مثل هذه التجاوزات، في حق حملة القرآن ومعلميه.

٥ ـ سلوك بعض حملة القرآن، فانحراف بعض هؤلاء يعود وبالاً على غيرهم من حملة الكتاب العزيز، زيادة عن كونه القرآن يعود وبالاً

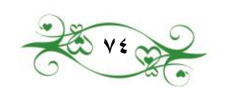


عليهم، قال القرطبي رحمه الله: «ألا وإن الحجة على من علمه فأغفله أوكد منها على من قصر عنه وجهله، ومن أوتي علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدع، وارتكب من المآثم قبيحاً، ومن الجرائم فضوحاً، كان القرآن حجةً عليه وخصماً لديه، قال رسول الله ﷺ: «القرآن حجة لك أو عليك»»[1]، ومن الانحراف الذي نشهده في طائفة من حملة كتاب الله ودارسي علومه رسوخ الفهم الخاطئ عند بعضهم بأن أصحاب التخصصات الأخرى أفضل منهم شأناً، حيث وجد من يستحي من الانتساب إلى كليات القرآن والكليات الشرعية؛ لما يرى من إعظام الناس لدارسي العلوم التطبيقية، وهذا قليل بحمد الله في بلادنا لكنه كثير في بلاد العالم الإسلامي، التي فعل فيها الاحتلال الذي يسمونه الاستعمار فعله، فقد بدأ الترسيخ لهذا الانحراف إبان تلك الحقب، فقد عمد المحتل الكافر إلى تأخير حملة الشريعة وأصحاب اللسان، وتقديم دارسي قانون الإفرنج وتعظيم شأنهم، ثم أكمل المسيرة العلمانيون المتحكمون في البلاد بعد خروج المحتل الذي مكن لهم، ثم استشرى الداء في الأمة، وتأثر بذلك كثير من مهازيل النفوس وخفافيش البصائر، وقد شرعت بعض وسائل الإعلام عندنا تُروِّج لمثل هذا في بلادنا.

٦ ـ الغزو الفكري الذي استهدف الأمة في أعزِّ حصونها وهو كتاب ربها، فقد حرص الأعداء على أن يصرفوا الأمة عن مقدساتها بتمزيقها في

---

(١) تفسير القرطبي: ١/٢٧.



قلوبهم كما صرح بعضهم وكان القرآن أول ما صوبوا إليه سهامهم مباشرة أو عبر عملائهم، حاولوا تبديل الشريعة وتقديم العقل السقيم على النقل المستقيم، وأكثروا من الوقيعة في العلماء، كما هاجموا المؤسسات التي تعنى بالحسبة وإنزال أحكام القرآن في الحياة، وسخروا منها، وسعوا في الالتفاف عليها بالتظاهر بالمعاصرة في فهمها، وسعوا في تمكين من لا يتبنَّونها من حكام المسلمين لضمان تغييب القرآن من حياة المسلمين.

٧ ـ ضعف المسلمين، وتفرق شملهم، وعدم تمسكهم بدينهم، جعل غيرهم يتجرؤون عليهم، ويجاهرون بإهانة القرآن لأمنهم من ردة الفعل، وعدم اكتراثهم بالأمة التي صارت غثاء كغثاء السيل.

٨ ـ الجهل بكيفية التعامل مع القرآن، فكثير من الناس يقع في امتهان القرآن لجهله بأن اتخاذ القرآن لوحات زينة أو نغمات جوال أو حمل الأغراض في أوراق مكتوب عليها آيات قرآنية أو نحوها من سوء التعامل مع القرآن.

ت. ما هي طرق علاجها؟

١ ـ تربية الناشئة على الاهتمام بالمصحف الشريف، وعدم السماح لغير القارئين من الأطفال بحمله إلاّ تحت إشراف لأغراض تقتضي ذلك، وزجر من يعبث بمقررات التربية الإسلامية، ويمكن اكتشاف ذلك بتفقد كتب المقررات الدراسية الشرعية وكراساتها.

٢ ـ العناية بالتفسير والتدبر، وإقامة المسابقات على فهم الآيات واستخراج الفوائد منها وعدم الاكتفاء بمسابقات الحفظ فقط.



٣ ـ العناية بالأوراق التي فيها آيات أو أحاديث، وذلك بجمعها ومن ثم صيانتها أو التخلص منها بصورة شرعية، ويجب أن تكون هنالك جهات تقوم بهذه المهمة.

٤ ـ كشف المتورطين في تزييف حقائق القرآن من الكتاب والصحفيين الذين جعلوا القرآن عضين، وصد هجماتهم على أهل العلم، وبيان معاني القرآن كما فهمها السلف الصالح رضي الله عنهم، وحث السلطان على ضرب أيدي المفسدين وردعهم صيانة للدين وحفظاً للشريعة وتلك أهم مهماته.

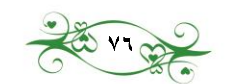
٥ ـ الاهتمام بحلقات التحفيظ، والعناية بمعلمي القرآن الكريم وإشعارهم بدورهم المهم، والحرص على تكريم الحفظة ورعايتهم.

٦ ـ تنبيه القراء الذين يلاحظ منهم تطريب زائد يخرج القارئ من حيز الخشوع والتأمل والتدبر في كتاب الله تعالى إلى الطرب باللحن والأداء.

٧ ـ تأمل كتاب الله وتدبره والتفكر في آياته، فإن فعل المسلم ذلك فجدير به أن يستشعر عظمة ما يقرأ.

٨ ـ الرجوع إلى كتاب الله في سائر نواحي الحياة، وجعله فيصلاً في الحكم، وإماماً يُتَّبع.

٩ ـ أن يبصر المرء ويبصر الناس بحقائق الأشياء ومعايير تقييمها الشرعية، فشتان بين من يقرأ كتاب ملك الملوك الحكيم العليم، الذي فيه صلاح الدنيا والآخرة، وبين من يدرس نظريات وفرضيات، إن نفعت فإنما تنفع الناس في دنياهم التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة!



١٠ – تنبيه السذج والمغفلين الذين عظموا العلوم الدنيوية فوق تعظيمهم لعلم الكتاب العزيز وتبصيرهم بحقيقة الأمور، وبيان أنصبتها التي ينبغي أن توضع فيها.

ثالثاً: من تعظيم القرآن الكريم: عدمُ هجره.

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورًا﴾ (الفرقان: ٣٠).

يقول أبو جعفر الطبريُّ:

«يقول تعالى ذكره: وقال الرَّسولُ يوم يعضُّ الظالم على يديه: يا ربِّ إنَّ قومي – الَّذين بعثتني إليهم لأدعوهم إلى توحيدك – اتخذوا هذا القرآن مهجوراً.

واختلف أهل التأويل في معنى اتخاذهم القرآن مهجوراً، فقال بعضهم: كان اتخاذهم ذلك هُجراً، قولهم فيه السيئ من القول، وزعمهم أنه سحر، وأنه شعر! ... وقال آخرون: بل معنى ذلك: الخبرُ عن المشركين أنهم هجروا القرآن وأعرضوا عنه ولم يسمعوا له، ...»[1].

وأصل الآية يُشير إلى أنَّ هجر القرآن هو صنيعُ المشركين والكفار، بيد أنّ معناه يمتدُّ ليشمل ضروباً من الهجر، ممّا يقع فيه المسلمون أنفسهم، يقول

(١) تفسير الطبري: ١٩/ ٢٦٤.

ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيِّه محمد – صلواتُ الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدِّين، أنَّه قال: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾، وذلك أنَّ المشركين كانوا لا يُصغُون للقرآن ولا يسمعونه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت: ٢٦) وكانوا إذا تُلي عليهم القرآن أكثروا اللَّغَط والكلام في غيره، حتى لا يسمعوه، فهذا من هجرانه، وتركُ علمه وحفظه أيضاً من هجرانه، وتركُ الإيمان به وتصديقه من هجرانه، وتركُ تدبره وتفهُّمه من هجرانه، وتركُ العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدولُ عنه إلى غيره – من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره – من هجرانه»[(١)].

ويسرد ابن القيّم أنواع هجر القرآن ودرجاته، فيقول:

«أَحدها: هجرُ تِلاوَته[(٢)] وَالْإِيمَان بِهِ والإصغاء إِلَيْهِ.

وَالثَّانِي: هجرُ الْعَمَل بِهِ وَالْوُقُوف عِنْد حَلَاله وَحَرَامه، وَإِن قَرَأَهُ وآمن بِهِ.

وَالثَّالِث: هجر تحكيمه والتحاكم إِلَيْهِ فِي أصُول الدّين وفروعه، واعتقاد أَنه لَا يُفِيد الْيَقِين وَأَن أدلته لفظيةٌ لَا تحصّل الْعلم.

وَالرَّابِع: هجر تدبّره وتفهّمه وَمَعْرِفَة مَا أَرَادَ الْمُتَكَلّم بِهِ مِنْهُ.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٦/ ١٠٨.

(٢) في الأصل: سماعه، وهو تكرار لقوله: والإصغاء إليه.



وَالْخَامِس: هجر الِاسْتِشْفَاء والتداوي بِهِ فِي جَمِيع أمراض القلب وأدوائه فيطلب شِفَاء دائه من غَيره ويهجر التَّدَاوِي بِهِ»[1].

ويؤكد ابن القيم أنّ كلَّ هذا «دَاخلٌ فِي قَوْله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ۝٣٠﴾، وَإِن كَانَ بعضُ الهجر أَهْونَ من بعض»[2].

إذن، فالمسلم الّذي لا يتعاهد القرآن بالتِّلاوة، يشملُه معنى الهجر، وللأسف فإنّ كثيراً من المسلمين اليومَ قد هجروا القرآن، وما عادوا يولونه ما يستحقُّه من العناية والاهتمام والتوقير والتَّعظيم!

ونجد أنّ بعضهم لا يتلون القرآن إلا في رمضان، ثمّ تنقطع صلتُهم به أحد عشر شهراً، وقد ورد عن إسحاق بن راهويه وغيره أنّه: «يُكره للرجل أن يمرَّ عليه أربعون يومًا لا يقرأُ فيها القرآن»[3].

وكذلك من أنواع هجر القرآن: المسلم الّذي يتلوه ولكن لا يعمل به، وكذلك من أنواعه عدم التّحاكم إليه، والتّحاكم إلى غيره من الفلسفات والأنظمة الباطلة، وهناك دولٌ فيها إذاعات للقرآن الكريم، تتلوه آناء الليل وأطراف النهار، لكنها تُحَكِّم في حياتها وفي أنظمتها غير القرآن، فهذا من أعظم الهجر، وهو غيرُ هجر العمل وغيرُ القراءة.

فعلى كلِّ مسلمٍ أن يبرئَ ذمَّته من الوقوع تحتَ طائلة هذا الهجر، وذلك

---

(١) الفوائد: ص٨٢.

(٢) الفوائد: ص٨٢.

(٣) فضائل القرآن لابن كثير: ٢٢٢.



بأن يعملَ على تحكيم القرآن في حياته الخاصّة، وفي حياة أسرته الصّغيرة، ممّا يستطيعه، وله سلطان مباشر عليه، ثمّ يدعم جهود العاملين من أجل تحكيم القرآن على مستوى المجتمع والدولة.

وإنَّ من هجر القرآن هجرَ تدبره، وقد نعى الله على من يقع في ذلك فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (محمد: ٢٤)، وكما يقول العلامة ابن كثير رحمه الله: «وترك تدبره وتفهُّمه من هجرانه»[١].

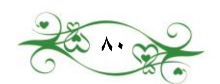
ومن أنواع هجر القرآن تركُ الاستشفاء به، فالذي لا يستشفي بالقرآن يكون من الهاجرين له، وليس المقصود الاستشفاء بآيات الرقية فحسب، بل القرآن كلّه شفاء لما في الصدور ورحمة، يقول الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء: ٨٢)، و (مِن) هنا بيانية، أي كلُّ آيةٍ فيها شفاء ورحمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾، فبيَّن أن من هجر القرآن فهو من أعداء الرسول»[٢].



(١) تفسير ابن كثير: ٦/١٠٨.

(٢) مجموع الفتاوى: ٤/١٠٦.



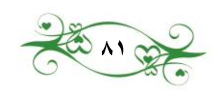
الفصل الثَّاني:
وجوب تلاوة القرآن الكريم وتدبُّره

مقدِّمة:

وبعد أن تقرّرت في نفوسنا عظمة القرآن الكريم، وأدركنا يقيناً أنّه هو سببُ الفلاح وطريقُ النّجاح في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فهل يكفينا مجرّدُ هذا التّعظيم والتَّوقير، لنحقِّقَ ما هو واجبٌ علينا نحو القرآن الكريم؟

والجواب: لا، فقد رأينا أنّ كلَّ إنسان، إذا ما تلقّى كتاباً أو رسالةً من إنسانٍ يُحبّه، فإنّه يُعظم هذا الكتاب ويُجلُّه ويُعلي مقامه، فكذلك ولله المثلُ الأعلى، ومن باب قياس الأولى: هذا ما ينبغي أن يجيشَ بصدورنا نحو القرآن الكريم، الّذي أتانا من لدن ربِّ العالمين، اللهِ الَّذي لا أحدَ أشدُّ حبّاً لنا من حبه!

فالواجب على المحبِّ إذا ما واتتهُ رسالةٌ ممّن يُحبُّه، أن يقرأها ويتدبّرها، ليُحيط علماً بما تتضمّنه من المعاني والدّلالات، وبناءً على ذلك فإنّ تعظيمنا للقرآن الكريم، الّذي هو من تعظيمنا لله سبحانه وتعالى، ينبني عليه مباشرةً أن نُفرغَ كلّ وُسعِنا، ونبذلَ كلّ جهدنا من أجل تلاوة هذا القرآن وتدبُّرِ آياته، لنعرفَ



مرادَ الله عزّ وجلّ من وراء إنزال هذا القرآن الكريم، إلينا وإلى سائر عباده المؤمنين.

وسنتكلم في هذا الفصل بإذن الله تعالى عن المسائل الآتية:

أولاً: في معنى التِّلاوة وما يتعلّق بها من الألفاظ.

ثانياً: في معنى التّدبّر وما يتعلّق به من الألفاظ والمعاني.

ثالثاً: أسباب التّدبّر وموانعُه.

أولاً: في معنى التِّلاوة وما يتعلّق بها من الألفاظ.

ويتضمّن العناصر التالية:

١: معنى التِّلاوة ومعنى القراءة والعلاقة بينهما.

٢: العلاقة بين التلاوة والسَّماع.

٣: العلاقةُ بينَ التِّلاوةِ والحفظ.

٤: العلاقة بين التّلاوة وبين التّدبّر.

١: معنى التِّلاوة ومعنى القراءة والعلاقة بينهما.

معنى التلاوة:

يقول ابن فارس: «التَّاء واللام والواو أصلٌ واحدٌ، وهو الاتِّباع، يقال: تَلَوْتُه وتليتُه تُلُوًّا، إذا تَبِعْتُه، وتَتالَتِ الأُمُورُ: تَلا بَعْضٌ بَعْضاً، ومنه تلاوةُ القُرآن وكلِّ كلامٍ، أي: قراءتُه وإتباعُ بعضه بعضاً»[1].

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ١/٣٢١، وانظر: القاموس المحيط: ص ١٦٣٤.

كما قيل في ذلك: «تلوتُ القرآنَ فأنا أتلوه تِلاوة، وتلوتُ الرجل فأنا أتلوه تُلُوًّا، إذا اتبعته، ويُروَى إذا تبعته، ويُقال: ما زلتُ أتلوه حتى أتليتُه، أي حتى تقدَّمته وصار خلفي»[1]. وبناءً على هذا المعنى، يكون معنى التلاوة أنّها: تحويلُ النّصّ المكتوب في السّطور أو المحفوظ في الصّدور، إلى كلمات مقروءة منطوقة مسموعة، على أساس أنّ النّص المحفوظ في الصدور أو المكتوب في السّطور، هو الأصل ثم تبعه الثّاني.

والتّلاوة بهذا المعنى تتمّ عن طريق القراءة، فما هي القراءة؟

معنى القراءة:

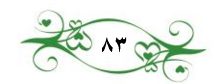
يقول ابن فارس: «القاف والراء والحرف المعتل أصلٌ صحيحٌ، يدلُّ على جمعٍ واجتماعٍ، من ذلك القَرْية، سمِّيت قريةً لاجتماع النَّاس فيها. ويقولون: قَرَيت الماء في المِقْراةِ: جمعتُه، وذلك الماءُ المجموع قَرِيٌّ، (...) القاف والراء والحرف المعتل أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على جمعٍ واجتماعٍ. من ذلك القَرْية، سمِّيت قريةً لاجتماع النَّاس فيها. ويقولون: قَرَيت الماء في المِقْراةِ: جمعتُه، (...) وإذا هُمِز هذا البابُ كان هو والأوّلُ سواءً. (...) قالوا: ومنه القُرآن، كأنَّه سمِّي بذلك لجَمعِه ما فيهِ من الأحكام والقِصَص وغيرِ ذلك»[2].

فالتّلاوة هي القراءةُ، بأن تُجمع الحروف بعضها إلى بعضٍ، ثمّ تُنطق،

---

(١) ترتيب إصلاح المنطق: ص ٩٤.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ٥/ ٦٥.



وتكون متعلّقةً بالقرآن الكريم أو بأيِّ كتابٍ آخر، كما قالوا: «وتَلَوْتُ القُرُآنَ تِلاوَةً: قَرَأْتُه، وعَمَّ به بعضُهم كُلَّ كَلامٍ»[1].

العلاقة بين التلاوة والقراءة:

العلاقة بين التلاوة والقراءة، كما نلحظ علاقة وثيقة، يُبيِّنها الراغب الأصفهانيّ على النحو التالي، قائلاً:

«والتلاوة تختصُّ باتِّباع كتب الله المنزلة، تارةً بالقراءة، وتارةً بالارتسام لما فيها من أمرٍ ونهيٍ، وترغيبٍ وترهيب، أو ما يُتوهَّم فيه ذلك، وهو أخصُّ من القراءة فكل تلاوة قراءة، وليس كل قراءة تلاوة»[2].

٢: العلاقة بين التلاوة والسَّماع.

يذكر الشيخ محمد عبد الله دراز، أنّ القرآن الكريم، قد سُمّي بهذا الاسم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء:٩] .. ويسمى — أيضًا — الكتاب، ومنه قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقر: ١، ٢)، وقال الشيخ دراز في سر التسمية بالاسمين جميعًا أنّه: «رُوعي في تسميته قرآنًا كونه متلوًّا بالألسن، كما رُوعي في تسميته كتابًا كونه مدونًا بالأقلام، فكلتا التَّسميتين من تسميةِ الشَّيء بالمعنى الواقع عليه»[3].

---

(١) المحكم والمحيط الأعظم: ٩/ ٥٣٧.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: ١/ ١٤٧.

(٣) النبأ العظيم: ص٤١.



والتّعبُّد بالقرآن في حال كونه كتاباً، إنّما يكون بالتّلاوة له، أمّا التّعبدُ به في حال كونه قرآناً متلوًّا، فإنما يكون بالاستماع والإنصات، وذلك ما غفل عنه الكثيرون، ونبّهنا إلى أهميّته أولئك النفر من مؤمني الجنِّ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ (الجن: ١)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ (الأحقاف: ٢٩).

بل إنّ المشركين، مع ما هم فيه من الشّرك قد أدركوا هذه الحقيقة، بسبب ما لحظوه من تأثُّرهم النّفسيّ العميق بسماعهم للقرآن، فحذّر بعضُهم بعضاً: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت: ٢٦) فسَماع القرآن من أعظم مصادر الهداية، خاصّةً إذا كان القارئ جامعاً بين الورع والتقوى وجودة التّلاوة وجمال الصّوت.

إذن، فمنهج التّربية القرآنية من خلال السَّماع، هو منهج قرآنيٌّ نبويٌّ، يقول النَّبيُّ ﷺ لعبد الله بن مسعود: «(اقْرَأْ عَلَيَّ) قَالَ: قُلْتُ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قَالَ: (إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي) قَالَ: فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ قَالَ لِي: (كُفَّ أَوْ أَمْسِكْ) فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَذْرِفَانِ»[1]، وفي رواية مسلم قال ابن مسعود: «رفعتُ رأسي، أو غمزني رجلٌ إلى جنبي فرفعتُ رأسي، فرأيتُ دموعه تسيلُ»[2].

---

(١) متفق عليه: البخاري (٥٠٥٥) ومسلم (٨٠٠).

(٢) صحيح مسلم (٨٠٠).



فجديرٌ بالمربّين والأئمة والآباء والأمهات أن ينتبهوا إلى هذا المنهج التّربويّ القائم على السماع والإنصات إلى آيات القرآن الكريم، حتّى يتدرّبوا على تذوُّق جمال مبانيه، وحسن إدراك معانيه، وبالتالي يجعلونه هو غناءهم وسلواهم ومتعتهم، يقول النبي ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا: مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآن»(١)، و«التَّغني بالقرآن: الاستغناء به، وقيل: كانت هِجِّيرى العرب التَّغنِّي بالرُّكْبَانىّ، وهو نشَيِدٌ بالمدِّ والتَّمطِيط، إذا ركبوا الإبل، وإذا انْبَطَحُوا على الأرض، وإذا قَعَدُوا في أفْنِيَتِهِم، وفي عامّة أحوالهم، فأحبّ الرسولُ أن تكونَ قراءةُ القرآن هِجيِّراهَم، فقال ذلك؛ يعنى ليس منا من لم يضع القرآنَ موضع الرُّكْبَانِىّ في اللَّهجَ به والطَّربَ»(٢)، والمعنى الثاني أقرب، فالتغني به تحسين الصوت واللهج به، دون غلو في ذلك.

بلى، يجب على المربِّين والآباء والأمهات، أن يجتهدوا في تربية أبنائهم، والارتقاء بوجدانهم، ليحتلّ القرآن من صدور شباب الأمة في عصرها الرّاهن، المكانةَ اللائقة به، حتّى يكون سماع القرآن هو هِجِّيراهم وديدنهم، خاصّةً وأنّ بين القرآن والغناء تنازعاً وصراعاً على قلب المسلم، فإذا استقرّ أحدهما في القلب، طرد الآخر أو أضعفه لا محالة، كما يقول ابن القيّم:

حبُّ الكتابِ وحبُّ ألحانِ الغِنا   في قلبِ عبدٍ ليس يجتمعانِ

ولا شكّ أنّ جمالَ صوتِ المقرئين، ممّا يُرغِّب في سماع القرآن

---

(١) صحيح البخاري (٧٥٢٧).

(٢) الفائق في غريب الحديث و الأثر ٢/ ٣٦.

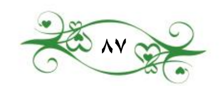


والإنصات إليه، لكن لا ينبغي أن يبلغ الأمر بالمرء إلى درجة المغالاة، حيث نلحظ بعض النّاس يبحث في الأئمّة والقراء عمّا يُعجب سمعهُ، لا عمًّا يؤثّر في قلبه، باحثاً عن إمامٍ صوته جميل، وإن كان لا يُحسن التجويد ولا يحسن الوقف والابتداء، وهذا بابٌ عظيم في علوم القرآن، وله علاقة وثيقة بفهم القرآن وتدبّره، قال النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري: «لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ!»[1]، فقال أبو موسى: «لو كنتَ أعلمتَني؛ لحبرتُ ذلك تحبيراً»[2]، بلى إنّ جمال الصوت في التلاوة أمرٌ مستحسن، بيد أنّ المعايشة والتّدبر للقرآن في ذاته هو الهدف وهو الغاية، ويكفي لتحقيقه أن يُتلى القرآن تلاوة صحيحةً، بمراعاة أحكام الوقف والابتداء، وغيرها من أحكام التجويد، أمّا أولئك الّذين لا يواطئ قلوبهم إلا تلاوة جميلة الصَّوت، فحريٌّ بهم أن يراجعوا أنفسهم، ويُلزموها على تتبُّع معاني القرآن، واستثارة الخضوع في أنفسهم إزاءها.

وههنا سؤال كثيراً ما يطرحه النّاس، ألا وهو: أيُّهما أفضلُ من حيثُ الأجر والثّواب، تلاوة القرآن، أم الاستماعُ إليه؟ يُجيب عن هذا السؤال فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله قائلاً: «الأفضلُ أن يعملَ بما هو أصلح لقلبه، وأكثر تأثيراً فيه من القراءة أو الاستماع، لأنَّ المقصودَ من القراءة هو التدبر والفهم للمعنى، والعمل بما يدلُّ عليه كتاب الله عز وجل، كما قال الله

(١) متفق عليه: مسلم (٧٩٣) والبخاري (٥٠٤٨).

(٢) السِّلسلة الصَّحيحة (٣٥٣٢).



سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (ص: ٢٩)»[١].

٣: العلاقةُ بينَ التِّلاوةِ والحفظ:

التّلاوة قد تكونُ قراءةً من المصحف، وقد تكون تلاوةً عن ظهر قلبٍ لمن يحفظ القرآن، والأولى في العادة طريق إلى الثانية، ولكلا التلاوتين فضل عظيم، وسيعرض في الحديث هنا إلى ثلاثة أمور:

أ. فضلُ تلاوة القرآن الكريم وسموّ مكانة حافظِيه.

ب. وصايا لمن يُريدون حفظَ القرآن الكريم.

ت. حقيقةُ حفظ القرآن الكريم.

أ. فضلُ تلاوة القرآن الكريم وسموّ مكانة حافظِيه.

إنَّ لتلاوة القرآن في حدّ ذاتها مقاماً عالياً رفيعاً، وذلك لعدة أسبابٍ:

أولاً: تلاوة القرآن الكريم من أفضل العبادات والقربات إلى الله تعالى، وأن كل حرف نتلوه لنا به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها كما في الأحاديث الصحيحة كحديث ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: (آلم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[٢].

ثانياً: المداومة على التلاوة، تيسّر الحفظ وترسخه، وتُعدُّ من الطرق

---

(١) فتاوى الشَّيخ ابن باز (١١/ ٣٦٤).

(٢) رواه الترمذي في سننه (٢٩١٠)، وصححه الألباني.



الرئيسية في المراجعة، وإن بعض السور والآيات التي تكثر تلاوتها والاستماع إليها لا يحتاج حفظها إلى عناء أبداً، وأمثلة على ذلك: سورة الواقعة، وسورة الملك، وأواخر سورة الفرقان، كذلك جزء عمّ، وأواخر سورة البقرة، وسورة الكهف. وهنا يتميّز القارئون، فمن كانت عادته المداومة على التلاوة يومياً وتحديد مقدار يتلوه بلا انقطاع، فإن الحفظ بالنسبة إليه سهل ميسور، وسيجد في كثير من الأحيان أن ما يريد حفظه يكاد يكون محفوظاً من قبل. وأما من كان قليل التلاوة، ولا يتخذ لنفسه مقداراً محدداً يتلوه كلَّ يوم، فإنه سيجد صعوبةً أكبر في الحفظ. ولقد أرشدنا رسول الله ﷺ إلى هذا الطريق الذي هو دأب الصالحين لكي نرسخ حفظنا للقرآن وننجو من عاقبة النسيان، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي محمد عليه الصلاة والسلام، قال: «وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره، وإذا لم يقم به نسيه»[1].

بيد أنَّ التلاوة المعتمدة على الحفظ هي المقامُ العالي الرّفيع: ويدلُّ على ذلك أمورٌ:

أولاً: أنّ الله عزّ وجلّ قد استعمل الحافظين لكتاب الله، في تحقيق وعده المُعلن في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)، ففي صدرك يا حافظ القرآن كتاب لا يغسله الماء، وقد جاء في الكتب المقدسة في صفة هذه الأمة: «أناجيلُهم في صدورهم»[2].

(١) صحيح مسلم (٢٢٧).

(٢) سلسلة الأحاديث الضَّعيفة والموضوعة (٣٧٧٠).



ثانياً: ما ورد من إباحة الحسد لمن آتاهم الله نعمة حفظ القرآن الكريم، يقول النبي ﷺ: «لا تَحَاسُدَ إلا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ هَذَا لَفَعَلْتُ كَمَا يَفْعَلُ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ فَيَقُولُ: لَوْ أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ»[1]. والحسد المباح هنا هو الغِبطة، وهي تمني مثل ما للغير من الخير دون تمني زوال النعمة عنه.

ثالثاً: ما ورد في السُّنّة المطهّرة، من عُلوِّ مرتبة الحافظين لكتاب الله تعالى، فيما روته عائشة عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ، مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ»[2]، والسفرة: الرسل؛ لأنهم يسفرون إلى الناس برسالات الله، وقيل: السفرة: الكتبة، والبررة: المطيعون، من البر وهو الطاعة، والماهر: الحاذق الكامل الحفظ الذي لا يتوقف ولا تشقُّ عليه القراءة لجودة حفظه وإتقانه، قال القاضي: يحتمل أن يكون معنى كونه مع الملائكة أنَّ له في الآخرة منازلَ يكون فيها رفيقاً للملائكة السَّفرة؛ لاتِّصافه بصفتهم من حمل كتاب الله تعالى. قال: ويحتمل أن يُراد أنه عاملٌ بعملهم وسالكٌ مسلكهم. والماهر أفضل وأكثر أجراً؛ لأنه مع السفرة وله أجور كثيرة، ولم يذكر

---

(١) صحيح البخاري (٦٩٧٤).

(٢) صحيح البخاري (٤٥٥٦).



هذه المنزلة لغيره، وكيف يلحق به من لم يعتن بكتاب الله تعالى وحفظه وإتقانه وكثرة تلاوته وروايته كاعتنائه حتى مهر فيه؟! والله أعلم.

رابعاً: ما ورد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرو عَن النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ، كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا»[١]، قوله: (يقال) أي عند دخول الجنة (لصاحب القرآن) أي: لحافظه الذي يلازمه بالتلاوة والعمل[٢]، (وارتق) أي: اصعد إلى درجات الجنة، (ورتل) أي: اقرأ بالترتيل ولا تستعجل بالقراءة (كما كنت ترتل في الدنيا) من تجويد الحروف ومعرفة الوقوف (فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها)، قال الخطابي: جاء في الأثر أنَّ عدد آيِ القرآن على قدر درج الجنة في الآخرة، فيقال للقارئ ارقَ في الدرج على قدر ما كنت تقرأ من آي القرآن، فمن استوفى قراءة جميع القرآن استولى على أقصى درج الجنة في الآخرة، ومن قرأ جزءاً منه كان رقيُّهُ في الدرج على قدر ذلك، فيكون منتهى الثواب عند منتهى القراءة.

---

(١) سنن الترمذي (٢٩١٤)، وقال الألباني: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٢) صاحب القرآن تحتمل معنيين: الملازم لتلاوته، فكأنه صاحب له لا يفارقه، والثاني: الحافظ له، فوجوده في صدره يجعله مصاحباً له في إقامته وظعنه، والمقصود الحافظ التالي، وهو الأقرب ثمة عندما يقال: اقرأ وارتق، فظاهره أن القراءة من الصدر.

وصايا لمن يُريدون حفظ القرآن الكريم:

أولاً: الاجتهاد في سلوك سبيل الطَّاعة، وتجنّب كلّ طريقٍ يؤدّي إلى المعصية.

فالإمام الشافعي المشهور بسرعة الحفظ يروى أنه شكى إلى وكيع بن الجراح أن الحفظ تباطأ عليه يوماً، فيرشده إلى علاج حاسم وهو ترك المعاصي وتفريغ القلب من كل ما يحجزه عن ربه، يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يؤتى لعاصي

وقد نسبت هذه الأبيات إلى غيره من أهل العلم، وأياً ما كان فهي وصية محل حفاوة وذكر عند أهل العلم(١).

يقول ابن المنادي رحمه الله: «إنَّ للحفظ أسباباً ... منها احتشامُ المَناقِص جملةً – أي: اجتناب المعايب – وذلك أنَّ المرء إذا زجر نفسه، وأقبل على الله بالموافقة، وعت أذنُه، وصفا من الرّين ذهنه»، والرّين: ما يغطي القلب من غشاوة المعاصي، كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ١٤). فمن جاهد نفسهُ للبعد عن المعاصي فتحَ الله عز وجل قلبه لذكره، وهداهُ لتدبُّر آيات كتابه، ويسَّر عليه حفظه ومدارسته، وفي ذلك يقول

---

(١) ينظر ديوان الشافعي جمع وتحقيق ودراسة د. مجاهد مصطفى بهجت، ص٨٣.

المولى سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

ثانياً: اغتنام الشباب وسنوات الصغر.

لأن الصَّغير أفرغُ قلباً وأقلُّ شغلاً، وقد حُكي عن الأحنف بن قيس أنه سمع رجلاً يقول: التعلم في الصغر كالنقش على الحجر. قال الأحنف: الكبير أكثر عقلاً لكنه أشغل قلباً. وينبغي لمن فاتته مرحلة الشباب أن لا يتهاون في الحفظ، فإنه إذا فرّغ قلبه عن المشاغل والهموم سيجد سهولة في حفظ القرآن الكريم لا يجدها في غيره، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ (القمر: ١٧). وهذا من خصائص القرآن، والصحابة تعلموا العلم على كبر، والقرآن أعظم ذلك العلم.

ولا ننسى أن الإنسان عندما يصل إلى مرحلة الشيخوخة يضعف بصره، وقد لا يقوى على قراءة القرآن من المصحف، وعندها سيجد ما يحفظه في صدره كنزاً يتلوه ويتهجد به، وإن لم يكن قد حفظ من القرآن شيئاً يذكر فما أعظم ندامته.

ثالثاً: اغتنام أوقات النَّشاط والفراغ.

فلا ينبغي أن نحفظ في وقت الملل والتعب، أو عندما يكون ذهننا مشغولاً في أمر ما، لأن هذا يمنع من تركيز الحفظ، بل يجب علينا اختيار وقت النشاط



وراحة البال، وحبذا لو جعلنا ذلك بعد صلاة الفجر فهو من أنفع الأوقات لمن نام مبكراً، وآخر الليل أفضل لمن قدر، واغتنام أوقات النشاط مهم جداً، فلنعرف من أنفسنا متى نستطيع أن نعمل، ومتى ينبغي أن نرتاح.

إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فعقبى كل خافقةٍ سكونُ

ولا تغفل عن الإحسان فيها ... فما تدري السكون متى يكون

ومن بدائع شعر الإمام الشافعيِّ في الحثِّ على اغتنام الأوقات في المبادرة للطاعات قوله رحمه الله :

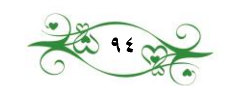
إذا هجع النُّوام أسبلت عَبرتي ... وأنشدت بيتاً وهو من ألطف الشعر

أليس من الخسران أن ليالياً ... تمرُّ بلا علمٍ وتُحسب من عمري!

وينبغي التنبيه هنا على أن الذي يعطي القرآن والعلم فضول الأوقات، وأوقات الخمول، ويدخر أوقات النشاط والقوة إلى أعمال أخرى، ويضن بها أن تبذل في القرآن، فحري بمثله أن لا يوفق لكثير علم فيه!

رابعاً: اختيار المكان المناسب عند الحفظ.

وذلك بالبعد عن أماكن الضجيج والضوضاء، لأن هذا يشغلنا ويشتت أذهاننا، فيجب علينا أن لا نحاول الحفظ ونحن في بيوتنا بين أولادنا، أو في أماكن عملنا بين زملائنا وأصوات الناس من حولنا تملأ المكان، وعلينا ذكر قول الله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ (الأحزاب: ١٤)، بل ينبغي أن نهيئ أسباب السكون واجتماع القلب على الحفظ، وأن نساعد على



توفير هذا الجو في البيت في وقت الحفظ، واعتبر هذا بحال الطالب الذي يذاكر للامتحان، وكيف يحرص كل البيت على تهيئة المكان الملائم، والقرآن أحق بذلك.

خامساً: الدافع الذاتي والعزيمة الصادقة.

الرغبة القوية الصادقة لها أكبر الأثر في تقوية الحفظ وتسهيله وتركيزه، أما الذي يريد أن يحفظ تحت إلحاح والديه أو مدرسه دون اندفاع ذاتي فإنه قد لا يستمر طويلاً، وقد يصاب بالفتور، ويزداد الدفاع الذاتي بالتشجيع المستمر، وبيان أجر ومنزلة حفظة القرآن الكريم ومجالس القرآن، وإذكاء روح التنافس في الحلقة أو البيت أو المدرسة، وبصدق العزيمة تندحر وساوس الشيطان وتخنس النفس الأمارة. قال الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «من صدق العزيمة يئس منه الشيطان، ومتى كان العبد متردِّداً طمع فيه الشيطان وسوَّفه ومنَّاه!»[1].

ولابد من التأكيد هنا على أهمية الصبر ومجاهدة النفس، وتحمل الصعاب، وعدم الاستسلام للكسل والفتور، والدعوة إلى علوِّ الهمَّة، ولهذا كان الإمام ابن الجوزيِّ رحمه الله يتحدَّث عن نفسه فيقول: «لقد كنت في حلاوة طلبي للعلم، ألقى من الشَّدائد ما هو عندي أحلى من العسل لأجل ما أطلب وأرجو»[2].

---

(١) مجموع رسائل ابن رجب: ١/ ٣٤٨.

(٢) صيد الخاطر: ص ٢٣٥.



والمسلم بحاجة إلى أن يشحذ همته بين فينة وأخرى، ويكون ذلك بالنظر في كتب فضائل القرآن، وفضائل العلم، وبسماع الكلمات النافعة التي ترفع الهمة وتدعو للإقبال على كتاب الله تعالى.

سادساً: مشاركة الحواسِّ عند الحفظ.

تختلف إمكانات الناس وقدراتهم في الحفظ، وتتفاوت قوةُ الحفظ بين شخص وآخر، ولكن الاستفادة من عدة حواس يسهل الأمر ويرسخ الحفظ في الذاكرة. فاحرص أخي على اشتراك حاسة النظر والسمع والنطق في ذلك، لأن لكل حاسة طريقاً موصلاً إلى الدماغ، فإذا كثرت الطرق قوي الحفظ وترسخ، ويكون ذلك بأن يبدأ الحفظ بتلاوة جهرية لما يُراد حفظه، وهو ينظر في الصفحة التي يتلوها، مع تدقيق النظر وتكراره حتى تنطبع صورة الصفحة في ذاكرته، ويشارك سمعه في سماع التلاوة فيرتاح لها، وبخاصة إن كان يقرأ مع التَّغنِّي المحبَّب إلى النَّفس، أما من يحفظ بالنظر إلى المصحف وهو ساكت، أو عن طريق سماع تسجيل للقرآن دون أن ينظر في المصحف أو يكتفي أثناء حفظه بالقراءة بصوت خافت، فكل هذه الطرق لا تؤدي إلى المطلوب بشكل ميسور في الغالب.

ولتعلم أنَّ الناس في هذا الأمر على قسمين:

❖ منهم من يحفظ عن طريق السَّمع أكثر مما يحفظ بالنَّظر، وهذا ذاكرته سمعية.

❖ ومنهم من يحفظ عن طريق النظر أكثر مما إذا سَمعه، وهذا ذاكرته بصرية.



فإن كنت من أولئك البصريِّين فاستعن بكثرة قراءة الآيات قبل حفظها مع إدامة النظر مدةً أطول في المصحف، ثم أغلق المصحف واكتب بخط يدك الآيات التي حفظتها، وبعد ذلك قارن بين ما كتبته وبين المصحف، لتتعرف على أخطائك ومواطن الضعف في حفظك كي تعيد تثبيتها ومراجعتها.

وإذا لاحظت أنك تخطئ كثيراً في كلمة من كلمات القرآن أو تنساها كلما وصلت إليها في المراجعة، فاربطها في ذاكرتك بكلمة تُشبهها من الكلمات المألوفة لديك، فتتذكّر هذه بتلك. قال عن علي ﵁ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «قُلِ اللهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي، وَاذْكُرْ بِالْهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادَ سَدَادَ السَّهْمِ»[1].

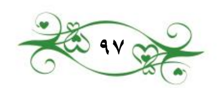
وبهذه المناسبة فإني أنصح من كان تعويله على السمع أن ينظر كذلك في المصحف، فإن للنظر فوائد لا يفي بها السماع، من جهة معرفة الرسم، والتنبيه على أنواع الوقف، وغير ذلك.

سابعاً: تحديد طبعة واحدة للمصحف.

ويفضل اختيار طبعة مصحف الحفّاظ التي تبدأ كل صفحة فيها ببداية الآية، وتنتهي بنهاية الآية، وهذا الأمر له أثر كبير في ترسيخ صورة الصفحة في الذاكرة، وإعادة تركيز هذه الصورة عند المراجعة. أما إذا تغيرت طبعات المصحف فإن هذا سيؤدي إلى انطباع صور مختلفة في الذهن، وتشتيت الحفظ وعدم التركيز.

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٢٥).



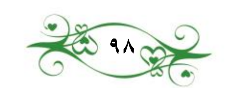
ثامناً: ضبط النطق.

يجب عليك قبل بدء الحفظ تصحيح النطق وضبط الكلمات القرآنية بالقراءة على أحد المتقنين، أو سماع المقطع الذي تريد حفظه بصوت أحد القرّاء، لكي تنأى عن الوقوع في اللحن ما أمكن، ولاسيما أثناء الحفظ فالكلمة التي تحفظها بشكل خاطئ يصعب عليك تصحيحها بعد أن رسخت في الذَّاكرة، يقول ابن المنادى رحمه الله: «ألا وإنَّ للحفظ أسباباً ... منها أن يقرأ الإنسان على من هو أحفظُ منه، لأن الذي يُقرئ أنفذ في التبصرة بخطأ المقترئ من المقترئ بـخطأ نفسه». فاحرص على تلقِّي القرآن في مجالس القرآن والمشافهة عن الحافظين والمعلّمين المتقنين، لتسلم من الخَطأ، وتبدأ حفظك على أساس متين.

وما يجدر التنبيه عليه هنا الفرق بين القارئ المتقن الذي يقرأ وفقاً لقواعد العربية وطرائق أصحاب اللسان، وبين من يتقعر في ذلك إما بالتمطيط والمبالغة في الألحان، أو الالتزام والإلزام بما لم تقم عليه حجة إلاّ تلقيه -بزعمه- عن شيخه دون سائر أهل الإسلام! وإنما نبهت على هذا لتنطع بعضهم وبعضهن في ذلك، والتنطع في القراءة من بدع القراء، وهو أعسر للحفظ، جالب للسآمة، فانأ عنه وعن أهله ما استطعت!

تاسعاً: الحفظ المترابط.

كلَّما حفظت آية وتمكَّنت منها أعد قراءتها مع الآية التي قبلها، ثم انتقل إلى آيات أخرى، تربط بعضها ببعض حتى تكمل الصفحة، وعندها ينبغي إعادة قراءتها وربط جميع آياتها قبل الانتقال إلى صفة أخرى، وكذلك عندما



تكمل حفظ سورة ما، لا تبدأ بغيرها حتى تعيد تكرارها، لتضمن ترابط آياتها في ذاكرتك.

وعدم إتباع هذه الطريقة سيجعل حفظك غير مترابط، وستجد نفسك بحاجة إلى من يُذكِّرك ببداية كلِّ آيةٍ عند تسميع الحفظ، كما يجعلُك تعاني صعوبةً كبيرة أثناء المراجعة.

عاشراً: فهمُ المعاني.

ومَّما يُساعد على ترابط الآيات وتسهيل الحفظ: أن ترجعَ إلى بعض التفاسير المختصرة بين الحين والآخر، لتفهم معاني تلك الآيات ولو على وجه الإجمال، أو على الأقل استعن بكتاب (كلمات القرآن تفسير وبيان) للشيخ حسنين محمد مخلوف، فإنَّ معرفة معاني الكلمات يُساعد على توضيح المعنى الإجمالي للآيات، وهذا يساعد على استحضار السياق، ومعرفة اللاحق للأول.

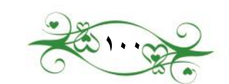
ومن المربين من لا يميل إلى هذه الطريقة، ويرى أن الحفظ دون الرجوع إلى التفاسير أثبت، وإن كان الآخر أسهل، فحفظ الشيء كما هو وإن لم يعرف وجهه، أدعا لأدائه كما هو، دون تصرف بذكر معنى، ولهذا يكون من تلاد كثير من أهل العلم المحفوظ الأول في الصغر.

حادي عشر: الحفظ المتقن.

بعض الإخوة أو الأخوات يقرأ المقطع مرتين أو ثلاثاً، فيظن أنه قد حفظه، وينتقل إلى مقطع آخر حرصاً على السرعة، بسبب ضيق وقته أو تنافسه مع زميله، أو إلحاح مدرِّسه، وهذا لا يثمر فالقليل الدائم خير من الكثير المنقطع، والحفظ السريع يؤدي إلى النسيان السريع. وسبب هذه الظاهرة أحياناً الرضا عن النفس والغرور، فيكتفي الطالب بقراءة المقطع مرات قليلة، فإذا لاحظ أنه قد علق في ذاكرته انتقل إلى غيره، ظناً منه أن هذا المستوى يكفي، والمطلوب أن لا يتوقف الطالب عن الحفظ والتكرار بمجرد شعوره أنه حفظ هذه الآيات، بل عليه أن تُتقن الحفظ بزيادة تكرار تلك الآيات مرة بعد أخرى، لأنَّ كلَّ تكرارٍ جديد يُرسِّخ الحفظ أكثر، ويُخفِّف الجهدَ أثناء المراجعة، وقد ذكر أحد المتقنين للحفظ أنه أثناء حفظه كان يكرر المقطع ستين مرة، وأحياناً ثمانين، فأصبح بعد ذلك لا يحتاج إلى المصحف.

ثانيَ عشر: الحفظ الفرديُّ قليل الجدوى.

لأنَّ عادة الإنسان التسويف، فكلما خطر له أن يُبادر للحفظ جاءته المشاغل، ودعته نفسه إلى التأجيل، وسرعان ما تفتر عزيمته، أما الحفظ بمشاركة أخٍ أو إخوة يتواصَون على ذلك، ويضعون خطّة يتّفقون عليها، ويُقوّي بعضهم عزيمة بعضٍ، ويحصل التنافس الشريف بينهم والعتاب على التقصير، فهذا هو الطريق الموصل للهدف بإذن الله.



وكم من أخٍ حفظ عدة أجزاء في دور التحفيظ، ثم شُغل عن الحضور إلى هذه الحلقات، وظنَّ أنه من الممكن أن يُكمل المسير بنفسه، وإذا به تضعف همته، ثم يتوقف عن الحفظ، والأدهى من ذلك أن أمثال هؤلاء يشغلون أحياناً بأمورهم وأعمالهم، فيتركون مراجعة الحفظ السابق، وتمضي الأيام وإذا بهم قد نسوا كل ما حفظوه، وضيعوا كلَّ ما جنَوه.

ثمَّ إنَّ الحفظ الانفرادي يُعرض الإنسان للوقوع في الخطأ أثناء نطق بعض الكلمات، وقد يستمرُّ هذا الخطأ مدة طويلة، دون انتباه، ولكن عند التسميع لآخرين مُتقنين فإنَّ الخطأ سيظهر.

فاختر لنفسك أخوةً تحبّهم في الله يُعينونك وتُعينهم على حفظ ما يتيسر من كتاب الله، وهذا أفضل ما يجتمع عليه الإخوة المتحابُّون في الله.

فإن تعسر ذلك فلا أقل من الارتباط مع مقرئ أو شيخ محفظ، يتابع معك ويصوب قراءتك، وهذا الشيخ قد يكون أباً أو أخاً وقد تكون الشيخة أمًّا أو أختاً فاضلة، وفي البيوت كثير من الفاضلات الحافظات لكتاب الله، وللغيب بما حفظ الله.

الثالث عشر: تعاهد النية ومجاهدة النفس في تصحيحها.

فإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، ومن حقق الإخلاص، وأصلح النية فحري به أن يعان، وحري بالذي يرجو ثواب الله ويجتهد لوجه الله أن لا ينقطع، بخلاف الذي يعمل لأسباب أخرى فاستمراره منوط بتلك الأسباب، متى ذهبت ذهب.

والأمر أشد من ذلك، فحافظ القرآن في عبادة من أجل العبادات، فإن



أخلص لله في حفظه قُبِلت عبادته، ونمت وبُورك له، وإن قصد بذلك غير وجه الله تعالى تركه الله وشركه! وقد روى ابن ماجة وغيره حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ فَهُوَ فِي النَّارِ»[1].

وفي حديث مَن تُسعر بهم النار يوم القيامة: رجل قرأ ليقال قارئ[2]!

الرابع عشر: العمل بالمحفوظ.

فَرْعٌ عن تَعاهد النية ومجاهدة النفس مراعاة القيام بالمحفوظ والعمل به، فالذي يخلص النية لله، يتجاوز همه مجرد الحفظ لأجل الحفظ، بل للعمل، فإنه يحرص على أن يستعمل محفوظه في الصلاة؛ في قيام الليل، في القراءة في الفرائض والنوافل، يحرص على قراءة سورة الكهف كل جمعة وربما السجدة والإنسان كذلك، وتبارك كل يوم، والزمر كل ليلة، وكذلك الإسراء والمسبحات، قالت عائشة رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ (الزمر)، و(بني إسرائيل)»[3]، وبني إسرائيل هي الإسراء، وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه، «أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ المسبحات ويقول فيها آية

---

(١) سنن الترمذي (٢٦٥٤)، وابن ماجة (٢٥٣)، وانظر صحيح الجامع للألباني (٦١٥٨).

(٢) سنن الترمذي وصحيح ابن خزيمة كلاهما برقم (٢٣٨٢)، وصحيح ابن حبان (٤٠٨).

(٣) سنن الترمذي (٢٩٢٠)، وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع (٤٨٧٣)، والسلسلة الصحيحة (٥٨٥).



خير من ألف آية»[1]، وجدير بالمسلم أن يتعلم ما جاء الندب إلى قراءته في الصلوات المفروضة أو النوافل أو مطلقاً طرفي الليل والنهار.

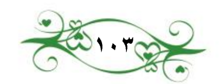
الخامس عشر: المشاركة في أنشطة وبرامج التحفيظ والمراجعة المساعدة.

سواء أكانت دورات حفظ مركز، أو مراجعة لأجزاء، أو مراجعة لكامل القرآن، أو مسابقة في حفظ القرآن الكريم كاملاً، أو في بعض أجزائه، فهذه الأنشطة وأمثالها تساعد على الحفظ وعلى إتقان الحفظ، ولا حرج في أخذ السبق على مثل حفظ القرآن فهو عند طائفة من المحققين من أخذ السبق على نوع من جهاد القول، الذي من أجله شرع الجهاد بالسنان، فلا بأس في المشاركة بل تحسن لما فيها من توطيد الحفظ مع ضرورة إخلاص النية، واتخاذ أمثال تلك البرامج قنطرة وسبيلاً للحفظ لا العكس.

وبهذه المناسبة أوصي الأخوات بالحرص على حفظ أوقاتهن بالمشاركة في دور تحفيظ القرآن الكريم، فإن الاجتماع في برنامج بنوع متابعة وإلزام مما يساعد على الحفظ، على ما في الدور من الفوائد الأخرى، وقد عرفت من حفظت القرآن الكريم كاملاً في هذه الدور وهي في الخمسين من عمرها.

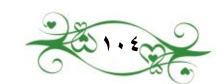
---

(١) سنن الترمذي (٣٤٠٦) وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٧١٢).



السادس عشر: التدقيق في الآيات المتشابهة.

ملاحظة الآيات المتشابهة في بعض ألفاظها ومقارنة مواضع التشابه فيها أمر مهم جداً، فحبذا لو سجلت في دفتر خاص ما يمر معك أثناء الحفظ من تشابه بين الآيات، لتستحضر مواضع التشابه أثناء المراجعة، والملاحظ عند بعض الطلاب الّذين لا يعتنون بمواضع التشابه بين الآيات، أنهم يقعون أثناء التسميع في الخطأ، إذ تشتبه عليهم آية ما مع ما يشابهها في سور أخرى، فينتقل من سورة لأخرى. ولهذا كان الطريق الأمثل للحفظ المتقن أن التركيز على مواضع التشابه، وملاحظتها، وبذل الجهد في الاهتمام بها. يقول الإمام ابن المنادى رحمه الله في بيان أهمية معرفة المواضع المتشابهة من آيات القرآن الكريم: «إن معرفة مواضع التشابه يساعد في تقوية حفظ الحافظ وتدريب المتحفظ، وقد وضع فريق من القراء هذا النوع ولقّبوه المتشابه، رداً من سوء الحفظ». وقد ألّف العلماء كتباً عديدة في ذلك، ومن أبرزها: (متشابه القرآن العظيم) للإمام أبي الحسن بن المنادى، المتوفى في سنة ٣٦٦ هجرية، وكتاب (البرهان في متشابه القرآن) لتاج القراء محمود بن حمزة الكرماني، من علماء القرن الخامس الهجري، وكذلك للسخاوي نظم في المتشابه، وقد ألف غير واحد من المعاصرين في المتشابه، وبعضهم اعتنى بإعداد دورات تساعد على ضبط المتشابه.



السابع عشر: تعاهُد القرآن.

عَنْ أَبِي مُوسَى عَنْ النَّبِيِّ قَالَ: «تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنْ الإبلِ فِي عُقُلِهَا»[1].

«قوله: (تعاهدوا) أي استذكروا القرآن وواظبوا على تلاوته، واطلبوا من أنفسكم المذاكرة به ولا تقصروا في معاهدته واستذكروه ... من شأن الإبل تطلب التفلت ما أمكنها، فمتى لم يتعاهدها برباطها تفلتت، فكذلك حافظ القرآن إن لم يتعاهده تفلت بل هو أشد في ذلك. وقال ابن بطال: هذا الحديث يوافق الآيتين: قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (المزمل: ٥)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر: ١٧) فمن أقبل عليه بالمحافظة والتعاهد يُسّر له، ومن أعرض عنه تفلّت منه»[2]، وعَن ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «مَثَلُ الْقُرْآنِ مَثَلُ الإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ، إِنْ تَعَاهَدَهَا صَاحِبُهَا بِعُقُلِهَا أَمْسَكَهَا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَطْلَقَ ذَهَبَتْ»[3]، والتعاهد يكون بتخصيص أوقات للمراجعة، وأوقات للختمة كل مدة، وأوقات للصلاة، وأوقات للاستذكار، وأعرف أحد طلاب العلم من المتقنين للحفظ يقول: منذ حفظت

---

(١) صحيح البخاري (٤٦٤٥).

(٢) فتح الباري: ٨١/٩.

(٣) صحيح البخاري (٤٦٤٣).



القرآن قبل سنوات كثيرة لم أترك ختمة واحدة حسب ما قد التزمت به من وقت محدد.

الثامن عشر: الحفاظ على هذه الرتبة العالية الشريفة واستحضار عاقبة التفريط.

فلا يُزحزحنك الشيطان عن هذه الرتبة العالية بعد إذ نلتها: قال ابنُ حجر رحمه الله في الفتح: «اختلف السَّلف في نسيان القرآن، فمنهم من جعل ذلك من الكبائر، قال الضحاك بن مزاحم: ما من أحدٍ تعلَّم القرآن ثم نسيهُ إلا بذنب أحدثه، لأن الله يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ (الشورى: ٣٠)، ونسيانُ القرآن من أعظم المصائب، وجاء عن أبي العالية رحمه الله: كنا نعدُّ من أعظم الذنوب أن يتعلم الرجل القرآن ثم ينام عنه حتى ينساه، وإسناده جيد، ومن طريق ابن سيرين بإسناد صحيح في الذي ينسى القرآن: كانوا يكرهونه ويقولون فيه قولاً شديداً ... والإعراض عن التلاوة يتسبب عنه نسيان القرآن، ونسيانه يدل على عدم الاعتناء به والتهاون بأمره ... وترك معاهدة القرآن يفضي إلى الرجوع إلى الجهل، والرجوع إلى الجهل بعد العلم شديد، وقال إسحاق بن راهويه: «يكره للرجل أن يمر عليه أربعون يوماً لا يقرأ فيها القرآن»[1]، ومن الدعاء: (اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور)، أي من النقص بعد البناء أخذاً من

---

(١) فتح الباري: ٨٦/٩.



تكوير العمامة ثم نقضها بعد ذلك، فمن حفظ ثم نسي فقد وقع في الحور: (النقص)، بعد الكور؛ (دقة الحفظ)!

ب. حقيقةُ الحفظ.

واعلم أخي أنّ حقيقة الحفظ في الشّريعة، هي ما ورد في قوله ﷺ: «احفظ الله يحفظك»[1]، يقول الشيخ ابن عثيمين: «(احفظ الله يحفظك) كلمة جليلة عظيمة، احفظ اللهَ، وذلك بحفظ شرعه ودينه، بأن تمتثل لأوامره وتجتنب نواهيه، وكذلك بأن تتعلَّم من دينه ما تُقوِّم به عبادتك ومعاملاتك، وتدعو به إلى الله عز وجل»[2].

فإذا ما وُفّقت إلى تحقيق هذا الحفظ، كانت العاقبة أن يكلأك الله عزّ وجلّ بحفظه وكنفه الّذي لا يرام، فيحفظك في دينك وفي بدنك ومالك! فهذا هو حقيقةُ الحفظ، الّذي إذا حقّقه المسلم، لم يُبالِ إذا لم يكن يحفظ من القرآن إلا ما يُقيم به عبادته.

ومع ذلك فإنّ حافظ القرآن هو الأجدر بأن يحقّق هذه المرتبة العالية الرفيعة من الحفظ، فحريٌّ به إذ يسّر الله له حفظ القرآن، أن يحفظ به جوارحه، يقول الإمام القرطبيّ رحمه الله في تفسيره: «يجب على حامل القرآن وطالب العلم أن يتَّقي الله في نفسه، ويخلص العمل لله، فإن كان تقدَّم له شيءٌ مما يَكره فليُبادر التوبة والإنابة، وليبتدئ الإخلاص في الطلب وعمله، فالذي

---

(١) سنن الترمذي (٢٥٢٦)، صححه الألباني.

(٢) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين ص: ٧٠.



يلزم حامل القرآن من التحفظ أكثر مما يلزم غيره، كما أنَّ له من الأجر ما ليس لغيره»[1].

فلا ينبغي لحامل القرآن، أن يغترَّ بحفظه، ويتكاسل عن العمل، بل عليه أن يُقدر عِظَم ما يحتمله صدره، وأن يعطيه حقّه ومنزلته: وكما ارتقى إلى المنزلة العالية بحفظه فعليه في المُقابل مسئولية وواجبٌ يوازي ذلك. فإن الحفظ ليس نيشاناً يُعلّق ولا شهادة تُزوّق ولا مكافآت تُفرّق؛ لكنه أمانة يجب القيام بحقّها.

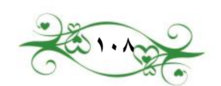
قال النووي رحمه الله: «ليكن على أكمل الأحوال وأكرم الشمائل، ويرفع نفسه عن كل ما نهى القرآن عنه، ويتصون عن دنيء الاكتساب، وليكن شريف النفس عفيفا، متواضعا للصالحين وضعفة المسلمين، متخشعا ذا سكينة ووقار. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذ الناس نائمون، وبنهاره إذ الناس مفطرون، وبحزنه إذ الناس يفرحون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبصمته إذ الناس يخوضون، وبخشوعه إذ الناس يختالون. وقال الحسن البصري رحمه الله: إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار»[2].

فينبغي لحامل القرآن أن يكون على أكرمِ الأحوال وأكرمِ الشمائل، قال

---

(١) تفسير القرطبي ١/١٩.

(٢) المجموع شرح المهذب ٢/١٩٥.



الفضيل بن عياض: «حاملُ القرآن، حامل راية الإسلام، لا ينبغي له أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، وينبغي لحامل القرآن أن لا يكون له إلى الخلق حاجة لا إلى الخلفاء فمن دونهم وينبغي أن يكون حوايج الخلق إليه»[1].

نبغي لحامل القرآن أن يكون ثابت الجَنان قائماً بالحق، ولما حارب المسلمون مسيلمة الكذّاب وقُتل حامل رايتهم زيد بن الخطاب تقدّم لأخذها سالم مولى أبي حذيفة فقال المسلمون: يا سالم، إنا نخاف أن نُؤتى من قبلك! فقال: بئسَ حاملُ القرآن أنا إن أُتيتم من قِبَلي، فقُطعت يمينُه فأخذ اللواء بيساره، فقُطعت يساره فاعتنق اللواء، وهو يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ (آل عمران: ١٤٤)، ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٤٦)، فلما صُرع قيل لأصحابه: ما فعل أبو حذيفة؟ قيل: قُتل[2].

وليحذر حامل القرآن، من التَّكبُّر بذلك على الآخرين، فلربما أفلح المقلّ المعذور وخسر الحافظُ المغرور: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرو قَالَ: «أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: أَقْرِئْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ لَهُ: اقْرَأْ ثَلاثًا مِنْ ذَاتِ (الر) فَقَالَ الرَّجُلُ: كَبِرَتْ سِنِّي وَاشْتَدَّ قَلْبِي وَغَلُظَ لِسَانِي، قَالَ: فَاقْرَأْ مِنْ ذَاتِ (حم) فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ الأُولَى، فَقَالَ: اقْرَأْ ثَلاثًا مِنْ الْمُسَبِّحَاتِ، فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ،

---

(١) حلية الأولياء ٩٢/٨، وفي أخلاق أهل القرآن للآجري مختصراً.

(٢) أصل الخبر في تفسير مقاتل ٢٦٢/٣، وانظر تاريخ الأمم والملوك ٢٧٨/٢، وترجمة سالم في أسد الغابة ٣٩٨/١.



فَقَالَ الرَّجُلُ: وَلَكِنْ أَقْرِئْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ سُورَةً جَامِعَةً، فَأَقْرَأَهُ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهَا قَالَ الرَّجُلُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لا أَزِيدُ عَلَيْهَا أَبَدًا ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ!»[1]، وفي الحديث ضعف.

ولا ينتظرنْ الحافظ من الناس ثناءً ولا تقديراً، وليجاهد نفسه أن لا يتأثر بمدحهم وإطرائهم؛ إخلاصاً لله: نعم يجب عليهم أن يوقِّروا حامل القرآن؛ لأنّ في جوفه كلام الله، وإنَّ من إجلال الله إكرامَ حامل القرآن غيرَ الغالي فيه ولا الجافي عنه، كما جاء في الحديث[2]، قال ابن عبد البَرّ رحمه الله: «وحملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله، المعظِّمون كلام الله، المُلبَسون نور الله، فمن والاهم فقد والى الله، ومن عاداهم فقد استخفَّ بحق الله تعالى»[3]. وقد ذكر بعض الشافعية أن غيبة حامل القرآن كبيرة، وفرقوا بين غيبة غيره وغيبته.

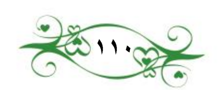
---

(١) سنن أبي داود (١١٩١) وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (٣٠٠).

(٢) حديث أبي موسى الأشعري مرفوعاً بلفظ: «إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المسقط».

قال الألباني: «أخرجه أبو داود وغيره، وإسناده حسن عندي؛ كما في المشكاة وغيره»، انظر الضعيفة (٣٢٥٠)، والمشكاة (٤٩٧٢)، وفي الحديث خلاف كبير بين أهل العلم، قال السفاريني في شرح منظومة الآداب: «ذكره الحافظ ابن الجوزي في الموضوعات، وتعقبه الجلال السيوطي والحافظ ابن حجر وغيرهما، وهو عند أبي داود بإسناد حسن والله أعلم» ٤٢٧/١.

(٣) نقله القرطبي في تفسيره ٢٦/١.

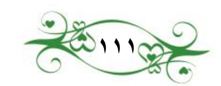


ومع ذلك فإنّ على صاحب القرآن ألا يغترَّ بحقّ وحرمة الحفظة؛ فلربما أخرجه عدمُ الإخلاص من بينهم.

ج. من مدارس التّحفيظ إلى معارج التدبُّر.

إن المتأمل في حال المسلمين مع كتاب الله اليوم لا تخطئ عينه ما يُرى من إقبال أعدادٍ كبيرة منهم؛ رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً، على كتاب الله عز وجل بالتلاوة والحفظ؛ فجمعيات التحفيظ منتشرة في طول البلاد وعرضها، والمساجد تمتلئ بحلق التلاوة والتحفيظ، ودورات التحفيظ تخرج كل عام العشرات والمئات من الحفاظ، حتى قيل إن هذا العصر هو العصر الذهبي لحفظ القرآن الكريم، وهذا بكل تأكيد مما يثلج الصدور، لأنه يدل على حرص الأمة بمجموعها على كتاب ربها عز وجل، وحرصها على تحصيل الأجر العظيم الذي وعد الله به عباده التالين لكتابه والحافظين؛ إلا أنَّ المؤسف أن هذا الإقبال على التلاوة والحفظ لا يصحبه إقبال يماثله أو يقرب منه في باب التدبر والفهم والعمل، حتى صرنا نرى من يتم حفظ كتاب الله عز وجل، ولا يعرف معنى كلماتٍ من أوائل السور التي يحفظها صغار الطلاب.

وقد سجل أحد المسؤولين عن حلقات التحفيظ ملاحظات عديدة في هذا المجال، كان منها قوله: «ظهر لي عدم تدبر أكثر الطلاب لقراءة القرآن



الكريم، من خلال عدم مراعاتهم للوقف والابتداء، أثناء تسميعي لهم في الحلقات أو في الاختبارات والمسابقات، فيقف الطالب وقفاً عجيباً، ويبتدئ ابتداءً غريباً، يدلُّ على عدم التدبر والتأمل»[1].

حقّاً، هنالك آلاف المدارس المختصة بتحفيظ القرآن الكريم، فهل توجد مدرسة واحدة مختصَّة بتدبُّر القرآن وتعليمه؟! إنَّه حقاً أمرٌ مُلفت للنَّظر، فإن علمنا أنَّ الهدف الأعظم من إنزال القرآن هو: أن نتفهّم ما فيه من أحكامٍ، لنعمل بها ونطبِّقها، حتى ولو لم نحفظه، إذ إنّ الله تعالى لم يكلّف العباد بحفظ القرآن كاملاً، بل يكفيهم من الحفظ ما تصحُّ به صلاتهم، وما يستشفُون ويتعوَّذون ويتحصَّنون به، أما تدبّر القرآن ومعرفة معانيه فالأمة مأمورة ومطالبة به، والحال كذلك، فإنّنا مع الأسف نُهمل ما نحن مكلّفون به، ونكتفي بما لسنا به مكلَّفين.

إنَّ هذه دعوةٌ لإقامة تلك المدارس المختصَّة بتدبُّر القرآن وتفسيره، وليست دعوةً لإغلاق حلقات التَّحفيظ ومدارسه، فحلقات التحفيظ من الأهمية بالمكان الذي لا يُجهل وهي من أهم الطرق للتدبر، ولكن نريد أن نخطوَ بها خطوة مهمة إلى الأمام، نريد لها أن تؤدِّي دوراً أكبر وأعظم وأجلّ من مجرد إخراج الحفظة، نُريد أن نرى منها ابن عباسٍ زمانِنا وابن مسعود

---

(١) إسهام جمعيات تحفيظ القرآن الكريم في بناء الأجيال، الواقع والمأمول، ورقة للدكتور هاشم الأهدل، انظرها في موقع المسلم:

http://almoslim.net/spfiles/tadabbur/paperv.htm

عصرنا، وابن عمر يومنا، نريدها أن تحمل مشاعل الفهم والتدبّر لتُنير بها عقولَ أمتنا التي استضاءت كثيراً بغيرها في التفسير وصحيح المعاني، فيما يتعلق بكتاب الله تعالى، فضلّت وزاد ليلها اسوداداً، نريدها أن تُنير الدرب بالمفسّرين والمتدبرين، كما أنارته بالحافظين؛ ليزداد النور نوراً والحق ظهوراً، ويقوى السَّيرُ إلى الغايات العظمى التي ترقبُها الأمة في فجرها المنشود، الذي لن يبزغَ إلا إذا أخذت الأمة قرآنها بقوة، وأقبلت عليه تلاوةً وفهماً وعملاً وتحكيماً وتدبراً.

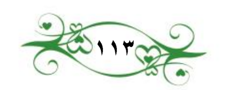
وعلى حفظة القرآن أن يعلموا أنَّ الحفظ ليسَ آخر خطوةٍ في الطريق، وما أحسن قول من قال:

يا حافظ القرآنِ لستَ بحافظٍ! حتى تكون لما حَفِظْتَ مطبّقا
ماذا يُفيدك أن تُسمَّى حافظاً وكتابُ ربِّكَ في الفؤادِ تمزَّقا
يا أمَّتي القرآنُ حبلُ نجاتِنا فتمسَّكي بِعُراهُ كي لا نَغرقا
ولْتَجْمَعي حَوْل الكتابِ شتاتنا حتى نُزيل تناحراً وتفرّقا
ولتجعلِيه مُحَكَّماً في أمرنا وثِقي بوعدِ الله أن يتحقّقا

نسأل الله العلي القدير أن يجعل القرآن العظيم شافعاً لنا، وحجة لنا لا حجة علينا، والحمد لله رب العالمين.

٤: العلاقة بين التّلاوة والتّدبّر.

كيف نُعايش القرآن؟ أو كيف نعيش معه وبه؟ هذا سؤال عظيم؟ والإجابة هي أن الخطوة الأولى لذلك هي التّلاوة، كما بيَّن الله جلَّ وعلا:



﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ (المزمل: ٤)، ويقول الله جلَّ وعلا: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (النمل: ٩١) وقد مدح الله التَّالين لكتابه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ﴾ (البقرة: ١٢١)، نص غير واحد من المفسرين على أن معناها يتدبرونه أو يقرؤونه كما يجب من التدبر له والعمل به[(١)]، وقد بيَّنَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ الماهر بالقرآن في مرتبة الملائكة الكرام، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ فَلَهُ أَجْرَانِ»[(٢)]، والّذي لا يتلو القرآن داخل في عداد من هجر القرآن، وهذا حال كثيرٍ من الناس للأسف، وإن واظبوا على تلاوته ففي رمضان، وبعده ينقطعون أحد عشر شهراً، وقد ورد عن بعض السّلف أنّه لا ينبغي أن يمرَّ على المسلم أربعون يوماً، بدون أن يختم فيها القرآن! وقد مضت الإشارة إلى ذلك.

وقد ورد أنّ سعيد بن جبير رحمه الله كان يختم القران كلَّ ليلتين في رمضان، وذكروا عن أبي حرة واصل بن عبدالرحمن أنه كان يختم القرآن كل ليلتين، أمّا أبوبكر بن عيَّاش، فقد قيل: إنّه مكث ستين سنة يختم القرآن كلَّ يوم ختمة، ولا عجب في ذلك ولا غرابة، فإنّني أعرف رجلاً من أهل الرياض،

---

(١) انظر مفاتيح الغيب ٣٠/٤، والتسهيل لابن جزي ص٦٥، والبيضاوي ٣٩٣/١.

(٢) صحيح مسلم (١٨٩٨).



أسأل الله أن يختم لنا وله بخاتمة السّعادة، يختم منذ سنواتٍ كلَّ يوم ختمةً. أمَّا في رمضان خاصَّةً، فثمَّة كثيرون من طلاب العلم دأبوا منذ سنين عديدةٍ، على ختم القرآن كلّ يومٍ مرّةً، وورد عن الإمام الشَّافعيِّ أنّه في رمضانَ خاصّةً كان يختم كل يومٍ مرةً.

وهناك من يختمون في سبع، وهناك من يختم في ثلاث، وروى البيهقي عن مسبح بن سعيد قال كان محمد بن إسماعيل البخاري إذا كان أول ليلة من شهر رمضان اجتمع إليه أصحابه فيصلي بهم، فيقرأ في كل ركعة عشرين آية، وكذلك إلى أن يختم القرآن، وكذلك يقرأ في السحر ما بين النصف إلى الثلث من القرآن، فيختم عند السحر في كل ثلاث ليال، وكان يختم بالنهار كل يوم ختمة، ويكون ختمه عند الإفطار كل ليلة ويقول: «عند كل ختمة دعوة مستجابة»[1]، وقد ثبت عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه كان يجمع أهله وولده عند الختمة فيدعو لهم[2]، ونعم ما يصنع ربُّ الأسرة في رمضان، إذا أراد أن يختمَ أن يجمع أولاده وأهله قُبيل الإفطار، فيتلون القرآن، ويلهجون بدعوات مستجابة لهم ولأهلهم ولسائر المسلمين.

وهنا قد يسأل سائل: ألم يرد النهيُ عن قراءة القرآن في أقلِّ من ثلاثٍ؟

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٢٠٥٨).

(٢) رواه الفريابي في فضائل القرآن ص٧٩.



ونقول: بلى، قد ورد، لأنّ من يختمه في أقلّ من ثلاثٍ، لم يفقه منه شيئاً! كما قال ﷺ: «لا يفقه من قرأ في أقل من ثلاث»[1].

أمّا أولئك الأفذاذ، فيُحمل صنيعُهم على أنّه ليس عادةً لهم، لكنّهم يجتهدون في انتهاز أوقات هذا الشهر المبارك، شهر القرآن، إضافةً إلى كونهم من أوعية العلم! قال الترمذي رحمه الله: «وقال بعض أهل العلم لا يقرأ القرآن في أقل من ثلاث للحديث الذي روي عن النبي ﷺ، ورخص فيه بعض أهل العلم، وروي عن عثمان بن عفان أنه كان يقرأ القرآن في ركعة يوتر بها، وروي عن سعيد بن جبير أنه قرأ القرآن في ركعة في الكعبة، والترتيل في القراءة أحب إلى أهل العلم»[2]، وقال ابن رجب: «إنما ورد النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث على المداومة على ذلك، فأما في الأوقات المفضلة كشهر رمضان خصوصاً الليالي التي يطلب فيها ليلة القدر، أو في الأماكن المفضلة كمكة لمن دخلها من غير أهلها، فيستحب الإكثار فيها من تلاوة القرآن اغتناما للزمان والمكان، وهو قول أحمد وإسحاق وغيرهما من الأئمة، وعليه يدل عمل غيرهم»[3].

قال النووي: «وقد كانت للسلف عادات مختلفة فيما يقرؤون كل يوم

---

(١) سنن أبي داود (١٣٩٢)، والترمذي (٢٩٤٩)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) سنن الترمذي ١٩٦/٥ (٢٩٤٦).

(٣) لطائف المعارف ص١٨٣.



بحسب أحوالهم وأفهامهم ووظائفهم، فكان بعضهم يختم القرآن في كل شهر، وبعضهم في عشرين يوماً، وبعضهم في عشرة أيام، وبعضهم أو أكثرهم في سبعة، وكثير منهم في ثلاثة، وكثير في كل يوم وليلة، وبعضهم في كل ليلة، وبعضهم في اليوم والليلة ثلاث ختمات، وبعضهم ثمان ختمات، وهو أكثر ما بلغنا! وقد أوضحت هذا كله مضافاً إلى فاعليه وناقليه في كتاب آداب القراء مع جمل من نفائس تتعلق بذلك، والمختار أنه يستكثر منه ما يمكنه الدوام عليه ولا يعتاد إلا ما يغلب على ظنه الدوام عليه في حال نشاطه وغيره، هذا إذا لم تكن له وظائف عامة، أو خاصة يتعطل بإكثار القرآن عنها، فإن كانت له وظيفة عامة كولاية وتعليم ونحو ذلك فليوظف لنفسه قراءة يمكنه المحافظة عليها مع نشاطه وغيره من غير إخلال بشيء من كمال تلك الوظيفة، وعلى هذا يحمل ما جاء عن السلف والله أعلم»[1]، ولمّا علم أن كثيراً من النفوس تستعظم أن يقع بعض ذلك قال رحمه الله في موضع آخر وقد ذكر جملة من أخبار السلف في هذا المضمار: ﷺ ولا ينبغي لمطالعه أن ينكر هذه الأحرف في أحوال هؤلاء الذين تستنزل الرحمة بذكرهم مستطيلاً لها، فذلك من علامة عدم فلاحه إن دام عليه، والله يوفقنا لطاعته بفضله ومنته»[2].

وقد حدَّثني أحد طلاب الشيخ عبد العزيز بن باز رحمة الله عليه، أنَّه في يوم من الأيام ختم القرآن في خمس ساعات، والأمر من معدنه لا يستغرب،

---

(١) شرح مسلم ٤٣/٨، وانظر النقول مفصلة في التبيان ص٥٩ وما بعدها.

(٢) شرح مسلم ٧٩/١.

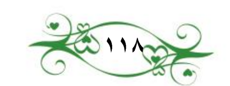
فالشّيخ ابن باز معروف بجودة الحفظ، وهذه حالات استثنائية، وإلا فإنّ منهج الشيخ عبد العزيز كما أعرفه أنَّه يقرأ في كلِّ يومٍ جزءينِ، يعني يختم في كلّ شهرٍ مرَّتين!

فالمقصود أنّ معايشة القرآن تكون بتلاوته، ومن الأوقات المناسبة الّتي أنصح بأن يتحيّنها الناس للتّلاوة الوقتُ ما بين الأذان والإقامة، أن تكون على وضوءٍ مستعدّاً للصّلاة، ثمّ تبادر عند الأذان بتلبية النداء، وقد حكى لي واحدٌ ممن تعرّفتُ بهم، أنه يقرأ ما يُقارب خمسة الأجزاء في هذه الفترة القصيرة.

وأذكر أحد العبّاد من كبار السّنّ في مدينة الرياض، تُوفِّي قبل ثلاث سنوات، وما علم جيرانه بوفاته إلا من خلال مصحفه، الّذي لم يتعوّدوا أن يجدوه مغلقاً، افتقدوه ومصحفه في ثلاثة أوقاتٍ ثمّ ذهبوا إلى أهل بيته يسألونهم، فتبيّن أنّه قد فارق الحياة، بيد أنّه كان يعيش فيها مع القرآن، ولم يُنتبه إلى غيابه إلا بسبب مصحفه.

فمعايشة القرآن، تحصل بالتواصل المستمرّ معه عبرَ تلاوة آياته، آناءَ الليل وأطرافَ النهار.

وهذا صحيح، ولكن ما الّذي نعنيه بتلاوة القرآن؟ أهي قراءةُ ألفاظه وحروفه فقط؟ بالطّبع لا! وإلا نكونُ قد سلكنا مسالك اليهود والنَّصارى، الّتي حذّرنا الرّسولُ ﷺ، من اتّباعِها، انظُر إلى قوله تعالى مُبيِّناً علاقة اليهود بالكتاب، يقول: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (البقرة: ٧٨).



«قال أبو جعفر: يعني بقوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، لا يعلمونَ ما في الكتابِ الذي أنزلهُ الله، ولا يدرون ما أودعهُ اللهُ من حدوده وأحكامه وفرائضِه، كهيئة البهائم، ... ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾»[1].

وما هي الأمانيُّ؟ روى الإمامُ الطَّبريُّ بسنده عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه قوله: «﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾، يقول: إلا أحاديثَ»[2]، يعني قراءةً محضةً، لا روح فيها، فهل هذا هو المقصود بمعايشة القرآن من خلال تلاوته؟ ولنذكر الرّواية الأخرى «عن ابن عباس: (إلا أمَانيَّ)، يقول: إلا قولاً يقولونه بأفواههم كذباً»[3]، ولا تعارض بين الرِّوايتين، ذلك أنّ من يقرأ القرآن ولا يُلقي بالاً لمعانيه وأحكامه، ولا يفتح قلبه للتّأثُّر بها، سيكون واقعُ حالهِ أنّه مكذِّبٌ بها!

إذن، فلا بدّ مع التِّلاوة من تدبّر القرآن، بل لا تكون التلاوة وهي خالية من التدبر إلا ضرباً من الأمانيِّ!

فلا بدَّ مع التّلاوة من التّدبُّر!

وينبغي التّنبيهُ إلى أنّ السّلف الذين كانوا يختمون القرآن في ليلةٍ أو ليلتين أو ثلاث، كانوا يُخصّصون ختمةً أخرى للتلاوة المتدبّرة، قد لا يختم في الشهر إلا مرةً واحدة.

---

(١) تفسير الطبري: ٢/ ٢٥٩ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

وهل كان عمر بن الخطاب ﷺ، وهو الموفّق المحدّث الملهمُ ضعيفَ الحفظ، لما مكث اثنتي عشرة سنةً يحفظ سورة البقرة، فلمّا تحقّق له ذلك؛ نحر جزوراً من الفرح! وابنه عبد الله بن عمر ذاك الشَّابُّ الألمعيُّ الذَّكيُّ رضي الله عنهما عاش مع البقرة ثمانية أعوام[1]!

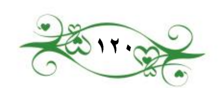
إذن، فلتكن لك أخي المسلم ختمتان: ختمة لا تخلو من التدبر، وأخرى خاصّة بالتّدبر، وقد أفادني أحد الإخوة المعنيِّين بأمر التدبر، أن تلاوة التدبر، لا يُنظر فيها إلى مقدار ما قرأت، ولكن إلى مقدار ما تدبَّرت، ومصداق ذلك أنّ النبي ﷺ قام ليلةً كاملة كما في حديث أبي ذر، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (المائدة: ١١٨) وكثيرٌ من الصَّحابة والسَّلف كانوا يقومون ليلةً كاملةً بآية واحدة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾!

والله عزّ وجلّ يقول: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: ٢١)، أين قلبك من هذا الجبل؟ لو أُنزل عليه القرآن لخشع متصدّعاً، وأنت تسمع آياته، فأين الخشوع والخضوع؟

ترى ما الّذي يجعلنا لا نتأثّرُ بالقرآن؟

الجواب: لأننا شُغلنا بتلاوته وحفظه عن التدبر فيه، يقول الله عز وجل:

(١) انظر شعب الإيمان (١٩٥٧)، وتنوير الحوالك ١٦٢/١، وفي هذه الآثار ضعف وغرابة.



﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (ص:٢٩)، يعني: إنّما كان الهدف من إنزاله هو التّدبّر والعمل؛ فاتّخذوا تلاوته شُغلاً، وحفظه وظيفةً ومسابقة!

إنَّ هذه الحال مخالفةٌ للحال التي أمر الله عز وجل بقراءة القرآن عليها، فقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ (المزمل: ٤)؛ أي بتمهُّل وترسُّل، قال ابن كثير: «فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره»، فجعلَ الفهم والتدبر علةً للأمر بقراءته مرتلاً، وقال الشوكاني: «أي: اقرأه على مهل مع تدبُّر»[1]، فجعل التدبر داخلاً في معنى الترتيل.

ومن جهةٍ أخرى، فيُخشى أن تكون حالُ من يقرأُ ويحفظ دون تدبُّر كحال من سبقنا من الأمم، التي عاب الله عليها مثل ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ (البقرة:٧٨)، قال ابن عاشور رحمه الله: «قيل: الأمانيُّ القراءة، أي لا يعلمون الكتاب إلا كلماتٍ يحفظونها ويدرسونها لا يفقهون منها معنىً، كما هو عادةُ الأمم الضالَّة إذ تقتصر من الكتب على السَّرد دون فهم»[2].

فينبغي أن تكون حالُ تالي القرآن مع كتابِ الله عزَّ وجلَّ، كما قال الإمام الآجُرِّي رحمه الله: «يتصفَّح القرآن؛ ليؤدِّبَ به نفسه، لا يَرضى من نفسه

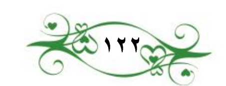
---

(١) فتح القدير: ٥/٤٤٣.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ١/٥٧٥.

أن يؤدِّيَ ما فرض الله بجهل، قد جعل العلم والفقه دليله إلى كل خير، إذا درس القرآن فبحضور فهم وعقل، همَّته إيقاعُ الفهم لما ألزمه الله: من اتِّباع ما أمر، والانتهاء عمَّا نهى، ليس همته متى أختم السُّورة!

همته متى أستغني بالله عن غيره؟ متى أكون من المتقين؟ متى أكون من المحسنين؟ متى أكون من المتوكلين؟ متى أكون من الخاشعين؟ متى أكون من الصابرين؟ متى أكون من الصادقين؟ متى أكون من الخائفين؟ متى أكون من الرَّاجين؟ متى أزهد في الدنيا؟ متى أرغب في الآخرة؟ متى أتوب من الذنوب؟ متى أعرف النعم المتواترة؟ متى أشكره عليها؟ متى أعقل عن الله الخطاب؟ متى أفقه ما أتلو؟ متى أغلبُ نفسي على ما تهوى؟ متى أجاهدُ في الله حق الجهاد؟ متى أحفظ لساني؟ متى أغضُّ طرفي؟ متى أحفظ فرجي؟ متى أستحيي من الله حق الحياء؟ متى أشتغل بعيبي؟ متى أصلح ما فسد من أمري؟ متى أحاسبُ نفسي؟ متى أتزوَّد ليوم معادي؟ متى أكون عن الله راضياً؟ متى أكون بالله واثقاً؟ متى أكونُ بزجر القرآن متعظاً؟ متى أكونُ بذكره عن ذكر غيره مشتغلاً؟ متى أحبُّ ما أحبَّ؟ متى أُبغضُ ما أبغض؟ متى أنصحُ لله؟ متى أخلص له عملي؟ متى أقصر أملي؟ متى أتأهَّب ليوم موتي وقد غُيِّبَ عني أجلي؟ متى أعمر قبري، متى أفكر في الموقف وشدَّته؟ متى أفكر في خلوتي مع ربِّي؟ متى أفكر في المنقلب؟ متى أحذر مما حذَّرني منه ربِّي، من نارٍ حرُّها شديدٌ، وقعرُها بعيدٌ، وعمقها طويل» ... إلى أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالمؤمن العاقل



إذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان كالمرآة، يرى بها ما حسُن من فعله، وما قبُح منه، فما حذَّره مولاه حذِره، وما خوَّفه به من عقابه خافه، وما رغَّبه فيه مولاه رغب فيه ورجاه، فمن كانت هذه صفته، أو ما قارب هذه الصفة، فقد تلاه حق تلاوته، ورعاه حق رعايته، وكان له القرآن شاهداً وشفيعاً وأنيساً وحرزاً، ومن كان هذا وصفه، نفع نفسه ونفع أهله، وعاد على والديه، وعلى ولده كل خير في الدنيا وفي الآخرة»[1].

ثانياً: في معنى التّدبّر وما يتعلّق به من الألفاظ والمعاني:

ويتناول النقاط التالية:

١. تدبُّرُ القرآن: معناه وأهميّته.

٢. العلاقة بين تدبُّر القرآن وتفسيره.

٣. العلاقة بين تدبُّر القرآن والتفسير بالرأي.

٤. الفرق بين التأمل والتدبر والتعقل ومعرفة المعنى.

١. تدبُّرُ القرآن: معناه وأهميّته:

وفيه عنصران:

أ. معنى تدبُّر القرآن.

ب. أهميّة تدبُّر القرآن.

---

(١) أخلاق حملة القرآن: ١/ ٢٧.

أ. معنى تدبُّر القرآن:

قال ابن فارس رحمه الله في مادة (دبر): «أصلُ هذا الباب أنَّ جُلّه في قياسٍ واحد، وهو آخِرُ الشَّيء وخَلْفُه، خلافُ قُبُلِه ... والتدبير: أنْ يُدبِّر الإنسانُ أمرَه، وذلك أنَّه يَنظُر إلى ما تصير عاقبتُه وآخرُه، وهو دُبُره»[1]، وذلك ليجتهدَ في تحقيق ثمرة هذا الأمر، وقال الأزهريُّ في تهذيب اللغة: «والتَّدبير أيضاً أن يُدَبِّرَ الرجل أمره ويتدبَّره أي ينظر في عواقبه»[2]، وقال ابن منظور في لسان العرب: «والتَّدْبِيرُ في الأَمر أَن تنظر إِلى ما تَؤُول إِليه عاقبته، والتَّدَبُّر التَّفكر فيه ... ويقال إِنَّ فلاناً لو استقبلَ من أَمره ما استدبره لَهُدِيَ لِوجْهَةِ أَمْرِه، أَي لو علم في بَدْءِ أَمره ما علمهُ في آخره؛ لاسْتَرْشَدَ لأَمره»[3]، ومُرادنا من التدبر مما يوافقُ ما سبق أنَّه النظر والتفكر فيما تؤول إليه عاقبة الشيء، وفيما يكون آخر الأمر، فهو عملٌ عقليٌّ له لازم عملي لاينفك عنه وهو المتابعة والتقفي، يكون الغرضُ منه: الفهم الصحيح الثاقب، ومعرفة بواطن الأمور، وما تؤول إليه في نهاية المطاف، للعمل بمقتضى هذه المعرفة، فهو خلفها وهي أمام ناظريه دائماً.

وبناءً على ما سبق، يكون معنى تدبُّر القرآن: أن يتَّخذ التّالي للقرآن وضعاً منه بحيث يتمكّن من اجتناء ثمراته، ومعرفةِ مضمونِ خطابه ومعناه

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣٢٤/٢.

(٢) تهذيب اللغة ٤٥٣/٤.

(٣) لسان العرب ٢٦٨/٤، مادة (دبر).



ومرماه، ويتمثّل ذلك في خطواتٍ وضوابط وشروطٍ لازمةٍ لتحقيق عملية تدبّر القرآن، أو يكون المراد من تدبر القرآن كما يقول العلامة السعدي رحمه الله: «التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك»[1]، حيث إنَّ من لوازمه الأكيدةِ العملَ بما فيه.

ويقول بعضهم في تعريف التدبر أنّه: «العملُ على تحقيق وتحديق النَّظر في ما يبلغه المعنى القرآنيُّ المديدُ من درجات الهداية إلى الصِّراط المستقيم، وهذا نظر لا يتناهى، فإنَّ المعنى القرآني له أصل يبدأ منه ولكن منتهاه لا يكاد يبلغه أحدٌ من العباد، فصاحب القرآن الكريم في سفر دائم طلباً للمزيد من المعنى القرآني، وكل تعقّل وتفكّر وتفقّه وتفهم للبيان القرآني، لا يحقق العلم بدرجة من درجات الهداية إلى الصراط المستقيم، لا يكون من تدبر القرآن الكريم في شيء».

ج. أهمية ومكانة تدبّر القرآن.

تبدو أهمية تدبّر القرآن ومكانته، من الحقائق الآتية:

أولاً: أنّ الغاية المقصودة من وراء إنزال القرآن هي التّدبُّر.

يقرّر ابن قيّم الجوزيّة هذا المعنى، مؤكّداً على أنّ التدبّر والتَّأمُّل في القرآن، هو الغاية من تنزيله: «لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر، قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (البقرة:٢٩)،

---

(١) تفسير السعدي ١/١٨٩ ـ١٩٠.

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (محمد: ٢٤)، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون: ٦٨) وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف: ٣)، وقال الحسن: (نزل القرآن ليُتدبَّرَ ويُعمل به) »[١]!

ثانياً: التّدبُّر هو منهج النَّبيِّ ﷺ.

وبخاصَّة في رمضان، كما روي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ، حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنْ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ»[٢]، لم يقل أنّ جبريل كان يضبط عليه القرآن، بل يدارسه، والمدارسة تختلف عن التلاوة أو الضَّبط، فهي تتعلق بالحروف والمعاني. فهل نحن نفعل كذلك؟

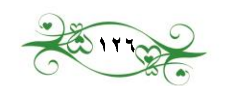
ثالثاً: أنّ القرآن مستودعٌ للعلوم والمعارف، والتّدبّر مفتاحه.

يقول العلامة ابنُ سعدي رحمه الله: «تدبُّر كتاب الله مفتاحٌ للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كلُّ خير وتُستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته. فإنه يُعرِّف بالربِّ المعبود، وما له من صفات الكمال؛ وما يُنزَّه عنه من سمات النَّقص، ويُعرِّف الطريق الموصلة إليه وصفةَ

---

(١) مدارج السالكين ١/٤٥١.

(٢) صحيح البخاري (٦).



أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويُعرِّف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب، وكلَّما ازداد العبد تأمُّلاً فيه ازداد علماً وعملاً وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك وحثَّ عليه وأخبر أنه المقصود بإنزال القرآن، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾»[1].

ويقول رحمه الله: «﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبَّر الناسُ آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحِكَمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تُدرك بركته وخيره، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ أي: أولو العقول الصَّحيحة، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب، فدل هذا على أنه بحسب لبِّ الإنسان وعقله يحصل له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب»[2].

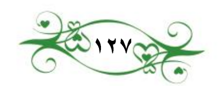
رابعاً: كونُ تدبّر القرآن واجباً على كلِّ مسلم.

يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (محمد: ٢٤)،

---

(١) تفسير ابن سعدي ١/١٨٩، تفسير آية النساء: ٨٢.

(٢) السابق ١/٧١٢، تفسير آية ص: ٢٩.



قال ابن كثير رحمه الله : «يقول تعالى آمرًا بتدبُّر القُرآن وتفهُّمه، وناهياً عن الإعراض عنه، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ أي: بل على قلوب أقفالها، فهي مُطْبَقَة لا يخلص إليها شيء من معانيه»[1]، وهذا يتضمن تحذيراً شديداً لمن يُعرض عن تدبر كتاب الله؛ كي لا تكون حاله كحال من ذُكر، والعياذ بالله.

خامساً: كون تدبُّر القرآن هو العاصم من شُبهات الطاعنين في القرآن الكريم.

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢)، قال ابنُ كثير: «يقول تعالى آمرًا عباده بتدبر القرآن، وناهياً لهم عن الإعراض عنه، وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة، ومخبرًا لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تضادّ ولا تعارض؛ لأنه تنزيلٌ من حكيم حميد، فهو حقٌّ من حق ... ثم قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: لو كان مفتعلاً مختلقاً، كما يقوله من يقوله من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم ﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ أي: اضطراباً وتضادًّا كثيرًا. أي: وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله. كما قال تعالى مخبراً عن الراسخين في العلم، حيث قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ (آل عمران: ٧) أي: محكمه ومتشابهه حقٌّ؛ فلهذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، والذين في

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/٣٢٠، تفسير آية سورة محمد: ٢٤.



قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه فغووا؛ ولهذا مدح تعالى الراسخين وذمَّ الزائغين»[1]. وهذا الأمر يُعطي تدبُّرَ الكتاب أهميةً عظيمة، إذ به يعصم الله سبحانه وتعالى العبدَ من الانخداع بشبهات الطاعنين في القرآن الكريم، فيعلمَ أنها أوهى من نسج العنكبوت، ولهذا نراها لا تروج إلا على من قلَّ علمُه بالقرآن الكريم وضعُف أو انعدم تدبُّره لآياته.

د. تدبُّر القرآن في حياة خير القرون.

لقد كان للسَّلف عامة والصَّحابة منهم خاصة، منهج قويم في حفظ القرآن وتعلّمه، منهج أخذوه من النبي ﷺ فعن عثمان وابن مسعود وأُبي بن كعب: «أنَّ رسول الله ﷺ، كان يُقرؤهم العشرَ فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى، حتى يتعلّموا ما فيها من العمل فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً»[2].

وقد كان اهتمام السلف بالقرآن تدبراً وتفسيراً، اقتداءً منهم بالنبيِّ ﷺ، الذي كان لا يمرُّ على القرآن إلا متفهماً متدبراً، وقد سمع عليه الصلاة والسلام امرأة ذات ليلة تقرأ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١)﴾ (الغاشية)، فقام يستمع ويقول: «نعم قد جاءني»[3]. وقد ثبت أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام: «كان إذا مرّ بآية رحمةٍ سأل، وإذا مر بآية عذاب تعوّذ»[4]، وعن حذيفة رضي الله عنه

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/٣٦٥، تفسير آية النساء: ٨٢.

(٢) تفسير القرطبي، ١/ ٣٩، والطبري ١/ ٧٤.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١٩٢٥١)، وهو مرسل.

(٤) رواه أحمد، ٥/ ٣٨٤، وابن خزيمة ١/ ٢٧٢ (٥٤٢).



قال: «صليت مع رسول الله ﷺ ذات ليلةٍ، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يُصلِّي بها في ركعة فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسّلاً، إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوُّذ تعوَّذ»[1].

وبالمقابل فقد ورد عنه ﷺ أنه قام الليل كلّه بآيةٍ واحدةٍ فقط، يتلوها ويُعيد تلاوتها مرّةً بعد أخرى، متفكّراً في معانيها ودلالاتها، ورد ذلك فيما رواه أبو ذرٍّ رضي الله عنه، قال: «صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً، فَقَرَأَ بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ يَرْكَعُ بِهَا وَيَسْجُدُ بِهَا: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾»[2].

وبكى ﷺ حين قرأ عليه ابنُ مسعود من سورة النساء كما في صحيح البخاري، قَالَ: «قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ اقْرَأْ عَلَيَّ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ قَالَ نَعَمْ فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ قَالَ حَسْبُكَ الآنَ فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ»[3]، فهل تتوقع أن يكون ذلك من غير تدبّر؟

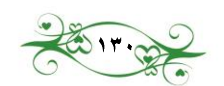
وكان ﷺ يدعو الأمة إلى التدبّر وفهم معاني القرآن، فحين نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي

---

(١) رواه مسلم ١/ ٥٣٦ (٧٧٢).

(٢) رواه أحمد ١٤٩/٥ (٢١٣٦٦) وحسنه الأرناؤوط.

(٣) صحيح البخاري (٥٠٥٠).



ﭐلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠، ١٩١)، قال ﷺ: «ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكّر فيها»[١].

فلماذا لا نتدبَّر القرآن! وقد كان محمد ﷺ يتدبَّره، وقد كانت لنا فيه أسوة؟! ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ (الأحزاب: ٢١).

وعلى هذا النهج من التفكر والتدبر، سار الصحابة رضي الله عنهم، فهذا عبد الله بن عمر يحفظ سورة البقرة في سنوات لا لضعف في ملكة الحفظ عنده بل هو من حفاظ السنة المكثرين من رواية الحديث، بيد أنّه كان يقف مع هذه الآيات ويتدبّر ما فيها من أحكام، كلا ولم يكن يمرُّ عليها – كما هو حال الكثيرين منّا – مرور الكرام!

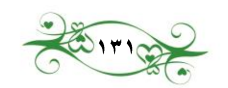
وقد نبغ في معرفة معاني القرآن من الصَّحابة جماعة منهم ابن عباس، قال الأعمش عن أبي وائل: «استخلف عليٌّ عبدَ الله بن عباس على الموسم، فخطب الناسَ فقرأ في خطبته سورة البقرة، وفي روايةٍ سورة النور، ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا»[٢].

وكذا كان التابعون بعد الصَّحابة على ذات الهدي، قال مجاهد بن جبر: «عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته،

---

(١) رواه ابن حبان ٢/ ٣٨٦ (٦٢٠) قال شعيب الأرناؤوط إسناده على شرط مسلم.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٥.



أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها»[1]، وشهدَ ابنُ مليكة في ذلك لمجاهدٍ، فقال: «رأيتُ مجاهداً يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواحه، فيقول له ابن عباس: اكتب، قال: حتى سأله عن التفسير كلّه»[2].

ويقول الآجري واصفاً حامل القرآن: «يتصفح القرآن ليؤدب به نفسه، همته متى أكون من المتقين؟ متى أكون من الخاشعين؟ متى أكون من الصابرين؟ متى أزهد في الدنيا؟ متى أغلب نفسي على ما تهوى»[3]؟.

لقد كان حفظُ القرآن يعني عندهم في المقام الأول تدبُّرَ القرآن، يعني عندهم التفكُّر في آياته، ومعرفة حلاله وحرامه، وأوامره ونواهيه وزواجره، ثم العمل به والحافظ عند السلف من مرّ بهذه المراحل فأتقنها، لا من مرّ بالآيات فأجراها على لسانه غيباً ولم يخطئ فيها.

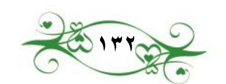
ولقد لبث النبي ﷺ والصحابةُ في مكة حججاً لم ينزل فيها غير قصار المفصّل، فقد كانت حياتهم قائمة على التفكّر في معاني الإيمان ومعاني التوحيد الذي كرّست تلك السور لبيانه وإيضاحه، فلم يكن في تلك المرحلة تلاوة كثيرة إذ إن قصار المفصل سور قصيرة وليست طويلة، ولم يكن هنالك كبير عمل يقوم به الصحابة، لأن أكثر التشريعات لم تكن قد فرضت يومها، لقد كان هنالك التدبّر، التدبّر وحسبك به.

---

(١) جامع البيان، ١/ ٦٥، تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٤٠٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥.

(٣) أخلاق حملة القرآن، ص٤٠.



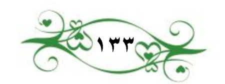
وقد بلغ التدبر في آيات الله بالسلف كلّ مبلغ، فكان الواحد يمرّ بقوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (الإسراء: ١٠٩)، فيسجد، ثم يقول لنفسه: هذا السجود، فأين البكاء[(١)]؟ وسمع أبو الدحداح قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: ٢٤٥)، فقال: أَوَ يقبل الله منا القرض، فتصدَّق ببستان له فيه ستمائة نخلة، كما في أثر عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَ إِنَّ اللَّهَ يُرِيدُ مِنَّا الْقَرْضَ؟ قَالَ: نَعَمْ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ. قَالَ: يَدُكَ! قَالَ: فَنَاوَلَهُ يَدَهُ. قَالَ: فَإِنِّي قَدْ أَقْرَضْتُ رَبِّي حَائِطِي حَائِطًا فِيهِ سِتُّمِائَةِ نَخْلَةٍ. ثُمَّ جَاءَ يَمْشِي حَتَّى أَتَى الْحَائِطَ وَأُمُّ الدَّحْدَاحِ فِيهِ فِي عِيَالِهَا، فَنَادَاهَا: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ قَالَتْ: لَبَّيْكَ! قَالَ: اخْرُجِي قَدْ أَقْرَضْتُ رَبِّي حَائِطًا فِيهِ سِتُّمِائَةِ نَخْلَةٍ[(٢)].

فتأمل هذا تصدق بتلك الصدقة العظيمة استجابة لآية، ثم ذهب لزوجه يخبرها فقالت ما حاصله: بشّرك الله بالخير! فلم تلطم خداً أو تشقُّ جيباً، أو تقول له: ضيّعتنا!

---

(١) مروي عن عمر ﷺ، انظر تفسير ابن أبي حاتم (١٤٢١٢)، والطبري (٢٣٩٦٣)، وشعب الإيمان للبيهقي (١٨٩٧)، وروي كذلك من قول صفية أم المؤمنين كما في مصنف ابن أبي شيبة (٣٦٦٨١)، وحلية الأولياء ٥٥/٢.

(٢) انظر الخبر مصنف عبدالرزاق (٣٠٧)، وتفسير ابن أبي حاتم (٢٤٣٠)، وتفسير الطبري (٥٦٤٧) والمثبت سياقه.



فهكذا كانت عنايةُ من سبقنا بالقرآن تدبّراً وتعقّلاً وتفهّماً؛ حتى ضربوا في ذلك بسهم، ونالوا حظاً وافراً، ونهلوا من هذا المعين الصافي حتى ارتووا.

وأفرادُ هذا كثيرةٌ في سير السلف وتراجم العلماء، بدءاً من أسوتهم ﷺ، ثم بخير هذه الأمة، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: أُنزلت: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (الزلزلة: ١)، وأبو بكر الصديق قاعد فبكى حين أنزلت فقال له رسول الله ﷺ: ما يبكيك يا أبا بكر؟ قال: يبكيني هذه السورة[١].

فهذا أبوبكر ؓ يبكي لسماع هذه السورة، دلالةً على وَقع ما سَمع في نفسه، وعظمته على قلبه، ولا يكون هذا التعظيمُ والتأثر إلا نتاجَ تدبر وتفكر فيما سمع من آي الذّكر الحكيم.

ثم نزولاً إلى **الفاروق** ؓ، الذي كان يُسمع له نشيجٌ بالقراءة، كما روى عبدالله بن شداد بن الهاد الليثي، قال: سمعت نشيج عمر بن الخطاب، في صلاة الصبح وهو يقرأ من سورة يوسف، وأنا في آخر الصفوف، يقرأ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٢].

ثم **عثمان** ؓ:

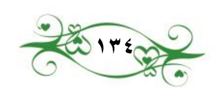
من كان يسهر ليلةً في ركعةٍ وتراً فيُكمل ختمةَ القرآن

فلجميعِ هؤلاء ولغيرهم من الصَّحابة والتابعين وتابعيهم وصالحي هذه

---

(١) تفسير الطبري (٣٨١٠٤)، وشعب الإيمان للبيهقي (٦٧٠١).

(٢) علقه البخاري في صحيحه مجزوما به ١٨٣/١، وانظره في سنن سعيد بن منصور (١١٣٨)، قال ابن حجر في تغليق التعليق ٣٠٠/٢: إسناده صحيح.



الأمة مواقفُ مع القرآن مشهورةٌ تدمع فيها العيون وتتحرك القلوب.

وانظروا لهذا المشهد، **مشهدِ مَن تذكر آيةً تدبَّرها فبكى!**

عن قيس بن أبي حازم قال: «كان عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه في حجر امرأته فبكى فبكت امرأته، قال: ما يبكيكِ؟ قالت: رأيتك تبكي فبكيت، قال: إني ذكرتُ قول الله: (وإن منكم إلا واردها)، فلا أدري أنجو منها أم لا »[1].

وأورد ابن القيم رحمه الله خروج الجيش إلى مؤتة، فقال: «فتجهز الناس وهم ثلاثة آلاف، فلما حضر خروجُهم ودع الناسُ أمراءَ رسول الله ﷺ، وسلَّموا عليهم، فبكى عبد الله بن رواحة، فقالوا: ما يبكيك؟ فقال: أما والله ما بي حبُّ الدنيا، ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آيةً من كتاب الله يذكر فيها النار: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ (مريم: ٧١) فلستُ أدري كيف لي بالصَّدَرِ بعد الوُرُوْد؟»[2].

فهذا ابنُ روحة رحمه الله لما تأمل هذه الآية وتدبرها خشعت نفسه، ورقَّ قلبه، وفاضت عيناه، وهذا من تعظيمه لكلام الله وتأثره به.

وهذا مشهدٌ آخر، مشهدُ من تدبَّر آيةً فقام بها.

(١) تفسير الطبري، ٣٦٤/٨.

(٢) زاد المعاد، ٣٣٦/٣.



قال الإمام أحمد: عن أبي ذرٍّ ﷺ، قال: صلى النبي ﷺ ذات ليلة، فقرأ بآية حتى أصبحَ، يركع بها ويسجد بها: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة: ١١٨)[١].

فرسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُردد هذه الآية الليل كلَّه في قيامه دون ملل، لتعظيمه مدلولها وإجلاله لمعناها، وهذا حالُ العارف بمضامينها، المطَّلع على أسرارها.

ومشهدُ: من تدبَّر آيةً فوقر الإيمانُ في قلبه.

عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه ﷺ، قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ (الطور: ٣٥ -٣٧)، كاد قلبي أن يطير[٢].

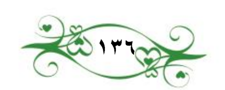
فهذا جبير بن مطعم، أخبر ﷺ أن هيبة القرآن ومعاني سورة الطور قد أطارت قلبه، فلم يملك إلا أن استسلم لعظمة القرآن وأسلم.

وبناءً على ذلك قرَّر النَّوويُّ ﷺ في التبيان: «إذا شرع في القراءة، فليكن شأنه الخشوعَ والتدبرَ عند القراءة، والدلائلُ عليه أكثرُ من أن تُحصر، وأشهرُ وأظهر من أن تُذكر، فهو المقصود المطلوب، وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب، قال الله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ (النساء: ٨٢،

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير، ٣٩٢/١، والحديث رواه البيهقي في السنن الكبرى من حديث أبي ذر الغفاري ١٤/٣ وقال: له متابع، وقد حسنه جمع من أهل العلم.

(٢) البخاري، ١٨٣٩/٤، (٤٥٧٣).

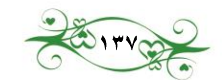


محمد: ٢٤)، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ (ص: ٢٩)، والأحاديث فيه كثيرة، وأقاويل السلف فيه مشهورة، وقد بات جماعة من السلف يتلون آية واحدة يتدبرونها ويرددونها إلى الصباح، وقد صعق جماعة من السلف عند القراءة، ومات جماعات حال القراءة، وروينا عن بهز بن حكيم أن زرارة بن أوفى التابعي الجليل رضي الله عنه أمهم في صلاة الفجر فقرأ حتى بلغ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩﴾ (المدثر: ٨، ٩) خرَّ ميتا، قال بهز وكنت فيمن حمله، وكان أحمد بن أبي الحواري وهو ريحانة الشام كما قال أبو القاسم الجنيد رحمه الله إذا قرئ عنده القرآن يصيح ويصعق، قال ابن أبي داود وكان القاسم بن عثمان الجوني رحمه الله ينكر على ابن الحواري وكان الجوني فاضلا من محدثي أهل دمشق تقدم في الفضل على ابن أبي الحواري قال وكذلك أنكره أبو الجوزاء وقيس بن جبير وغيرُهم قلت والصواب عدم الإنكار إلا على من اعترف أنه يفعله تصنُّعاً والله أعلم[1]، هكذا قال النووي وهو المتجه إذا لم تكن للمرء بدفع ذلك يد لأنه معذور وإنما يحمد على ما قام في قلبه لا ما آلت إليه حاله، بل حال النبي ﷺ وحال أصحابه كانت أكمل من حال هؤلاء، فهؤلاء لم تتحمل قلوبهم الوارد عليها من أنوار القرآن فحدثت لهم تلك الأحوال، والنبي ﷺ وأصحابه كانوا أكمل حالاً فرقت قلوبهم واقشعرت جلودهم وذرفت عيونهم وقبلوا الوارد كله ووعوا عن الله ما قال ولم تغب عقولهم أثناء ذلك، كما قرر ابن القيم في المدارج[2].

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن ص٨٣ ـ٨٤.

(٢) في مواضع منها على سبيل المثال ١٣٤/٢.



والمقصود أن حال السلف مع التدبر كانت عجيبة، بدءاً من أسوتنا وأسوتهم ﷺ ومروراً بخير جيل وانتهاء بأتباعهم إلى يوم الناس هذا!

٢. العلاقة بين تدبُّر القرآن وتفسيره.

وأما التدبر والتفسير فالفرق بينهما أن التدبر أوسع من التفسير، فالتدبر يحصل من كل مسلم حتى ولو لم يمتلك آلة تؤهله لأن يُفسّر القرآن ويُبحر في غوامضه، بل كلُّ مسلم مأمور أن يتدبر القرآن وليس كل مسلم مأمور أن يفسّر القرآن، إذ إن للتفسير شروطاً، وللمفسِّر مؤهِّلات لا بدّ من توفّرها فيه. وإذا وقع المسلم على معنى في كتاب الله ولم يكن من أهل التفسير فلا يقل هذا الرأي الذي وقع عليه، لأن القول على الله بغير علم من أعظم الذنوب وأكبر المعاصي، ولكنه يحتفظ بهذا المعنى دون أن يشيعه حتى يستوثق من صحته عند أهل العلم[(١)].

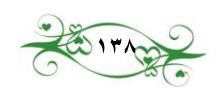
وقد روي عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه، قال: «التَّفسيرُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: وَجْهٌ تَعْرِفُهُ العَرَبُ مِنْ كَلاَمِهَا، وَتَفْسِيرٌ لاَ يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ، وَتَفسيرٌ يَعْلَمُهُ العُلَمَاءُ، وَتَفْسِيرٌ لاَ يَعْلَمُهُ إلاَّ اللهُ تعالى ذكرُه»[(٢)].

والتّدبُّر كثيراً ما يتعلق عند العامة بالتّفسير الّذي يمكن أن يعرفه كلُّ أحدٍ

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ١٤.

(٢) تفسير الطبري ١/ ٧٥.



من العرب، لو استفرغ وُسعه في الفكر، وهو يقع ضمن الوجهين الأوَّلين، أي: «وَجْهٌ تَعْرِفُهُ العَرَبُ مِنْ كَلاَمِهَا، وَتَفْسِيرٌ لاَ يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ»، وقد ذكر بعض المشايخ من ذلك أنه تجادل رجلان فيما يفعله الجهال عند القبور من دعاء الموتى، وطلب الحاجات منهم، فقال أحدهما: هذا شرك؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ (الجن: ١٨)، فقال الآخر: ما يجوز لمثلي ومثلك أن يفسر القرآن! فسكت الرجل، وكان حليمًا وهو في بيت الآخر، فخرجت عليهم جاريةٌ جميلة، فقال: يا فلانُ من هذه؟ قال: بنتي. فقال: لو تزوجتَهَا. فضحك عليه، وقال: أتزوَّج بنتي! فقال الرجل: هل في ذلك بأس؟ فقال: ما تسمع قول الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾؟! فقال: إنك تقول: ما يجوزُ لمثلي ومثلك أن يُفسِّر القرآن!

والمقصود: أنَّ من كان لسانه عربيًا، وفطرته مستقيمة، يعرف معنى القرآن بمجرد سماعه وكثيرًا ما يسألني الأعراب، وغيرهم عن مسائل غامضة في الأيتام، فأتلو عليهم قول الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ﴾، فيعرفون الجواب بمجرد التلاوة، ويقنعون، فإذا انضمَّ إلى العربية والفطرة السليمة معرفةُ سيرة النبي ﷺ، كان ذلك نورًا على نور.

بيد أن مفهوم التدبر غير منحصر في هذا النوع من التفسير، بل قد يسمع



العامي ما لا يعلم تفاصيل تفسيره بل ولا معاني كلماته كلها، ولكنه يدرك أن السياق سياق زجر فينزجر ويحصل له الخوف من الله، أو يدرك أن السياق سياق وعد ونعيم فينشط للطاعة ويحصل له إقبال عليها، وهذا كثير.

ومّما يبين شيئاً من هذا، حادثةٌ جرت للأصمعيِّ، الذي يعتبر من أعظم علماء اللغة العربية، كان الأصمعيُّ موجوداً في مجلس يتحدَّث عن موضوعٍ معيَّن، فأحبَّ الاستشهادَ بآية من القرآن الكريم، فقال: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا من الله والله غفور رحيم).

فسأله أعرابيٌّ: يا أصمعيُّ، كلام من هذا؟

فرد الأصمعيُّ: كلامُ الله!

فقال الأعرابي بثقة: هذا ليس كلام الله!

انتشر اللغط في المجلس وثار الناس على الأعرابيِّ الذي ينكر آية واضحة في القرآن، لكن الأصمعيَّ محتفظاً بهدوئه سأله: يا أعرابيُّ، هل أنت من حفظة القرآن؟

قال الأعرابيُّ: لا!

حسناً هل تحفظُ سورة المائدة؟ (وهي السورة التي تقع فيها هذه الآية)

كرَّر الأعرابي نفيه: لا!

إذاً، كيف حكمتَ بأنَّ هذه الآية ليست من كلام الله؟

كرَّر الأعرابي بثقة: هذه ليست كلام الله!

حسماً للجدال ومع ارتفاع اللَّغط تم إحضار المصحف لحسم الموقف!

فتح الأصمعيُّ المصحف على سورة المائدة، وهو يقول بنبرة الفوز: هذه هي الآية، اسمع: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لحظة لقد أخطأت في نهاية الآية: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٣٨﴾ وليس (غفور رحيم)! أعجب الأصمعيُّ بنباهة الأعرابيِّ الذي فطن إلى الخطأ بدون أن يكون من حفظة القرآن، فسأله: يا أعرابيُّ، كيف عرفت؟

قال الأعرابيُّ: يا أصمعيُّ، عزَّ فحكمَ فقطعَ، ولو غفرَ ورحمَ لما قطع!

لقد لاحظ الأعرابي بفطرته أنَّ الآية تتحدث عن حكمٍ شديدٍ من أحكام الإسلام، وهو قطع اليد للسارق درءاً للمفاسد وتخويفاً لغيره، فليس من المعقول أن تنتهي الآية بكلمة (غفور رحيم). لأنَّ المقام ليس مقام مغفرة[1]!

إذن، فالتّدبّر له ثلاث ميزات:

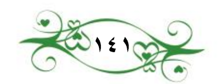
١. أنّ كلّ مسلمٍ عربيّ اللسان يُمكن أن يقوم به، فليس قاصراً على العلماء.

٢. أنّه ثمرةٌ للمعايشة مع القرآن، وربطه بواقع الحياة.

٣. أنه كثيراً ما يدخل ضمن الوجهين الأولين من أوجه تفسير القرآن التي ذكرها ابن عباسٍ رضي الله عنه.

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٢/٢٦٤، والإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم ص: ٤٤١.



والعلم بالتفسير عموماً مما يعين على التدبر وكذلك فهم دلالات الآيات الظاهرة والخفية.

لكن ليس شرطاً العلم التفصيلي بمعاني الآيات، ومن النماذج التي تقرب ذلك أيضاً أن امرأة كانت تحلم بأن يكون زواجها باباً يقودها نحو حياةٍ كلّها يسرٌ وطمأنينة، لكنّها فوجئت بشدّةٍ في خُلُق زوجها غفر الله لنا وله، فقرّرت أن تعودَ إلى بيت أبيها وأمّها، وخطّطتْ أن يكون ذلك عند خروج زوجها لصلاة المغرب، فلمّا أذّن المؤذن وخرج زوجها إلى المسجد أخذت أغراضها وملابسها، وعند مرورها في طريقها بالمسجد كان الإمام -وهو واحدٌ من كبار مشايخنا رحمه الله- يقرأ في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ (البلد، الآيات: ١ -٤)، ومع ما كان يعروها من انفعال، وجدت دافعاً يدفعها إلى التفكر في هذه الآيات، التي يُقسم الله عزّ وجلّ فيها ثلاثة أقسام، على ماذا؟ انتبهتْ فتوقّفت عن المسير! الله سبحانه وتعالى يُقسم على أنّ الإنسان قد خُلقِ في كبدٍ، أي مشقّة وعناء، فقالت: إذا كان لا بدّ من الكبد، فليكن في بيتي، وفي ظلِّ زوجي، مستورة الحال، لا في بيت أهلي مطّلقةً، تلوك سيرتَها وقصّتها الألسن!

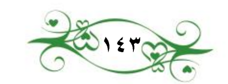
ومن عجائب التّدبر: طفلٌ في الصّف الأول الابتدائي، يستمع إلى إذاعة القرآن الكريم، فسمع قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟



سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٩ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴾(هود: ٦٩، ٧٠)، فعلّق بكلّ بداهةٍ قائلاً ما معناه: يا أبتِ، هذه حقيقة، لو جاء ضيفٌ، وقدّمنا له الطّعام، فلم يأكل منه، فإنّه حقّاً يُثير الخوف والتوجس، ونتساءل: لماذا لم يأكل من طعامنا؟ إلا إذا علمنا أنه مريض!

وهذا مثالٌ آخر، بل مثالان للتّفكر والتّدبر في معاني القرآن، وكلاهما صدرا من امرأةٍ نحسب أنّها من أهل الصلاح، وعمرها الآن فوق التسعين، يقول ابنُها أنّه في يومٍ من الأيام جاءني قريبٌ لنا وأمي جالسةٌ عندي، يقول: فلما دخل، قال: ما شاء الله الوالدة عندك! يعني: في البيت! وذلك من باب الإكرام لها، فقلت: لا، أنا عندها، الله يسلمك! فقالت لي الوالدة: لا يا ابني، عندما كنتَ صغيراً كنتَ عندنا، ولكنَّنا لما كبرنا صرنا نحنُ عندك، ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا ﴾ (الإسراء: ٢٣) يقول: كأنّي لأول مرّة أسمع هذه الآية!

والأنموذج الآخر من هذه المرأة أيضاً، وفي نفس ذلك المجلس، يقول ابنُها: ثمّ لما دارت بيننا أطرافُ الحديث، سألني هذا القريب: ما شاء الله! ما هو عملك؟ ولهذا الرجل مزارع واسعةٌ يقوم بزراعتها، نسأل الله أن يبارك له فيها، فقال: قلت: نزرع! فقالت أمه: لا، أنت ما تزرع! يقول: فاستغربتُ، فقالت: ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ (الواقعة: ٦٤)!!!



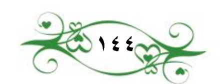
فهذان أنموذجان واقعيّان للتّدبّر، يصدران عن امرأةٍ كبيرة في السن وعامية، لكن تقرأ القران بتدبّر.

والنّماذج تترى، فقد حدَّثني أحد الإخوة، أنّه كان في الطريق من مكة إلى جدّة، ومعه أخته ذات السبع سنوات، وتلاوة خاشعة تصدر عن إذاعة القرآن الكريم، ورد فيها هذه الآية: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ (آل عمران: ١٨١) فعلَّقت أختُه الصغيرة على ذلك تعليقاً فوريّاً، قائلةً ما معناه: إذا كان الله فقيراً فمن الّذي أغناهم إذن؟! تستنكر بذلك على اليهود مقالتهم التي لا يقبلها العقل.

فالقرآن سهلٌ ميسر للذّكر والتدبر، يقول الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى: «عليك بتدبر القرآن حتى تعرف هذا المعنى، تدبره من أوله إلى آخره، واقرأه بتدبر وتعقل، ورغبة في العمل والفائدة، لا تقرأه بقلب غافل، اقرأه بقلب حاضر، واسأل أهل العلم عما أشكل عليك، مع أن أكثره – بحمد الله – واضح للعامة والخاصة ممن يعرف اللغة العربية»[1]، ومن هنا يظهر أن التدبر قد يكون طريقاً لفهم معاني القرآن ودلالاته، فيكون مساعداً على التفسير.

---

(١) مجلة البحوث الإسلامية، العدد الرابع والخمسون، الإصدار: من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤١٩هـ، من الافتتاحية: الوصية بكتاب الله، ص١٨ ـ١٩.



أما التفسير فهو في اللغة البيان والإيضاح، قال ابن منظور: «الفَسْرُ البيان ... والتَّفْسيرُ مثله ... وقوله عز وجل: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ الفَسْرُ كشف المُغَطّى والتَّفْسير كَشف المُراد عن اللفظ المُشْكل»[1]، وأما في الاصطلاح فقد قال الزركشي رحمه الله: «التفسير في عرف العلماء: كشف معاني القرآن وبيان المراد؛ أعمُّ من أن يكون بحسب اللفظ المشكل وغيره، وبحسب المعنى الظاهر وغيره»[2]، وهذا الكشف والبيان لا يتأتَّى للمفسر إلا بإعمال الفكر والنَّظر، فمن هذه الجهة يتَّفق التفسير مع التدبر!

لكنهما يفترقان من جهة نتيجة هذا الفكر والنَّظر، فنتيجة التفسير هي بيان مراد الله تعالى من كلامه، أما التدبر فيوصل إلى ما وراء ذلك مما لا يخالف هذا المراد، وفي العادة يقترن معه فعل على الأقل قلبي اعتقادي، وبالمثال يتضح المقال؛ فقد يقرأ المرء آيات وعيد لا يدرك بعض معاني الكلمات الواردة فيها، ولا يفهم أوجه التفسير التي ذكرت عندها، لكن تحدث له تلك القراءة ومعرفة المعنى العام الرامي للوعيد من الخشية والإنابة والخوف من عذاب الله، ما لا يحدث لبعض من قرأ التفسير وأدرك المعاني على التفصيل! ومثال آخر علمي، فقد ذكر الله تعالى دعاء إبراهيم لأبيه آزر قبل أن يتبين له أنه عدو لله وهو قوله:

---

(١) لسان العرب ٥/٥٥، مادة (فسر).

(٢) البرهان في علوم القرآن ٢/١٤٩.

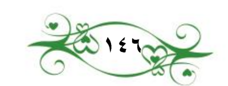


﴿ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (الشعراء: ٨٦)، والمراد من الضالين أي المشركين، كما ذكر تعالى دعاءه عليه السلام لأبويه، وذلك قوله: ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ ﴾ (إبراهيم: ٤١)، وتفسيرُ الآيتين واضح، وهو الدُّعاء لأبويه بالمغفرة، لكن تدبُّر هاتين الآيتين قاد بعض العلماء إلى القول بأنّ أمه عليه السلام كانت مؤمنة ولذلك لم يصفها بالضلال، وهذا كما نرى لا يدخل في تفسير الآيتين وإن كان لا يعارضهما، بل يظهر بالتأمل قوة احتماله.

٣. العلاقة بين تدبُّر القرآن والتَّفسير بالرأي.

لقد عُلم يقيناً عند كلّ مسلم ما للقرآن من حرمة ومكانة عظيمة، فلا يصح أن يَتجاسر على القول فيه وبيان معانيه وأحكامه ومطلقه ومقيده ومجمله ومبينه إلا من وُهب علماً واسعاً وفقهاً راسخاً، فالقرآنُ كلام الله وما أعظم أن يخوض في كلام ربّ البرية من لا يُحسن الكلام فيه، ولذا فقد تناذر المسلمون حمى الكتاب العزيز، إذ إن من المعلوم بالضرورة كونه ليس كلأً مباحاً ولا حمى مستباحاً لكل من هب ودرج.

بل كان الواحد من السلف تعرض له الآية فيأبى أن يقول فيها معنى ربما ظهر له منها، لكن لم يبلغ حدَّ اليقين والقطع به، ودافعهم في ذلك ما نصَّت عليه الآيات البينات التي تنهى وتزجر عن القول على الله بغير علم، قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٣)، فجعل الله تعالى القول عليه بغير علم فوق الشرك به شناعةً وجُرماً ووزراً،



وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (يونس: ٦٩) فبين سبحانه وهو أصدق القائلين أن الفلاح محجوب على من يفتري عليه ومن أعظم صور الافتراء على الله القول في كلامه على غير هدى ولا بصيرة.

وقد عاب الله على أهل الكتاب يوم بدّلوا كلامه وحرّفوا معانيه فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٧٨)، وقال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة: ٧٩)، ولقد جاء القرآن مبيناً أن من أسباب قساوة قلوب أهل الكتاب تحريفهم معاني كلام الله الذي أنزله إليهم على ألسنة رسلهم ليخرجوهم من الظلمات إلى النور فقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ١٥٥)، وإن هذه العقوبة التي عاقب الله بها أهل الكتاب لما تجاسروا على كلامه تحريفاً وتبديلاً وتزويراً ليست قاصرة على أولئك السابقين، بل تشمل من اتصف بصفتهم وعمل عملهم.

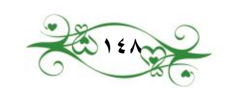
ولقد أقبلت هذه الأمة على كتاب ربها متوقِّفةً في معانيه على ما قال لها نبيُّها ﷺ وأصحابه الكرام، فسعدت زماناً وأقامت ما أمرت، ثم تقلبت



وتنكّبت الصراط المستقيم والطريق القويم لما جاء خَلَفٌ يقولون في القرآن بأهوائهم ويخوضون فيه بآرائهم فضلّوا عن الهدى المستقيم والطريق القويم وأضلّوا غيرهم عن المحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك.

لقد كان الصحابة الكرام يسألون النَّبيَّ ﷺ عمَّا أشكل عليهم من فهم القرآن فيبين لهم النبي ﷺ كلام ربهم وهو أعلم الخلق به، ثم جاء التابعون فسألوا الصحابة عما بيّن لهم النبي ﷺ وعما لم يبينه لهم، فوجدوا منهم التأويل الصحيح لكونهم أقرب لمشكاة النبوة وأدنى أن يعرفوا مراد ربنا تعالى، فهم تلاميذ رسوله ﷺ ، وهكذا تابعت هذه الأمة القرآن على الهدى والخير، حتى نجم قرن التأويل والرأي الفاسد، فنفى أولئك صفات لله تعالى وعطّلوها وفوَّضوها، ولم يسلكوا في فهم الآيات الواردة فيها مسلك السَّلف الصَّالح، وعمدوا إلى أفهامهم، فكانت أسقمَ الأفهام، ولجؤوا إلى عقولهم فكانت أضلَّ العقول.

إن تفسير القرآن لا ينبغي أخذُه إلا إذا قامت عليه بينات لا تعارض المأثور الذي جاء عن الله تعالى، والأخذ بالمأثور متى خالف الرأي هو الواجب، فالقرآن يفسّر بعضه بعضاً ويبيّن بعضه بعضاً ثم ما جاءت به النقول الصحيحة عن النبي ﷺ فما علم كلام الله أحد بعد الله كرسول الله ﷺ ثم ما جاء عن الصحابة الكرام الذين حضروا نزول القرآن وعرفوا فيم نزل ولم نزل فكانوا أعرف جيل به، وأعمل الناس بما به أمرهم وأبعدهم عما نهاهم، ثم



جاء بعد ذلك العلماء الراسخون والأئمة المجتهدون فقالوا في القرآن مهتدين بالسلف الصالح فوفقّوا وسُدّدوا.

أما القائلون بآرائهم المزعومة التي لا تستند إلا إلى الأهواء فلا مكان لأقوالهم تلك إلا في مزابل الأفكار، ولقد أمدّ الشيطان جنده، فقالوا في القرآن بما لا يتفق مع مقاصد الشرع، ولا تحتمله اللغة العربية التي نزل بها القرآن، بل وكثير من تلك الآراء تتصادم وصريح القرآن وصحيح السنة ومقاصد الشريعة، وقد أشار إلى أشياء من هذا الإمام عثمان بن سعيد في رده على المريسي ورده على الجهمية.

ولقد علم أعداءُ الأمة أن لا سبيل إلى تحريف هذا القرآن، بعد أن حفظه الله تعالى من التبديل والتغيير وتعهد بذلك، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر: ٨) عمدوا لما تيقَّنوا من عدم قدرتهم على تحريف القرآن، إلى نشر تلك الضلالات التي قال بها أهل البدع كالرافضة والمعتزلة وغيرهم.

ولقد كرّس أئمة الهدى من علماء السلف جهودهم لبيان كتاب الحقِ جلَّ وعلا، فألّفوا في ذلك المؤلفات العديدة وصنفوا التصانيف المفيدة وردّوا على أهل الباطل باطلهم وعلى أصحاب الضلال ضلالهم، فلم يتركوا لمن بقي إلا أن يتَّبع آثارهم ويسترشد بهم، وذلك ليقينهم أن القرآن هو سبيل



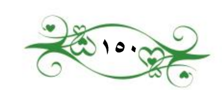
النجاة والفوز في الدنيا والآخرة فلا عزّ للأمة بغيره ولا نجاة لها في الآخرة إلا به.

قال الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثية: ٢٨، ٢٩)، وقال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ۙ فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الأعراف: ٣٥، ٣٦).

والناظر إلى المكتبة الإسلامية لن يجد علماً أُسيل فيه المداد كما التفسير، وذلك لعلم السابقين أن القرآن تدور عليه كل علوم الشريعة، وتستقي من معينه كلُ ضروب الشريعة، فلا عقيدة بلا قرآن، ولا فقه بلا قرآن، ولا سيرة بلا قرآن، ولا آداب بلا قرآن، وهكذا سائر الدين.

ونجد من العلماء من اعتنى بجانب الأحكام، ومنهم من عني بجانب اللغة والبيان، ومنهم من عني بجانب الإعجاز العلمي، ومنهم من عني بغير ذلك، وكل هذه التقسيمات تصبُّ في مصب واحد هو هداية الأمة بكتاب ربها تعالى، وتدلُّ دلالة واحدة هي اهتمام الأمة القديم والكبير بهذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

كما يدل على حقيقة أخرى وهي ثراء القرآن، هذا الكتاب الخالد الذي أخرج الأمة الضائعة من الضلال إلى الهدى، وبصّرها من العمى، ورفع



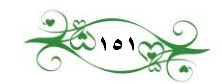
رأسها، هذا الكتاب هو كتاب عقيدة، وكتاب عبادة، وكتاب اقتصاد، وكتاب سياسة وكتاب آداب، وكتاب لغة وبيان، وكتاب اجتماع.

وذلك لأن ميدان القرآن شامل لكل ضروب الحياة، وقد أخرج الله به أمة كانت ترعى الغنم، فتقلدت مفاتيح المجد، وصعدت منابر الدنيا، وركبت صهوة العز، وجلست على عجلة القيادة.

ولقد كان السلف يتجنبون الكلام في القرآن إلا ما تيقَّنوا معناه وبدا لهم فهمُه، وليس من المذموم ولا المحرم أن يجتهد العلماء بما آتاهم الله من علم، ليفسروا كلام الله تعالى لمن لم يؤت ما أوتي العلماء ولا يستطيع أن يفهم القرآن إن لم يُبيَّن له، بل ذلك واجب على أهل العلم على وجه الكفاية، لذا نجد المكتبة الإسلامية قد عمرت بذلك الكم الهائل من كتب التفسير، وإنما الإشكال حينما يعارض ذلك الاجتهاد المنقول.

ولقد كان الصحابة يقولون في القرآن ويوضحون معانيه مهتدين بالنبي ﷺ إذ كانوا أعرف بالقرآن من غيرهم ولم يروا بذلك بأساً، وإنما المنهي عنه أن يلج في مجال التفسير من ليس من أهله، وأن يفسّر كلام الله من لم يملك الآلة اللازمة لذلك، أو يعارض من يملك الآلة بفهمه فهم الرعيل الأول.

كما أن أهل البدع والضلال لهم في التفسير خوض حسب أهوائهم نصراً لمذاهبهم المنحرفة وأفكارهم الضالة.



ولقد وضّح أهل العلم أصول التفسير التي يرتكز عليها هذا العلم الشريف، وبينوا قواعد التفسير وألّفوا في ذلك المصنفات العديدة حتى يحفظوا للأمة مصدرها الذي تستقي منه دون أن تكدّره وبالات الأفكار.

وإن من حفظ الله تعالى للقرآن والذي أبانه في قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩)، أن يحُفظ من التبديل والتحريف في ألفاظه، وأن يحفظه من التأويل الفاسد والتفسير الضال، ولذا فقد قيّض الله تعالى لهذا الكتاب من يذُبُّ عن معناه، وينفي عنه تأويل أصحاب الأهواء والضّلال والبدع، فما أتوا ببدعة وانتصروا لها بالقرآن إلا وبرز لهم أهل الحق يردُّون عليهم باطلهم ويبينون للناس فسادهم، وما تأولوا معنىً في القرآن على غير وجهه إلا وانبرى له العلماء ينفون ما ألحقوا بالكتاب العزيز من الأباطيل، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤١، ٤٢)، قال الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية: «وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب أن يقال: معناه: لا يستطيع ذو باطل بكيده تغييره بكيده، وتبديل شيء من معانيه عما هو به، وذلك هو الإتيان من بين يديه، ولا إلحاق ما ليس منه فيه، وذلك إتيانه من خلفه»[1].

---

(١) جامع البيان: ١١/١١٦.



بناءً على ما سبق فإن أمر التفسير أشد خطراً من أمر التدبر، لأن المفسر يُعيِّن مراد الله جل وعلا من كلامه ويقرره لغيره، أما المتدبر فلا يسمى متدبراً إذا لم يكن متابعاً لدلالات القرآن، بل قد يحصل له قدر من التدبر وإن لم يفهم المعاني التفصيلية التي يبحث فيها علم التفسير، ولهذا اشتد نكير أهل العلم على من فسر كتاب الله برأيه فقالوا: من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ، قال الترمذي: «هكذا روي عن بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم، أنهم شدَّدوا في هذا، في أن يفسر القرآن بغير علم»[1]، وقال ابن كثير رحمه الله: «فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام»[2]، ثم ذكر - رحمه الله - عدداً من الآثار عن السلف يتحرَّجون فيها من تفسير آي القرآن، وقال: «فهذه الآثار الصَّحيحة وما شاكلها عن أئمَّة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به؛ فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعًا، فلا حرج عليه؛ ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه»[3]، فأمر التفسير ليس لكل أحد إنما هو لمن أوتي أدواته من أهل العلم، وأما التدبر فأمره أوسع حيث أمر الله به الجميع - حتى الكفار والمنافقين - ونعى على من يعرض عن تدبر آيات القرآن الكريم كما سيأتي قريباً.

---

(١) سنن الترمذي ٥/٢٠٠.

(٢) تفسير ابن كثير ١/١٠.

(٣) تفسير ابن كثير ١/١٣.



فلهذا ينبغي التنبيه على أن تدبر المسلم العامِّي للقرآن الكريم فيما يقف تدبره على فهم معانيه، ينبغي أن يكون منضبطاً بتفسير الأئمة الثقات له، فإن عرضت له فكرة أو خاطر حول آية ما ولم يكن متيقناً أنَّ ما عرض له لا يخالف التفسير، فلا ينبغي له أن يصرح بهذا الرأي الذي وقع عليه مباشرة، ولا أن يزعم أن ما ظهر له هو تفسير الآية أو معناها، لأن القول على الله بغير علم من أعظم الذنوب وأكبر المعاصي، ولكنه يحتفظ بهذا المعنى دون أن يشيعه حتى يستوثق من صحته عند أهل العلم، وإلا كان هذا الذي يحسبه تدبر ضرباً من التفسير بالرأي، فتحاً لباب شر مستطير كحال بعض المنحرفة من الزنادقة وأصحاب التفسيرات الباطنية، فإنهم أخذوا من الآيات معان لا تمت للغة القرآن ولا لأحكام الشريعة بصلة اتباعاً لأهوائهم وما تمليه عليه شياطينهم، وزعموا أن ما هم عليه هو لباب الحقيقة فضلُّوا وأضلُّوا.

هل التدبر خاص بالعلماء؟

قال بعض العلماء: إن التدبر لا يكون إلا للعلماء كالتفسير، وقد رد عليهم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في كتابه أضواء البيان، عند تفسير قوله سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ (محمد: ٢٤)، حيث رد عليهم رداً مفحماً، وهو طويل يرجع إليه هناك[1]، وملخصه: أن الله عاتب الكفار والمنافقين الذين لا يتدبرون القرآن، ومعلوم أن الله لا يكلف إلا بما يطاق، فإذا كان

(١) تفسير آية سورة محمد (٢٤)، ٢٥٦/٧ وما بعدها.



المنافقون والكفار مأمورون بالتدبر، وهم قادرون عليه، فغير العلماء من المسلمين أقدر على التدبر من الكفار والمنافقين إذا كانوا يعرفون اللغة العربية؛ لأنهم أعظم فهماً من أولئك، ولذا فهم معاتبون من باب أولى إذا لم يتدبروا؛ لأنهم قادرون على التدبر، والقول بأن التدبر جائز بل مطلوب من الكفار والمنافقين، ومحرم على غير العلماء من المسلمين قول ضعيف لا تسنده الأدلة ولا الواقع، بل إن الأمر خلاف ذلك.

وهذا القول من هذا العالم العلامة هو الصحيح، وهو ما تؤيده الأدلة النقلية والعقلية، لكن ضم ما تم التنبيه عليه في هذا الكتاب، والله أعلم.

٥. الفرق بين التَّأمل والتَّدبر والتعقل ومعرفة المعنى:

إن تأمل القرآن هو كما قال ابن القيم: «تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله»[1]، فهو إذن يشتمل على ثلاثة أمور:

١ ـ رؤية معانيه ومراميه بجلاء ومعرفتها بوضوح.

٢ ـ جمع الفكر على تدبره.

٣ ـ جمع الفكر على تعقله.

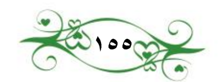
فابن القيم جعل مطالعة المعاني أمراً، والتفكر أمراً ثانياً، والتعقل شيئاً ثالثاً، وهي معان متقاربة إذا اجتمعت حصل التأمل.

أما التدبر فقد قيل في معناه: «هو التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة»[2].

---

(١) مدارج السالكين، ١/٤٥١.

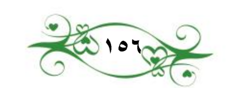
(٢) قواعد التدبر الأمثل للميداني: ص١٠.



ويقول بعضهم في تعريف التدبر: «وهو عند أهل العلم بكتاب الله جل وعلا: العمل على تحقيق وتحديق النظر في ما يبلغه المعنى القرآني المَدِيدُ من درجات الهداية إلى الصراط المستقيم. وهذا نظر لا يتناهَى، فإن المعنى القرآني له أصل يبدأ منه ولكن منتهاه لا يكاد يبلغه أحدٌ من العباد، فصاحب القرآن الكريم في سفر دائم طلبًا للمزيد من المعنى القرآني.

كلّ تَعَقُلٍ وتَفَكُّرٍ وتَفَقُّهٍ وتَفَهُّمٍ للبيان القرآني لا يحقق العلم بدرجة من درجات الهداية إلى الصراط المستقيم لا يكون من تدبر القرآن الكريم في شيْءٍ».

والذي يظهر ما قرر سابقاً وهو أن التدبر معنى أخص من المعرفة التفصيلية لمعاني الآيات، فالتدبر يقتضي النظر إلى ما تصير إليه عاقبة الكلام في الجملة، وهذا يحدث للمرء عملاً بما تدبره المرء لاستحضار العاقبة، وفي هذا تعلق واضح بأصل المعنى اللغوي للتدبر الدال على نظر في ما يؤول إليه آخر أمره، ولهذا أثر عن الحسن قوله: «إن هذا القرآن قرأه عبيد وصبيان لم يأخذوه من أوله، ولا علم لهم بتأويله، إن أحق الناس بهذا القرآن من رئي في عمله قال الله تبارك وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (ص: ٢٩) وإنما تدبر آياته إتباعه بعمله، يقول أحدهم لصاحبه: تعال أقارئك والله ما كانت القراء تفعل هذا والله ما هم بالقراء ولا الورعة لا



كثر الله في الناس أمثالهم لا كثر الله في الناس أمثالهم»[1]، فجعل تدبره إتباعه بعمل، لأنه متى انفصل عن متابعة الأمر لم يكن في دبره، ولأنه الأمر الذي تدعو إليه عاقبته عند من تأمله، ويدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾(ص:٢٩)، حيث جاء قوله تعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، تالياً لقوله تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ التَّذكُّرَ منزلةٌ مُتَرَتِّبَةٌ على حسن التَّدبر، فمن قام بشيءٍ من حق التَّدبُّر كان له من التذكر نصيب على قدر لُبِّهِ، وكثيرًا ما يقترنُ التذكر بأولي الألباب: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾ [البقرة] واللب هو خالص القلب الذي به يكون التعقل والتفكر والتذكر، والله – عز وجل – قدْ حَثَّ عبادَه على تدبُّره مقرِّرًا اتِّساقه قائلاً – سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ (النساء: ٨٢).

فقرر أنَّ ما يكون من عند غير الله – سبحانه وتعالى – فيه الاختلاف الكثير، أمَّا ما كان من عنده – جل جلاله – فلا اختلاف فيه البتة، ولكنْ فيه تصريفُ البيان.. المحَقِّق لبيان المراد..، وفي هذا دعوة ربانية وإغراء كريم بالعكوف على تدبُّر البيان القرآنيّ والوقوف على اتساقه وتناسبه، فإنه لن

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك: (٧٧٩)، وقد سبق ذكره.



يؤمن المرء بأن القرآن الكريم من عند الله – عز وجل – إيماناً مؤسساً على علم وعرفان، إلا إذا استفرغ جهده في هذا التَّدبّر، فهو من جليل العبادات[1].

أما التعقل ففيه معنى يقضي بإدراك المعاني المجملة التي تعقل الإنسان وتمنعه من مخالفته.

وكلٌّ من التدبر والتعقل لا يتم إلاّ بعلم مجمل المعاني ومراميها. ولكن ليس من شرط هذا العلم أن يكون تفصيلياً لكل كلمة وكل حرف، بل قد يكون التدبر بإدراك المعنى الإجمالي، وعقل الكليات المرادة بالآية، ولاشك أن التدبر يكمل كلما كان العلم بالمعاني أكمل، وإن لم يكن شرط المعرفة التفصيلية للمعاني وأوجهها لازماً لمطلق التدبر.

فمن قرأ {ألم} ولم يعلم حقيقة معناها أو علم أنها أحرف لا معنى لها في ذاتها مجردة، ولكن فهم مرماها، والمقصد من إيرادها، وهو الإشارة إلى إعجاز القرآن اللغوي مثلاً، حصل له نوع من التدبر المحمود لتلك الأحرف رغم أنه لا معنى لها مجردة في حد ذاتها على قول طائفة من محققي أهل العلم.

٥.مقاييس قرآنيَّةٌ للتّدبر:

مثلما أنّ هناك مقاييس موضوعيّة، يختبرُ الناس بها مدى وجود عنصرٍ من العناصر في جسمك أو دمك، أو عدم وجوده كذلك ثمّة مقاييس قرآنية، يتمُّ بناءً عليها قياس صلتك بالقرآن، ومدى عمق تأثيره في نفسك، ومدى

(١) من كلام الدكتور محمد توفيق في كتابه العزف على أنوار الذكر، وفي بعض العبارة قلق، تُصُرِّف فيه تصرفاً يسيراً.



تدبّرك لمعانيه، وتأثُّرك بها، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال: ٢) يبين أنّ شعورك بزيادة الإيمان عند سماعك لتلاوة القرآن، هو دليلٌ على تأثُّرك به، وعلى حسن تدبُّرك له، وبالعكس إذا ألفيتَ قلبك قاسياً عند سماع القرآن يُتلّى، كان ذلك مقياساً دالاً على ضعف صلتك بالقرآن، وعلى حاجتك الماسّة إلى جرعاتٍ من التدبر لمعانيه وآياته.

فمن وجد من نفسه تأثراً، ومن قلبه إقبالاً أو وجلاً، ووجد زيادة في الإيمان إذا تليت عليه آيات الرحمن؛ فليبشر وليؤمِّل خيراً، وإن وجد غير ذلك، فليراجع نفسه كي لا يكون القرآن حجةً عليه.

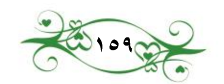
إذن، هناك علامات تدل قارئ القرآن الكريم – مع نية التدبر – على أنه يسير في الطريق الصحيح، بإذن الله، ومنها(١):

١ - اجتماع القلب والفكر حين القراءة، أما السهو والسير في أودية الدنيا أثناءها فليس من سمت المتدبرين لكتاب رب العالمين! بل قال الله تعالى في صفة عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (الفرقان: ٧٣).

٢ - البكاء من خشية الله وزيادة الخشوع، ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ

---

(١) ينظر مفاتح تدبر القرآن: ص٩، ١٠.



رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (الإسراء: ١٠٩).

٣ ـ زيادة الإيمان والفرح والاستبشار، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٤).

٤ ـ الإعجاب بما في القرآن الكريم من الفصاحة والبلاغة والحكمة والكمال، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ (الجن: ١).

٥ ـ القشعريرة خوفاً من الله تعالى ثم غلبة الاستكانة، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر: ٢٣).

٦ ـ العمل بما في هذا الكتاب من أعظم الأدلّة على تدبر القارئ لما يقرأ، لأن العمل من لوازم التدبر كما سبق.

٧ ـ استخلاص العبر والحكم من القراءة، وإنزالها على واقع القارئ وحاله، فهذا الربط بين القراءة والواقع دليل واضح على التدبر.

ثالثاً: أسباب التّدبُّر وموانعه.

نتناول فيه:

١. أسباب التَّدبُّر.



٢. موانع التَّدبر.

١. أسباب التدبر.

من الأسباب التي ينبغي أن يسعى المسلم إلى تحقيقها، حتّى يتسنّى له تحقيقُ التّدبّر، بإذن الله تعالى، نذكر ما يلي:

أولاً: تحقيق الإخلاص في العمل.

بالبعد عن الشرك الظاهر والخفيِّ، فالشرك لا ينفعُ معه عمل وإن كان ذلك العمل هو تلاوة كتاب الله تعالى! ومن الشرك إرادة العبد بعمله الدنيا، ومنه كذلك الرياء، فالواجب تمحيص قصد العبادة لله تعالى والتخلص من كل شائبة أو عالقة.

واعلم أنَّ الإخلاص مفتاحُ العلم والفهم: فاجعل قصدك وهدفك من القراءة والحفظ التقرب إلى الله سبحانه، واستحضار أن ما تتلوه هو كتاب الله عز وجل، واحذر أن يكون دافعُك نيلَ مكانة بين الناس، أو الحصولَ على بعض المكاسب الدنيوية والمكافآت البشرية، فالله سبحانه لا يقبل من العمل إلا ماكان خالصاً له، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ (البينة: ٥).

ثانياً: الالتزام بتلاوة يومياً.

ولاسيما في أوقات الفراغ، بعيد الفجر، وقبيل الصلوات، وبعد العصر، ولو خصص المرء وقتاً ثابتاً يوميّاً بحسب فراغه وحاله، فلا بأس في

ذلك بل هذا حسن، فتخصيصه لمقتض صحيح في حقه، غير أن مما ينبغي للمرء أن يتحين الأوقات التي يجتمع فيها قلبه على تلاوةٍ تقوم على أساس التّدبر والتفكر في المعاني، وذلك استجابةً لأمر الله لنا بأن نقف مع آياته وأن نتدبَّرها.

ثالثاً: البعدُ عن المعاصي والآثام.

فالقلب المظلم بالمعاصي والمشغول بالتكالب على شهوات الدنيا، يضيق بنور القرآن الكريم، لإيثاره الدنيا، والمعاصي حاجزٌ عن حفظ القرآن ومراجعته وتدبّر آياته، ووساوسُ الشيطان تصرف عن ذكر الله، يقول تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ (المجادلة: ١٩). وقد روى عبد الله بن المبارك عن الضحاك بن مزاحم أنه قال: «ما من أحدٍ تعلم القرآن فنسيهُ إلا بذنب يُحدثه، لأنَّ الله تعالى يقول في ذلك: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (الشورى: ٣٠) ونسيانُ القرآن من أعظم المصائب»[1]، فالمعاصي هي التي تمرض القلب وتوهنه، وتحجب عنه النورَ والإيمان، وقد قال ابن المبارك رحمه الله:

رأيتُ الذنوبَ تُميت القلوبَ ... وقد يورثُ الذلَّ إدمانُها
وتركُ الذنوبِ حياةُ القلوبِ ... وخيرٌ لنفسكَ عصيانُها

(١) فضائل القرآن لابن كثير: ص٢٢٢.



رابعاً: مراعاة أحكام التجويد.

وتلقّي القرآن علي يدي حافظٍ مُجوِّدٍ لقراءته، أو الاعتماد على تسجيلات القراء المتقنين، إضافةً إلى الالتزام بآداب التلاوة، فالذي يقرأ القرآن على وجهه حري أن يبارك له فيما يقرأ، وهو أجدر بفهم معانيه، لصحة ابتدائه ووقفه، وإقامة حروفه دليل عناية، تساعد بإذن الله على إقامة حدوده، ومن تعظيم القرآن الحرص على تصحيح قراءته، والبعد عن اللحن فيه، وقد أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالأخذ عن المتقنين وسمى لهم نفراً، وقد ثبت عند مسلم عَنْ مَسْرُوق قَالَ: كُنَّا نَأْتِى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو فَنَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ فَذَكَرْنَا يَوْمًا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: لَقَدْ ذَكَرْتُمْ رَجُلاً لاَ أَزَالُ أُحِبُّهُ بَعْدَ شَىْءٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُول اللَّهِ ﷺ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِن ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ -فَبَدَأَ بِهِ - وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأُبَىِّ بْنِ كَعْبٍ، وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِى حُذَيْفَةَ»[1]، وهؤلاء إنما أمروا بالأخذ عنهم لإتقانهم، وقراءتهم وفق ما أنزل، ففي مسند أحمد وغيره عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ رضي الله عنهما، بَشَّرَاهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ»[2].

خامساً: دعوة الناس إلى تدبُّر القرآن.

وهذا من جملة التواصي بالحق، المعين على الثبات عليه، ونحن بحاجة

---

(١) صحيح مسلم (٦٤٨٨).

(٢) المسند ١/٧ (٣٥)، وحسنه الأرناؤوط، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني (٢٣٠١).

إليه خاصَّة وأنَّ الأمة تعيش وهناً وضعفاً لم تمرَّ بمثله في تاريخها، وكلنا يبحث عن العلاج والعلاجُ في القرآن: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩)، وكلنا يرجو السلامة والنجاة من مضلات الفتن التي تتتابع والنَّجاةُ في القرآن، النبي ﷺ يقول: «تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ»[1].

فرغدُ الحياة في كتاب الله جلَّ وعلا، ومعالجة مشكلات الحياة في ضوء القرآن الكريم من أقوى وسائل الخروج منها، بل من أقوى أسباب رقيِّ الأمة، والعود بها إلى سابق عهدها، الذي كان يعيشه السلف الصالح – رضوان الله تعالى عليهم – وهذا لا يكون بغير تدبر كتاب ربنا وكلامه الذي أنزله لإصلاح شأننا.

سادساً: دعاء الله عز وجل والتضرع له.

بسؤاله أن يفتحَ على العبد من فضله، فإنَّ هذا الفتح مِنَّة من الله، بدليل أنَّ الإنسان قد يقرأ الآيةَ فيظهر له من معانيها أشياءٌ وأشياء، ثم يقرؤها في وقت آخر فلا يخرج منها بشيء، ولهذا كان سؤال الله الفهم والعلم، من طريق الراسخين المستجيبين لقول رب العالمين: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤)، قال ابن عبدالهادي عن شيخ الإسلام ابن تيمية: «كان رحمه الله يقول ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير ثم أسأل الله الفهم! وأقول: يا معلم آدم وإبراهيم علمني! وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها وأمرغ وجهي في التراب، وأسأل الله تعالى وأقول يا معلم إبراهيم فهمني! ويذكر قصة معاذ بن جبل، وقوله لمالك بن يخامر لما بكى عند موته وقال: إني لا أبكي على دنيا

(١) الموطأ (٣٣٣٨).



كنت أصيبها منك، ولكن أبكي على العلم والإيمان الذين كنت أتعلمهما منك! فقال: إن العلم والإيمان مكانهما من ابتغاهما وجدهما فاطلب العلم عند أربعة، فإن أعياك العلم عند هؤلاء فليس هو في الأرض، فاطلبه من معلم إبراهيم»[1].

سابعاً: صدق الرَّغبة في الانتفاع بما لسور القرآن من الفضائل.

روي عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ سورةً من القرآن، ثلاثون آية شفعت لرجلٍ حتى غُفر له، وهي: سورة تبارك الذي بيده الملك»[2].

قال أبو الوليد الباجي: «قَوْلُهُ: إنَّ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ تُجَادِلُ عَنْ صَاحِبِهَا، قِيلَ: مَعْنَاهُ تُجَادِلُ عَنْهُ فِي الْقَبْرِ، رَوَى زَادٌ أَنَّ بْنَ مَسْعُودٍ قَالَ: هِيَ الْمَانِعَةُ تَمْنَعُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، إذَا تُوُفِّيَ الرَّجُلُ يُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ فَتَقُولُ رِجْلَاهُ: إنَّهُ لَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَى مَا قِبَلِي، إنَّهُ قَدْ وَعَى بِي سُورَةَ الْمُلْكِ، وَيُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: وَاَللَّهِ لَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَى مَا قِبَلِي، إنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ الْمُلْكِ، قَالَ: وَهِيَ فِي التَّوْرَاةِ مَكْتُوبَةٌ: سُورَةُ الْمُلْكِ، مَنْ قَرَأَهَا فِي لَيْلَةٍ فَقَدْ أَكْثَرَ وَأَطْنَبَ، وَقَوْلُهُ: فَيَقُولُ بَطْنُهُ وَهِيَ فِي سُورَةِ الْمُلْكِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ بَاطِنَ ظَهْرِهِ، فَيَدْخُلَ فِيهِ الصَّدْرُ وَغَيْرُهُ لِأَنَّ الصَّدْرَ هُوَ الَّذِي حَوَى السُّورَةَ، وَهُوَ نَحْوُ قَوْلِ الرَّأْسِ إنَّهُ قَدْ قَرَأَ فِي سُورَةِ الْمُلْكِ وَإِنَّمَا قَرَأَهَا بِالْفَمِ لَكِنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ الرَّأْسِ[3].

---

(١) العقود الدرية ص٤٣.

(٢) سنن الترمذي (٢٨٩١).

(٣) المنتقى شرح الموطأ للباجي ٤٨٩/١ (٤٣٦).



أفلا يجدر بمن كان ذلك وصفه، وتلك ثمرته، أن نتدبره؟ وأياً ما كان فإذا كانت الرغبة في الانتفاع صادقة، دفعت إلى التدبر والعمل لزاماً.

ثامناً: اختيار الوقت والمكان المناسبين للقراءة.

بما يعين على حضور القلب وصفاء الذهن.

فيالله ما أحلاها وألذَّها قراءةُ الإمام في صلاة الفجر! ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (الإسراء: ٧٨)، حتى إنه ليحمل العبد همَّ الخروج من تلك النعمة العظيمة التي لا تضاهيها نعمة، والتي تستوجب من العبد الشكر عليها إذ حُرمها الكثيرون.

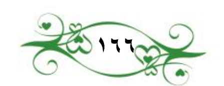
أما الذي لا يعطي القرآن إلاّ فضول الأوقات، ولحظات الترقب والانتظار! فجدير أن لا تخلص إلى قلبه كثير من معانيه، والله المستعان.

تاسعاً: حفظ ما تيسَّر من القرآن.

فإنَّ من كانت الآياتُ في صدره، سهُلَ عليه الإكثارُ من تأمُّلها وتدبرها، إضافةً إلى ما مر معنا من فضائل عظيمةٍ لحفظ القرآن الكريم، وقد قال الله تعالى عن كتابه: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ (العنكبوت: ٤٩)، ومن صفة أمة محمد ﷺ عند الأمم المتقدمة، التي يغبطونهم بها: أناجيلهم في صدورهم يقرؤونها[1]! والحفظ يساعد على جمع القلب على التدبر، ويساعد على القراءة في كل الأحوال، فحري أن نعتني به.

---

(١) انظر تفسير الطبري ٤٥٢/١٠ (١٥٢٠٢).



عاشراً: تكرارُ الآيات المقروءة والتفكر في دلالاتها وسياقها.

فعلى القارئ أن يقف أمام الآية التي يقرؤها وقفة متأنيةً، ثمّ يلقي نظرة تفصيلية في سياق الآية، فإنَّ هذا أدعى لتقليب الفكر والنَّظر فيها، من المرور عليها مرةً واحدة، والانتقالِ لما بعدها، قال ابن القيم: «قراءة آيةٍ بتفكُّر وتفهُّم خيرٌ من قراءةِ خَتمةٍ بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن»[1].

حادي عشر: استماعُ القرآن من غيره.

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «قال لي النَّبيُّ ﷺ: اقرأ عليَّ! قلت: آقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: فإني أحبُّ أن أسمعه من غيري! فقرأت عليه سورة النساء، حتى بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾، قال: أمسِك، فإذا عيناه تذرفان»[2].

ثاني عشر: القراءة المتمهِّلة المترسِّلة.

قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ (المزمل: ٤)، قال ابن كثير: «أي: اقرأه على تمهُّل، فإنَّه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره»[3].

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/١٨٧.

(٢) متفق عليه: البخاري (٤٧٦٣)، ومسلم (٨٠٠).

(٣) تفسير ابن كثير: ٨/٢٥٠.



ثالث عشر: الاجتهادُ في التّحلّي بالخلق القرآنيِّ.

والعمل على الائتمار بما ورد فيه من الأوامر، والانتهاء عمّا ورد فيه من الزّجر، وحمل النفس على ذلك، فكثير من الأخلاق الفاضلة إنما تكون بتعويد النفس عليها، ومجاهدتها حتى ترتاض، وهذا أمر مهم ينبغي أن نتفطن له، فبعض الناس يظن أنه بفتحه دفتي المصحف، وجلوسه أمامه، سينبعث منه شعاع سحري يغير حاله! وليس كذلك بل لابد من المجاهدة وحمل النفس على التزام كتاب الله تعالى، فإن فعلنا فلنبشر بالعاقبة، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

رابع عشر: الاستناد في فهم معاني القرآن على أحد التفاسير.

وذلك لأن التفسير يساعد على التدبر، وكلما كان علم المرء بكتاب الله أتم، كان تدبره له أكمل، فعلى من رام تدبر الكتاب العزيز أن يطالع التفاسير، وبعض الناس يذهب أولاً إلى تفاسير تعنى بالدقائق اللغوية، والنكت البيانية، على تخليط فيها، وما هكذا تنال العلوم! بل بالتّدرج فيها شيئاً فشيئاً، فيبدأ بتفسير من أخصر التفاسير وأيسرها، إلى ما هو أكثر تفصيلاً.

خامس عشر: استغلال الأوقات السانحة في القراءة والتدبر.

مع أهمية ترتيب وقت للقراءة، ومع أهمية مراعاة الوقت المناسب والمكان الملائم، مع ذلك كله ينبغي أن يهتبل المسلم ساعات الفراغ، ويملأ لحظات الخلوة بخير الذكر، ما أمكن ذلك، أما إذا وجد قلبه مشغولاً، فليشتغل بما هو أنفع له وأخف على نفسه من الذكر أو الدعاء، أو المطالعة، فالأصلح هو الأولى.



لكن بعض المحرومين يرتب له برنامجاً ثم ينشغل عنه بأدنى الأشغال العارضة! ثم إذا سنحت له فرصة أهدرها فيما لا ينفع، وحري بك أخا الإسلام أن تستزيد من الخير متى أمكن وقد قيل:

إذا هَبَّت رياحُكَ فَاغتَنِمها ... فَعُقبى كُلُّ خافِقَةٍ سُكونُ
وَلا تَغفَل عَنِ الإحسان فيها ... فَما تَدري السُكونُ مَتى يَكونُ
وَإِن دَرَّت نِياقُكَ فَاحتَلِبها ... فَما تَدري الفَصيلُ لِمَن يَكونُ

سادس عشر: التدرج والتدريب على التدبر.

فقد يبدأ بتدبر آية، يحاول أن يقف معها، يتفهم دلالاتها، وينظر أين هو منها؟ ثم بعد الآية آيات، ثم سورةً.. وهكذا.

فالتدرب على التدبر مهم جداً، وبخاصة إذا كان تحت إشراف معلم يحسن التدبر، فيعرض له ما توصل إليه في تدبره من المعاني، فيقوم عمله ويصوب استنباطه، حتى يكون من المتدبرين على أصول صحيحة معتبرة.

سابع عشر: التدارس مع زملائه.

فتدارس القرآن مع الزملاء، وبحث الفوائد، وما خلص إليه المرء جراء التدبر، كتدارس العلم يُفَتِّح الآفاق، ويثري ملكة التدبر، ويصحح الخطأ، ولعل هذا يشهد له قوله ﷺ: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السَّكِينة، وغَشيتهم الرَّحمة وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[1]، فالتدارس يختلف عن التلاوة

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).



ويشمل التفسير والتدبر، والحث عليه يفهم من هذا الحديث ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاس، وكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ فَلَرَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ[1].

فالمدارسة من أهم أسباب تنمية ملكة التدبر على أصول صحيحة، وقوتها العلمية بقوة من تدارسه، وآثارها العملية بحسب حاله، فالقرين يتأثر بالقرين ويقتدي به، فاختر الرفقة التي تعينك على مدارسة القرآن علماً وعقلاً، وتعينك على العمل به.

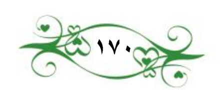
٢. موانع التدبر.

موانع التدبر كثيرة، ومن أهمها:

أولاً: أولى موانعِ تدبُّر القران أمراضُ القلوب.

من الرّياء والحسد والغِلِّ والحقد، ولهذه الأدواء أثر عظيم، يحجب القلب ويمنعه التلذذ بالقرآن والتدبر لآياته، ومما يدل على هذا المعنى أنّ رسول الله ﷺ، قد هيئ لتلقِّي القرآن الكريم، بأن استُخرج من صدره حظُّ الشَّيطان، وذلك كما روى عبدُ الله بن الإمام أحمد، عن أبيّ بن كعب: «أن أبا هريرة كان جَريًّا على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيرُه، فقال: يا رسول الله، ما أولُ ما رأيتَ من أمر النّبوة؟ فاستوى رسولُ الله ﷺ

(١) صحيح البخاري (٥).



جالساً، وقال: لقد سألتَ يا أبا هريرة، إنِّي لفي الصحراء ابنُ عشر سنين وأشهر، وإذا بكلامٍ فوق رأسي، وإذا رجلٌ يقول لرجل: أهو هو؟ قال: نعم! فاستقبلاني بوجوهٍ لم أرها لخلقٍ قط، وأرواحٍ لم أجدها من خلقٍ قط، وثيابٍ لم أرها على أحد قط. فأقبلا إليَّ يمشيان، حتى أخذ كلٌّ واحدٍ منهما بعَضُدي، لا أجد لأحدهما مسّاً، فقال أحدهما لصاحبه: أضجِعه، فأضجعاني بلا قَصْر ولا هَصْر، فقال أحدُهما لصاحبه: افلِقْ صدره! فهوى أحدُهما إلى صدري، ففلقه فيما أرى بلا دمٍ ولا وجعٍ، فقال له: أخرج الغِلّ والحَسَد، فأخرج شيئًا كهيئة العلقة ثمَّ نبذها فطرحها، فقال له: أدخِل الرأفة والرحمة، فإذا مثلُ الذي أخرج شبهُ الفضة، ثم هزَّ إبهام رجلي اليمنى، فقال: اغدُ واسلم، فرجعتُ بها أغدو، رقةً على الصَّغير، ورحمةً للكبير»[1].

ونقل بعضهم عن البخاري في قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة: ٧٩)، حيث قال: أي لا يذوق نفعَه ولا يتأثَّر به، إلا المطهَّرون من الأرجاس، والمقصودُ هنا طهارةُ القلب، وذكروا أن بعض الشراح شرحه بقوله: بمقدار طهارة قلب المؤمن يكونُ أثر القرآن عليه.

ولم أقف عليه ولا أظنه الآن يصح عن البخاري، وهو تفسير إشاري قد يحمل على وجه صحيح، يفسر عدم انتفاع كثيرٍ من الناس بالقرآن رغم قراءته، فالإناء – وهو القلب – ليس خالصاً ولا مطهراً ولا مهيأً لقراءة

---

(١) انظر تخريجه في السلسلة الصحيحة (١٥٤٥).



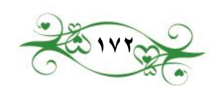
القرآن، فاستحضر هذا المعنى وانظر إذا شئت إلى حال المصلِّين خلف الإمام؛ فمنهم من يتفكر ويتدبر، ومنهم من يخضع ويخشع، ومنهم من يبكي، ومنهم من لا يدري ماذا يسمع، ومنهم والعياذ بالله من يضيق صدره بما يسمع، إذن، فاجتهد يا أخي في إعداد الوعاء الّذي ستعي به هذا القرآن، ألا وهو قلبك، فاجتهد أن يكون طاهراً من الأرجاس والأدناس، وقد فُسر قوله تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ (المدثر: ٤)؛ أي: قلبك[١].

ثانياً: الإعراض عن تلاوة القرآن.

فالتلاوة مفتاح التدبر ومقدمته، وهذا الإعراض قد يكون بسبب انشغال المرء بدنياه عن آخرته، وقد يكون بسبب انشغاله بشيء من أمور الآخرة كطلب العلم والدعوة إلى الله وغير ذلك، ومهما كانت الأسباب فلا شك أنَّ من أعرض عن تلاوة القرآن الكريم قد غبن نفسه وحرمها من خير كثير، ولا شك كذلك أنَّ إعراضه هذا استزلال من الشيطان له ببعض ما كسب، حتى وإن كان السبب هو الانشغال بالدعوة أو العلم، فإنَّ الشيطان إن عجز عن صرف العبد عن طاعة الله عز وجل بالكلية، صرفه عن فاضلها إلى مفضولها، ولا نعني بذلك أن طلب العلم والدعوة إلى الله مفضولة عن التلاوة في كل حال ووقت، ولكنها تكون كذلك في الوقت الذي ينبغي أن يكون لتلاوة القرآن الكريم، فلا بد أن يكون للمرء حزبه الذي يتعاهد فيه القرآن تلاوة وتدبراً،

---

(١) انظر تفسير ابن كثير للآية ٨/٢٦٣، نقله عن سعيد بن جبير وغيره.



كما كانت حال سلف هذه الأمة، ثم إن من أجلِّ العلمِ العلمَ بكتاب الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ (العنكبوت: ٤٩).

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (فصلت: ٢٦، ٢٧)، وكيف تواصى هؤلاء فيما بينهم بعدم الاستماع له والتشويش عليه وعدم تأمل ما فيه فاستحقوا العذاب الشديد، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٣، ٢٠٤)، وكيف جعل الرحمة بالقرآن للذين يؤمنون به، ثم انظر كيف علق تحقق الرحمة بنقيض فعل الأولين أي بالاستماع والإنصات، ثم تأمل كيف فرق بين الاستماع والإنصات، فالاستماع هو عدم الانشغال عنه بغيره أثناء القراءة، والإنصات هو التفكر والتدبر فيما يُقرأ، فإن حقق المؤمن ذلك تحققت الرحمة.

وشبيه بهذا وعد النبي ﷺ بقوله: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[1].

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٩٩).

فلا بد أن يضم المؤمن إلى جانب إيمانه بالقرآن إقبالاً عليه بالتلاوة والاستماع والتدبر والتفكر والعمل والتحكيم، أما أن يكتفي بأصل الإيمان به ثم يهجره كما هجر أهل الكتاب كتبهم، فأي خير يرجوه العبد من وراء ذلك؟ وتجاوز هذه العقبة إذن يكون بتعريف الناس بما للتلاوة من فضل، ببيان ثوابها الذي أعدَّه الله للتَّالين كتابه، والترغيب في هذا الثواب، وأنه لا يعدله شيء من متاع الدنيا وزينتها، وكذلك بيان حال النبي ﷺ وأصحابه الكرام والصالحين من هذه الأمة عبر القرون مع القرآن شحذاً للهمم وتقوية للعزائم، وكذلك تبصير أهل الخير بمكايد الشيطان ليقدموا ما حقه أن يقدم ويؤخروا ما حقه أن يؤخر.

ثالثاً: الانشغال بالتلاوة أو الحفظ عن التدبر.

بحيث يكونُ كلُّ همِّ الإنسان أن يستكثر من التلاوة أو الحفظ، دون أن يُلقي بالاً لتدبر ما يقرأ، وهو الأمر الملاحظ في جل حلقات التلاوة وتحفيظ القرآن المباركة، فالإقبال الكبير على التلاوة والحفظ لا يُقابله ذلك الاهتمام بالتدبر أو معرفة التفسير، حتى إنَّنا نجد من الطلاب من يحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، لكنه لا يعرفُ معنى كلماتٍ في قصار السُّور، التي يبدأ عادة في تحفيظها للأطفال.

وتجاوز هذه العقبة، يتمثل في تعريف التالين بأهمية التدبر وحكمه، وقد مر معنا شيء من الكلام على أهميته، أما حكمه فقد ذهب بعض أهل العلم



إلى وجوبه، قال الشَّوكانيُّ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢)، قال: «دلت هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (محمد: ٢٤) على وجوب التدبر للقرآن؛ ليعرف معناه»[1]، والذي يظهر أن التدبر درجات، فمنه الواجب، ومنه ما يندب إليه، ومما يُعين التَّالين على التدبر أن يتعرفوا إلى كلام السلف الصالح وذمهم الشديد لمن انشغل بالتلاوة عن التدبر، وقد مر في أثناء الرسالة ذكر شيء من ذلك.

رابعاً: ما يدَّعيه بعضهم من أن فهم القرآن الكريم وتدبره، لا يقدر عليه كلُّ أحد.

وإنما هو للمتخصِّصين فقط، ولا شكَّ أنَّ هذا تلبيس من الشيطان، إذ فيه حقٌّ وباطل، أما الباطل فهو أنَّ هذا ليس في كلِّ القرآن، فإن فيه ما هو واضح جليٌّ لكل أحد، ولو على سبيل الإجمال، كما قال الصنعاني: «فإن من قرع سمعه قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ﴾ (البقرة: ١١٠)، يفهم معناه، دون أن يعرف أن (ما) كلمة شرط، و (تقدموا) مجزوم بها لأنه شرطها، و(تجدوه) مجزوم بها لأنه جزاؤها، ومثلها: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ﴾ (آل عمران: ٣٠)، ومثلها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ﴾ (النحل: ٩٠)، يفهم الكل ما أريد منها من غير أن يعرف أسرار العلوم العربية، ودقائق القواعد

---

(١) فتح القدير: ٧٤١/١.



الأصولية، ولذا ترى العامة يستفتون العالم ويفهمون كلامه وجوابه، وهو كلام غير معرب في الأغلب، بل تراهم يسمعون القرآن فيفهمون معناه ويبكون لقوارعه وما حواه، ولا يعرفون إعراباً ولا غيره مما سقناه! بل ربما كان موقع ما يسمعون في قلوبهم أعظم من موقعه في قلوب من حقق قواعد الاجتهاد، وبلغ غاية الذكاء والانتقاد، وهؤلاء العامة يحضرون الخطب في الجمع والأعياد ويذوقون الوعظ ويفهمونه، ويفتت منه الأكباد، وتدمع منه العيون، ويدركون من ذلك ما لا يدركه العلماء المحققون، ويسمعون أحاديث الترغيب والترهيب فيكثر منهم البكاء والنحيب، وأنت تراهم يقرؤون كتباً مؤلفةً من الفروع الفقهية؛ كالأزهار للهادوية، والمنهاج للشافعية، والكبير للحنفية، ومختصر خليل للمالكية، ويفهمون ما فيها، ويعرفون معانيها، ويعتمدون عليها، ويرجعون في الفتوى والخصومات إليها، فليت شعري! ما الذي خص الكتاب والسنة بالمنع عن معرفة معانيها، وفهم تراكيبها ومبانيها، والإعراض عن استخراج ما فيها؟! حتى جعلت معانيها كالمقصورات في الخيام! قد ضربت دونها السجوف، ولم يبق لنا إليها إلا ترديد ألفاظها والحروف، وإن استنباط معانيها قد صار حِجراً محجوراً، وحرماً محرماً محصوراً»[1]!

وهكذا شأنُ كثيرٍ من الآيات، فـ(إنَّ فهمَ الوعد والوعيد والترغيب والترهيب والعلم بالله واليوم الآخر لا يشترط له فهم المصطلحات العلمية الدقيقة من نحوية وبلاغية وأصولية وفقهية)[2].

---

(١) إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد، للصنعاني ص١٥٩ ـ١٦٠.

(٢) مفهوم خاطئ لمعنى التدبر، بقلم د. خالد اللاحم.



كان ذلك هو الباطل أما الحق في هذه العقبة فهو أن مِن الآيات ما يخفى معناه على كثيرٍ من الناس، ولا يعرفه إلا أهل العلم، لكنَّ الصواب لا يكون بترك التدبر ومحاولة الفهم، بل كما قلنا سابقاً: أنَّ الإنسان العاديَّ إن ظهر له بتدبره معنىً ما، فليس له أن يُشيعه أو يفسر به القرآن، بل عليه أن يتأكّد من عدم مخالفته لما فسر به أهل العلم، وحسب المتدبر أن يعمل بما ظهر له مما قد علمه، وإلا فقد يقع في مزالق عظيمة لم يسلم منها أهل الأهواء.

خامساً: ما يدعيه بعض الناس من خطورة تدبر القرآن الكريم!

يقول الوزير العابد العادل ابن هبيرة الحنبلي رحمه الله: «من مكايد الشيطان: تنفيرُه عباد اللّه من تدبر القرآن؛ لعلمه أنَّ الهدى واقع عند التدبر، فيقول: هذه مخاطرة، حتى يقول الإنسان: أنا لا أتكلم في القرآن تورُّعاً»[1]، وبعضهم يعبر عن ذلك بقوله: «من تعمَّق كفر»، ولا شك أن هذه العبارة إن صدقت فإنما تصدق على من يتدبر مبتغياً معاني باطنيَّة لا يدلُّ عليها لفظ القرآن الكريم من قريب أو بعيد، كحال بعض الفرق الضالَّة وحال بعض الزنادقة ومثل هذا لا يسمى متدبراً لكتاب الله أصلاً! أما من يتدبر القرآن طالباً الهدى منه فحري به أن يرشد، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَى مِنْهُ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ»[2]، وهل أنزل القرآن إلاّ ليتدبر فكيف يضل قوم تدبروا ما أرسل الله به رسله إليهم! واتبعوا ظاهر ما جاءهم من ربهم الذي خاطبهم بما يعقلون، وأرشدهم إلى ما يمكنهم.

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ١/١١١.

(٢) العقيدة الواسطية، انظر المجموع ٣/١٣٧.



سادساً: حجةٌ بائسة.

يُردِّدها بعض الجهال، حيث يرونَ ما هم فيه من جهلٍ خيرٌ من معرفة ما خفي عليهم، مما يستلزم منهم العمل بما علموا، ونسي هؤلاء أنَّ جهلهم بما يجب عليهم مع القدرة على التعلم يُوقعهم في الإثم، وأنَّ علمهم ومن ثم عملهم بما عملوا يقربهم من الله ويضاعف أجورهم ويرفعهم في الجنة درجات، فأنى يكون ما هم فيه خيرا! وإنما يعذر بالجهل من لم يقصر في التعلم، أما المقصر كالمعرض فهو مؤاخذ بجهله، محاسب على إعراضه، بل إن من أنواع الكفر الذي استشرى في أمم الأرض كفر الإعراض، وترك المرء الحقَّ لا يتعلمه ولا يعمل به، سواء كان قولاً أو عملاً أو اعتقاداً من ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ (الأحقاف: ٣)، فمن أعرض عما جاء به الرسول بالقول كمن قال لا أتبعه، أو بالفعل كمن أعرض وهرب من سماع الحق الذي جاء به، أو وضع أصبعيه في أذنيه حتى لا يسمع، أو سمعه لكنه أعرض بقلبه عن الإيمان به، وبجوارحه عن العمل فقد كفرَ كُفْر إعراض، نعوذ بالله من كفر الإعراض، ومن المعاصي الناشئة عن الإعراض.





الفصل الثّالث:
ثمرات التّدبّر وآثاره

مقدمة: من التّدبر إلى العمل.

إنَّ العلاقة بين التلاوة – أو الاستماع – والتدبر والعمل علاقة وثيقة، فالتدبر مرحلة متوسطة بين التلاوة والعمل، لأنه لا يتم إلا بعد التلاوة في الغالب أو الاستماع في بعض الأحيان، والغاية من التدبر إنما هي العمل؛ عمل القلب: بالإيمان والمعرفة ولوازمهما من الخضوع والخشوع والتأثر، وعمل اللسان والجوارح: بإتيان أوامر الله ومحابه، واجتناب نواهيه ومساخطه، فتدبر القرآن هو أساس العمل به وتحكيمه وتعظيمه، ولا يمكن للأمة أن تعبر إلى تلك المراحل العملية من التطبيق والعمل والتحاكم وغيرها إلا عبر جسر التدبر.

أما من تدبر آيات الكتاب ولم يعمل بها فقد جعلها حجة عليه والعياذ بالله، فلا يزداد بهذا التدبر إلا بعداً من الله، ووصف هذا الفعل من صاحبه بالتدبر محل نظر أصلاً، إذ التدبر ليس مجرد إعمال فكر في الآيات ومعرفة معانيها، بل كما نقلنا عن ابن السعدي رحمه الله: «التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي



مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك»[1]، فمن لم يأتِ بهذه اللوازم كان فعلُه هذا تأمُّلاً وتفكُّراً لكنه قصر عن حد التدبر، وأما من اكتفى بقراءته أو حفظ حروفه فحسب فهو أبعد من الأول عن التدبر، ولهذا – والله أعلم – قال الحسن البصري رحمه الله: «والله ما تَدَبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إنَّ أحدهم ليقول: قرأت القرآن كلَّه، ما يُرى له القرآنُ في خُلُق ولا عمل»[2].

وأما الاكتفاء بالتلاوة – وإن كانت مع نظر وتأمل – دون عمل فمصيبة عظيمة، وكسر لا ينجبر، وفيه تشبه باليهود الذين عابهم الله عز وجل، ومثل لهم بأقبح مثال لما كانت هذه حالهم مع التوراة، قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الجمعة: ٥)، قال ابن كثير: «يقول تعالى ذامّاً لليهود الذين أُعطوا التوراة وحُمِّلوها للعمل بها، فلم يعملوا بها، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً، أي: كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملاً حسياً ولا يدري ما عليه. وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه، حفظوه لفظاً ولم يفهموه ولا عملوا بمقتضاه»[3].

وكذلك ذكر الطبري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

---

(١) تفسير السعدي: ١٨٩، ١٩٠.

(٢) تفسير ابن كثير: ٦٤/٧.

(٣) تفسير ابن كثير ١١٧/٨.

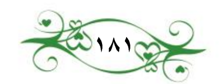
﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾ (البقرة: ١٢١) قولين؛ الأول أن معناه: يتبعونه حق اتباعه، والثاني أن معناه: يقرؤونه حق قراءته، واختار رحمه الله الأول وقال: «لإجماع الحجة من أهل التأويل على أنَّ ذلك تأويله»(١)، ولئن كان هذا في حقِّ أهل الكتاب، فأهل القرآن أحقُّ بذلك وأولى.

وقد أنكر سلفنا الصالح رحمهم الله على من اكتفى بالتِّلاوة ولم يُتبعها بالعمل، قال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «يا حملةَ القرآن — أو يا حملةَ العلم ـ اعملوا به، فإنَّما العالمُ من عمل بما علم ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يُجاوز تراقيَهم، يخالف عملُهم علمَهم وتخالف سريرتُهم علانيتهم»(٢)، وقال الحسن البصري رحمه الله: «أُمِر الناس أن يعملوا بالقرآن فاتخذوا تلاوته عملاً»(٣)، وقال أيضاً كما مر معنا: «إنَّ هذا القرآنَ قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، ولم يتأولوا الأمر من أوله، قال الله عزوجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وما تدبُّر آياته إلا اتباعُه، والله يعلم، أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قد قرأت القرآن كله فما أسقط منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، ما ترى القرآن له من خلق ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نفَسٍ واحد، والله ما هؤلاء بالقراء ولا الحكماء ولا الورعة، متى

(١) تفسير الطبري ٢/٥٦٩.

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن ١/١٣.

(٣) مدارج السالكين ١/٤٥١.



كانت القراء تقول مثل هذا؟ لا أكثر الله في الناس مثل هؤلاء»[1]، وقال الحسن بن علي رضي الله عنه: «اقرأ القرآن ما نهاك، فإذا لم ينهك فلست تقرؤه»[2].

ومن ناحيةٍ أخرى، فإنَّ أمتنا اليوم تعيش وقتاً حرجاً ومرحلة حاسمة من تاريخها، خاصة بعد الغزو الغربي لأمة الإسلام، وعودة عصور الاستعمار، التي خلت، فبعد أن رزحت الأمة تحت وطأة الاستعمار عقوداً دُرِسَت فيها معالم من علم الشريعة، كانت لا تخفى بين الناس، بدأت آثار الاستعمار تنحسر بقيام الصحوة الإسلامية المباركة في المشارق والمغارب، فلم يجد الأعداء بُدّاً من إعادة الكرّة للحيلولة بين الأمة وبين نهضتها التي ترتكز على القرآن دستوراً ومنهجاً.

ولذا فإنّ من أعظم آثار تدبّر القرآن: ربط واقع الناس بالقرآن والسنة، لما لهما من أثر على حياة الفرد والأمة، خاصة وأن الأمة تعيش وهناً وضعفاً لم تمر بمثله في تاريخها، وكلّنا يبحث عن العلاج والعلاج في القرآن: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء: ٩)، وكلنا يرجو السلامة والنجاة من مضلّات الفتن التي تتتابع، والنجاة في القرآن، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «تَركْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ»[3].

وإنما تصلح الأمة بصلاح أفرادها، لذا فإنّنا في هذا الفصل سنتتبّع بإذن

(١) أخلاق حملة القرآن للآجري ٣٩/١.

(٢) فضائل القرآن للقاسم بن سلام ١٥٠/١.

(٣) الموطأ (٣٣٣٨).



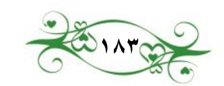
الله تعالى آثار القرآن الناتجة من تدبّره، والمنعكسة على حياة الفرد، بجوانبها المختلفة، ثم تلك الآثار المنعكسة على حياة الأمة الإسلامية صحوتها من سباتها ونهضتها.

فرغد الحياة في كتاب الله جلَّ وعلا يومَ نعيش معه، ومعالجة مشكلات الحياة في ضوء القرآن الكريم من أقوى وسائل الخروج منها يوم نقبل على القرآن متدبرين، ولا سبيل إلى رُقِي الأمة، والعود بها إلى سابق عهدها، الذي كان يعيشه السلف الصالح رضوان الله عليهم بغير تدبر كتاب ربنا وكلامه الذي أنزله لإصلاح شأننا.

أولاً: ثمرات تدبّر القرآن على صعيدِ بناء الفرد المسلم.

يهتمُّ الإسلام ببناء الفرد المسلم اهتماماً كبيراً، وبالتالي يجعل من صلاحه قاعدةً لبناء الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم، وأساساً لنهضة الأمة الإسلاميّة كلّها.

بل: إنّ تحكيم القرآن والسنة، الّذي هو واجبٌ من أوجب الواجبات، إنما يجب ابتداءً على الأفراد، وكثير من الناس يتصور بأنّه خاصّ بالدول، لا، بل هو يجب على الأفراد من باب أولى، فيجب علينا أن نواجه أنفسنا: هل نحن نُحكّم القرآن في علاقاتنا مع ربّنا سبحانه وتعالى، مع أنفسنا، مع زوجاتنا، مع أولادنا، في بيوتنا؟ أليس يوجد في بيوتنا ما يتعارض مع القرآن والسنة، من قنوات فضائية غير شرعيّة، وما إلى ذلك من وسائل الاتصال غير المنضبط؟ وفي علاقاتنا مع جيراننا، هل أدينا حقوق الجار؟ وفي علاقاتنا الاجتماعية



عموماً، وفي علاقاتنا التجارية ومعاملاتنا؟ كلّ هذه الأمور يقع على عاتق الفرد المسلم مهمة إقامة حكم الله عزّ وجلّ فيها!

ومّما يؤكّد ذلك أنّ تدبُّر القرآن، وهو الغاية العظمى من نزول القرآن كما رأينا، إنّما يقوم به الفرد المسلم، بصورةٍ جوهريّة، لا تقومُ به الجماعةُ، إلا من باب المدارسة والتّواصي بين أفرادها والتّعاون على البرّ والتّقوى؛ وبناءً على ذلك فإنَّ ثمراتِ التّدبّر في القرآن وآثاره، إنّما تنعكسُ أساساً على حياة الفرد المسلم، ابتداءً من تقرّرها في قلبه، ثمّ انعكاسها على أخلاقه وسلوكه، وعلى وعيه وعقله ومعرفته، ومن ثمّ انعكاسها على واقع حياته، وعلى مصيره في الآخرة.

وبناءً على ذلك نتناولُ في هذا المبحث المسائل الآتية:

١. ثمرات تدبّر القرآن وآثارها على قلب المسلم.

٢. ثمرات تدبّر القرآن وآثارها على خلق المسلم.

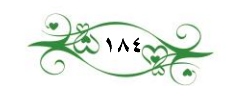
٣. ثمرات تدبّر القرآن وآثارها على وعي المسلم وإدراكه.

٤. ثمرات تدبّر القرآن وآثارها على واقع حياة المسلم.

٥. ثمرات تدبّر القرآن وآثارها على مصير المسلم في الحياة الآخرة.

١. ثمرات تدبّر القرآن وآثارها على قلب المسلم.

ثمرات تدبّر القرآن وآثاره تترتّب على المسلم، من خلال قلبه، وما أجمل كلام الإمام البخاري رحمه الله في قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة: ٧٩)، حيث قال: «أي: لا يذوق نفعَه ولا يتأثّر به، إلا المطهَّرون من الأرجاس»، والمقصودُ هنا طهارةُ القلب، وشرحه ابنُ حجر بقوله: «بمقدار طهارة قلب المؤمن يكونُ أثرُ القرآن عليه».



وهذا معنىً تدبريٌّ بديع وجميل، وهو يُعطي تفسيراً لما نراه من عدم انتفاع كثيرٍ من الناس بالقرآن رغم قراءتهم له وتلاوته، فالإناء -وهو القلب- ينبغي أن يكون خالصاً ومطهراً ومُهيَّأً لقراءة القرآن.

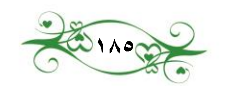
ونقف الآن عند بعض الآثار والثمار الطّيّبة، لتدبّر القرآن على قلب المؤمن، فنذكر منها:

أ: طهارة القلب وتزكيةُ النّفس.

لقد مرّ بنا قولُ ابن حجر رحمه الله أنّه: «بمقدار طهارة قلب المؤمن، يكونُ أثرُ القرآن عليه»، أمّا إذا لم يكن قلبُ المؤمن طاهراً، فستكونُ أولى ثمرات تدبُّر القرآن هي العملُ على تزكية هذا القلب وتطهيره، وذلك بطريقين:

أولاً: بالحثِّ على أن يجتهدَ المسلم في تزكية نفسه وتطهيرها: وقد ورد في ذلك آياتٌ قرآنيّة عديدة، تؤكد أهمّيّة تزكية النّفس وطهارة القلب، وأقف معكم منها عند سورةٍ من جزء عمَّ، تبتدئ بأطول قَسَمٍ في القرآن، إنّها سورة الشّمس: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ (الشمس، الآيات: ١ -٨)، يُقسم الله عزّ وجلّ في هذه السورة بأحدَ عشر قسماً، واللهُ لا يُقسم بقسمٍ إلا في شأن عظيم جداً، فما بالُكَ إذا كانت أحدَ عشر قسماً؟

فما ذاك الأمرُ العظيمُ الّذي سيأتي جواباً لهذه الأحدَ عشر قسماً؟ إنّه قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس: ٩، ١٠)!



إنّه توكيدُ الفلاح في الدُّنيا والآخرة، لمن زكّى نفسه، وإثباتُ الخيبة والبوار لمن دسّاها!

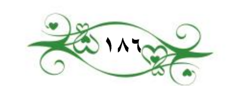
ثانياً: بالتّأثير المباشر لتلاوة القرآن المتدبّرةِ على القلب، على نحو ما يُشير إليه قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٥١) حيثُ قدَّم التزكية على تعليم الكتاب والحكمة، مما يدلُّ على أهمية التّزكية، فمعايشةُ القران والعملُ بالقرآن تزكيةٌ للنُّفوس وتطهيرٌ لها، على نحو ما مرَّ بنا في المباحث السابقة.

ب: الاستشفاءُ من أمراض القلوب والعلل النّفسيّة.

والاستشفاء بالقرآن على نوعين:

- الاستشفاء بالقران من خلال التِّلاوة والرقية الشرعية.
- أو من خلال التَّدبُّر فقط، بدونما حاجةٍ إلى زيارة قارئٍ حافظٍ متخصّص في الرّقية الشرعيّة ليرقيَه!

وقد بدأ عددٌ من حاملي القرآن، يُعالجون الناس بالتّدبر، من خلال توجيه من يطلبون مساعدتهم إلى تدبّر القرآن، فيقولون لأحدهم مثلاً: اقرأ الآية الفلانية بتدبُّر! اقرأ السورة الفلانيَّة بتدبر! وبحمد الله دائماً ما يُقدّر الله الشفاء، خاصّةً إذا وُجد في المحلّ قابليّةٌ وإيمانٌ وتصديق، فالقرآن شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين، ولن أنسى شهادةً أدلى بها أحد المختصّين في الطّبّ النّفسيّ، وهو الدكتور أسامة الرَّاضي، قبل ثلاثين سنة، حينما كنت في الطائف، فدعوته



لإلقاء محاضرة في المعهد العلميِّ التابع لجامعة الإمام، وكان هو المسؤول عن مستشفى الأمراض النفسية في الطائف، ولم يكن في المملكة آنذاك غيرُ ذاك المستشفى، مختصّاً بالصحّة النّفسيّة، وقال الدكتور أسامة في محاضرته: أنّه منذ أن تولّى مهامَّ منصبه، جاءه أناس من جميع الأصناف والأشكال، موظفون ومعلّمون وتجار وفقراء، ... الخ، كلُّهم أتوا يطلبون الشفاء من عللٍ نفسيّة ألَّمت بهم، ولكن فئة واحدةٌ، لم يأتِني منهم أحد! من هم؟ قال: إنّهم أهل القرآن! ثم عقَّب قائلاً: ولماذا يأتيني أهلُ القرآن، وكنّا إذا عجزنا عن معالجة المريض بالأعشاب الطبيعية، والأدوات النفسية، ذهبنا به إلى أهل القرآن، وشُفي بإذن الله على أيديهم من شُفي، وهذا هو الواقع، وأذكر أنّ طالباً يُحضِّر الماجستير في مجال العلاج بالقران، وكنت أشرف على رسالته، ذهب إلى الدكتور أسامة ومكث عنده زمناً يعالجُ الناس بالقرآن، فشُفي على يديه بإذن الله أناس كثير!

ولا غرو، فالقرآن شفاء، كما يقول الله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾(الإسراء: ٨٢)، فكلُّ آيةٍ منه فيها شفاءٌ، ولكنّي أُنوِّه هنا خاصّةً بسورة النور، لأنَّ فيها قولَ اللهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لاحظُوا اقرؤوا تدبَّروا: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وأنت في الأرض فإن كانت في قلبك ظلمةٌ، فهذا معناه أنّ نورَ الله لّما يدخله بعد! قد حال بين نور الله وقلبك حاجزٌ معنويٌّ، مثل الحاجز المادّي الّذي يكون بين عينيك والمصحف، فيمنعها الرؤية، وعندئذٍ تسعى إلى إزالة هذا الحاجز، فحريٌّ بك كذلك أن تجتهد في إزاحة الحائل بينك وبين نور الله!

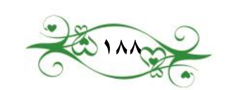


فالقراءة المتدبّرة لسورة النور، هي من أعظم الأسباب التي تؤدّي إلى تزكية النفس! إنّها كنزٌ والله عظيم! لكن حالُنا مع القرآن، حال إنسان بين يديه مستشفى من أرقى المستشفيات، فيه كلُّ الأطباء والتخصصات، ومع ذلك يغفل عنه، ويبحث عن الشّفاء في غيره مما لا علاقة بينه وبينه!

وثمّة قصةٌ عجيبة: أحدُ الأثرياء قدَّر الله عليه الإصابةَ بمرضٍ نفسيٍّ عصبيٍّ، فذُكِر له طبيبٌ أمريكيٌّ من أفضل الأطبّاء في العالم، فقطع تذكرة الطائرة واتجه صوب ذلك المستشفى، يقول: فلما وصلتُ المستشفى سألت عن الطبيب صاحب المستشفى! فقيل لي: إنّه في الحديقة، فذهبتُ إلى الحديقة، فإذا بي أجدُ هذا الطبيب الكافر والمرضى يجلسون أمامه على الكراسي، ومكبرات الصّوت مثبّتة في أشجار الحديقة، يصدر عنها صوت تلاوة القرآن! ثمّ بعد أن فرغوا، سألني عما أريده، فذكرت له أنّني أعاني من كذا وكذا، وقد أتيت أطلب العلاج منك! فتعجّب منيّ قائلاً: غير المسلمين أعالجهم بالقرآن، وأنت صاحب القرآن، تسألني عن العلاج! أما تستحي؟ يقول: فوالله استحيتُ فرجعت وأنا عازمٌ على معايشة القرآن ومدارسته!

ت: البكاء والخشوع.

إنّ البكاء والخشوع، ثمرةٌ لمعايشة القرآن المتدبّرة، ولقد مرَّ بنا من الشّواهد على ذلك، في حقِّ النّبيِّ ﷺ وأصحابه وأتباعهم ما يشفي ويكفي، ونُضيف إلى ذلك ما رُوي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: «أُنزلت:



﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (الزلزلة: ١)، وأبو بكرٍ الصديقُ قاعدٌ، فبكى حين أُنزلت، فقال له رسول الله ﷺ: ما يُبكيك يا أبا بكر؟ قال: يُبكيني هذه السُّورة»[١].

فهذا أبوبكر رضي الله عنه يبكي لسماع هذه السورة، دلالةً على وَقعِ ما سَمع في نفسه، وعظمته على قلبه، ولا يكون هذا التعظيمُ والتأثر إلا نتاجَ تدبر وتفكر فيما سمع من آي الذِّكر الحكيم.

أمّا الفاروق رضي الله عنه، فقد كان يُسمَع له نشيجٌ بالقراءة، كما روى عبدالله بن شداد بن الهاد الليثي، قال: سمعتُ نشيج عمر بن الخطاب، في صلاة الصبح وهو يقرأ من سورة يوسف، وأنا في آخر الصُّفوف، يقرأ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٢].

ثم عثمان رضي الله عنه:

من كانَ يسهرُ ليلةً في ركعةٍ   وتراً فيُكملُ ختمةَ القرآن

وعن قيس بن أبي حازم قال: كان عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه في حِجر امرأته فبكى فبكت امرأته، قال: ما يُبكيكِ؟ قالت: رأيتُك تبكي فبكيتُ، قال: إنِّي ذكرتُ قول الله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾، فلا أدري أنجو منها أم لا»[٣].

---

(١) شعب الإيمان، ٥/٤١٠، (٧١٠٣).

(٢) قال ابن حجر في تغليق التعليق ٢/٣٠٠: إسناده صحيح.

(٣) تفسير الطبري: ٨/٣٦٤.



وأورد ابن القيم رحمه الله خبر خروج الجيش إلى مؤتة، فقال: «فتجهَّز الناس وهم ثلاثة آلاف، فلما حضر خروجُهم ودع الناسُ أمراءَ رسول الله ﷺ، وسلَّموا عليهم، فبكى عبدُ الله بن رواحة، فقالوا: ما يبكيك؟ فقال: أما والله ما بي حبُّ الدنيا، ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آيةً من كتاب الله يذكر فيها النار: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ (مريم: ٧١) فلستُ أدري كيف لي بالصَّدَرِ بعد الوُرُوْد؟»[1].

فهذا ابنُ رواحة رضي الله عنه لما تأمل هذه الآية وتدبَّرها خشعت نفسه، ورقَّ قلبه، وفاضت عيناه، وهذا من تعظيمه لكلام الله وتأثره به.

أخيراً:

إن القرآن شفاءٌ، من كلّ الأدواء والعلل النّفسيّة، هذه حقيقةٌ نطق بها الذكر الحكيم، وأكدتها التجارب، وحذار من أن يعروك الشّكُّ فيما قرّره القرآن، فتقول: أريد أن أُجرّب، لا، فالقرآن ليس بيت عطارةٍ حتّى تجربه، فالجأ إليه وأنت موقنٌ بأنّه كلام الله، وأنّ فيه الشفاء بإذن الله تعالى، وستجد ما يذهلك، ويسر خاطرك.

ولنا أن نقارن بين كلٍّ من القرآن والعسل، من حيث كونهما شفاءً للناس، ففي القرآن يقول الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ

---

(١) زاد المعاد: ٣/٣٣٦.



لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (الإسراء: ٨٢)، لكنّه قال عن العسل: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ (النحل: ٦٩) أي: مؤمنهم وكافرهم! لماذا؟ لأن العسل جرم ومادةٌ، أمّا القرآن فهو شفاءٌ للمؤمنين خاصّةً، لماذا؟ اقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٩٧) لم يقل: نزّله على أذنك أو على بصرك أو على مصحفٍ، لا بل على قلبك، وبمقدار طهارته يكون أثرُ القرآن على الإنسان، أو كما قال عمر رضي الله عنه: «إنِّي لا أحمل همّ الإجابة، ولكن همّ الدعاء، فإذا أُلهمتُ الدعاء فإنَّ الإجابة معه»»[1].

٢. ثمرات تدبّر القرآن وآثارها على خلق المسلم.

أ. كان خُلقُه القرآن.

حديثنا عن خلق المسلم مع القرآن، إنما نصف فيه أعمالاً ظاهرة وباطنة يجب أو يحسن بالمسلم أن يلتزمها في تعامله مع كلام الله تعالى، وقد تكون تلك الأعمال لازمةً حال قراءته أو حال حفظه أو حال سماعه أو حال الاحتجاج به أو في غير ذلك من الأحوال.

وقد عقد أهل العلم فصولاً لبيان ذلك في كتب السنن وغيرها، بل ألفوا في خصال أهل القرآن مؤلفات مستقلة، تناولت ما يجب أن يتخلّقوا به، وما

---

(١) ذكره في اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٧٠٦.



يلزمهم من الآداب عند القراءة، فمن ذلك: كتاب الآجُرِّي أخلاق حملة القرآن، وكتاب الإمام النووي التبيان في آداب حملة القرآن، وقد ألَّف المعاصرون كثيراً من الكتب بحثوا فيها شيئاً مما سبق، فألف محمد عبدا لله دراز: من خلق القرآن، ووضع بعضهم موسوعة أخلاق القرآن، وألف آخر في أدب القرآن، إلى غير ذلك من المؤلفات التي أشارت لما يجب أن يتحلَّى به المسلم في تعامله مع كتاب الله تعالى، وإن تناولت ما حثَّ عليه كتاب الله تعالى من الأخلاق.

وذلك كلّه يُلخّصه بأوجز عبارةٍ وأدقّها، قول السيدة عائشة رضي الله عنها، لما سئلت عن خُلُق النبي ﷺ، لم تُلقِ محاضرة، ولا أسهبت وأطنبت، بل قالت بإيجاز: «كان خلقه القرآن!»[1]، إذن فخلقك أيّها الأخ الحبيب هو ثمرة لمعايشتك مع القرآن!

ب. حقيقةٌ كبيرة.

وهذا يقودنا إلى ثمرةٍ جنيّة من ثمرات تدبّر القرآن، اقتطفها وعبّر عنها أحد الإخوة، وتتمثّل فيما لاحظه من أنّ القرآن الكريم، لدى قصص الأنبياء وسيرهم، يُسلّط الضوء خاصّة على صفات الأنبياء، ولا يقفُ عند برامج عملهم ومخطّطاتهم وأعمالهم ونتائج أعمالهم إلا قليلاً!

ونحنُ أيّها الإخوة ننفعل بهذه الهجمة الصّليبيّة الشرسة، والعداء

---

(١) مسند أحمد، ٦/٩١، (٢٤٦٤٥).



المستحكم الّذي عبّروا عنه: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران] وعموماً ننشغل بالتّحدّيات الكبيرة التي تواجه الأمة الإسلامية، فنلوذ بالقرآن الكريم، لنجده يقف مُسلّطاً الضوء خاصّة على صفات المرسلين، وكأنّه يُنبّهنا إلى أن تحقيق هذه الصفاتِ، هو القاعدة والأساس، وأنّه عند تحقيقهِ فإنّ مواجهة هذه التحديات والأخطار، تكون أمراً ميسوراً سهلاً:

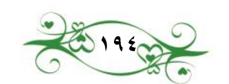
فالقرآن يتحدث عن نوح عليه السلام الَّذي مكث ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً في قومه، فيقول: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الإسراء: ٣) ويتحدث عن إبراهيم ويقول: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ (هود: ٧٥) ويقول عن سليمان، وعن أيوب عن كل واحد منهما: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٣٠، والآية: ٤٠) ويصف زمرةً منهم بوصف الإحسان: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (الأنعام: ٨٤)، وهكذا يُعلمنا القرآن أنّ الانتصار على الأعداء، هو نتيجة لمقدّمة أساسيّة، ألا وهي تزكية النفس وتحليتها بالفضائل!

لننظر أيّها الإخوان أين موقعنا من هذه الحقيقة الكبيرة، وأين نحن من التّحلّي بتلك الصفات الفاضلة؟ لا أعني عامّة الناس، بل بعض الخواصّ من



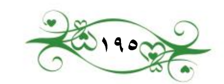
طلبة العلم وغيرهم من الدّعاة، تسأله عن المواظبة على الصلاة، والاستعداد لها قبل وقتٍ كافٍ من الأذان، والمبادرة إلى الصف الأول، وعن قراءة القرآن وتدبّره، فيعتذر بأنّه مشغول بالدعوة إلى الله تعالى، أو منشغل بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر! أو لا يجد وقتاً فارغاً لانشغال وقته بطلب العلم!!!

سبحان الله! انظر كيف كان حالُ الأنبياء، وفيم زكّاهم ربُّهم؟ ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٠)، ودعونا نتأمل في آخر سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ (الفتح: ٢٩) وكان قد جاء في الآيات قبلها: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ (الفتح: ٢٨) كأنّه



يقول: هذا الفتح والظهور إنّما تحقّق لأنّهم كانوا يتّصفون بالصفات التي وردت في الآية التالية!

وفي سورة آل عمران، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ (آل عمران: ١٤) ثمّ قال بعدها: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ (آل عمران: ١٧)، فالمقصود من كلّ ذلك التّنبيه إلى المكانة الجوهريّة التي يحتلُّها في الدّين أمر تزكية نفسها وتحليتها بالأخلاق الفاضلة، بينما نحن نتعذّر ونُبرّر لتأخُّرنا وعدم اجتهادنا في صلاتنا وصيامنا وعبادتنا، وانشغالنا عن قيام الليل وتزكية النَّفس بالأعمال الظاهرة! ثم مع ذلك نجيء لنواجه كثيراً من مظاهر الفشل في بعض مشاريعنا الدعويّة والخيريّة، ونتعجّب ونتساءل عن السّبب في ذلك؟ والجواب: انظر إلى أصحابها القائمين عليها، والمنوط بهم تحقيقها، انظر إلى قلوبهم! بعض المشاريع الدعويّة للأسف تثير كثيراً من المشاعر السّلبيّة، بل وتستثير الحقد، أو تسبب التّشاحن بينهم، وذلك كلّه بسبب الغفلة عن تلك المعاني القلبيَّة التي طالما نوّهت بها آيات الذكر الحكيم: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ (المؤمنون، الآيات: ٩٦ ـ٩٨)!



وقال الحسن البصري: «تفقدوا الحلاوة في ثلاثة: في الصلاة، وفي القرآن، وفي الذِّكر، فإن وجدتموها فامضُوا وأبشروا، وإن لم تجدوها فاعلموا أنَّ الباب مغلق»[1].

ت. الإخلاص.

فالمسلمُ أثناء قراءته أو حفظه أو سماعه، يجب عليه أن يخلص نيَّة العمل لله تعالى، وأن يقصدَ بفعله وجه الله عز وجل، فإذا كان متعلماً أحضر نيَّة تعلم علم شرعي حثَّ عليه رسول الله ﷺ، وإن كان تالياً محض قصده، فلا يُشرك مع الله أحداً في عبادته، وكذا إذا كان مستمعاً، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ الآية (البينة: ٥)، وفي الصَّحِيحَين عَن عُمَر بْنِ الخَطَّاب رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قال: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امرئ مَا نَوَى..»[2] الحديث، وقد روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قوله: «إِنَّمَا يحفظُ الرَّجل على قَدر نِيَّتِه»[3]، أي له من أجر ما حفظه ما صلحت فيه نيته فهذا ما ينفعه، وقد ذكر أهل العلم أنَّ على القارئ ألا يقصد بتعلمه القرآن، ولا تعليمه توصّلاً إلى غرض من أغراض الدنيا، من مال، أو رياسة، أو وجاهة، أو ارتفاع على أقرانه، أو ثناء عِند الناس، أو صرف

(١) مدارج السالكين، ٢/٤٢٤.

(٢) صحيح البخاري (١).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي: ٥/ ٥٢.



وجوه النَّاس إلَيه، أو نحو ذلك، قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ (الشورى: ٢٠)، وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ (الإسراء: ١٨)، وفي فروع ذلك قال النووي ناهياً: «ولا يُشين المقرئ إقراءه بطمع في رفق يحصُل له من بعض مَن يَقرأ عليه، سواء كان الرفق مالاً أو خدمة، وإن قلَّ، وإن كان على صُورة الهدية التي لولاَ قراءته عليه لما أهداها إليه، وليحذر كل الحذر مِن قصده التكثر بكثرة المشتغلين عليه، والمترددين إليه، وليحذر مِن كراهته قراءة أصحابه على غيره، ممن ينتفعون بقراءتهم عليه، وهذه معصية يُبتلى بها بعض المعلمين، الجاهلين، وهي دلالة بينة من فاعلها على سوء نيته، وفساد طويته وعدم إرادته بتعليمه وجه الله الكريم»[1]..

وقد حرص السلف رحمة الله عليهم على سلامة نياتهم عند إقبالهم على الطاعات[2]، وبعضهم يبالغ: يذكرون أنَّ داود بن أبي هند صام أربعين سنة لم يعلم به أحد! كان يأخذ غداءه ويخرج إلى الدكان فيتصدَّق به في الطريق، فيظن أهل السوق أنه قد أكل في البيت ويظن أهله أنه قد أكل في السوق:

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن: ص ٣٥.

(٢) ما يلي مستفاد من اللطائف والمدهش لابن الجوزي بدمج وتصرف.



ومستخبر عن سر ليلى رددته ... فأصبح في ليلى بغير يقين
يقولون خبرنا فأنت أمينها ... وما أنا إن أخبرتهم بأمين!

ومن جملة حرصهم على الإخلاص حرصهم عليه إذا تعاملوا مع القرآن، كان أيوب السختياني إذا تكلم أو قرأ فَرَقَّ قلبه وترقرق دمعه فَرِقَ من الرياء فيمسح وجهه ويقول: ما أشد الزُّكام! وكان إبراهيم النخعيُّ إذا قرأ في المصحف فدخل عليه داخل غطاه:

أَفَدِّي ظِباءَ فُلاةٍ ما عَرَفنَ بِها ... مَضغَ الكَلامِ وَلا صَبغ الحواجيبِ

[يريد ما عرفن التصنع ولا خطر لهنَّ، بل الجمال سجيتهنَّ وهكذا سرائر أهل الإخلاص].

وقال الحسن البصري: «كان الرجل تأتيه عَبرتُه فيسترها، فإذا خشي أن تسبقه قام من المجلس».

باحَ مَجنونُ عامِرٍ بِهواهُ ... وكَتَمتُ الهَوى فَمِتُّ بِوجدي

واعجبا من أهل الرياء! على من يبهرجون؟ ﴿وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ (القصص: ٦٩) غلب على المخلصين الخشوع، فجاء المرائي يبهرج، فقيل: مهلاً، فالناقد بصير!

لما أخذ دودُ القز ينسج جاء العنكبوت يتشبه، فقال: لك نسج ولي نسج، فقالت دودة القز: ولكنَّ نسجي أردية للملوك، ونسجك شبكة للذباب! وعند مس النسيجين يبين الفرق، ولسان الحال ينادي:



إذا اشتَبكت دُموعُ في خُدودٍ   تَبينَّ مَن بَكى مِمَّن تَباكى

شجرة الإخلاص أصلها ثابت لا يضرها فزع: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ (القصص)، وأما شجرة الرياء فاجتثت عند نسمة: ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ (الصافات)، كم متشبه بالمخلصين في تخشُّعه ولباسه، وأفواه القلوب تنفر من طعم مذاقه، وا أسفي! ما أكثر الزور:

أما الخيام فإنها كخيامهم   وأرى نساء الحي غير نسائها!

ليس كلُّ مستديرٍ يكون هلالاً، لا لا!

وما كل من أومى إلى العز ناله   ودون العلى ضربٌ يُدمِّي النواصيا

كم حول معروف من دفين ذهب اسمه كما بلي رسمه ومعروف معروف!

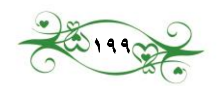
فما كلُّ دارٍ أقفرت دارةَ الحمى   ولا كلُّ بيضاء الترائب زينب!

لريح المخلصين عطرية القبول، وللمرائي سموم النسيم، نفاق المنافقين صيَّر المسجد مزبلة! (لا تقم فيه أبدا)، وإخلاص المخلصين رفع قدر الوسخ! «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره»[1].

أيها المرء تذكر: قلبُ من ترائيه بيد من تَعصيه!

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٥٤).



ث. صفات حامل القرآن.

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «ينبغي لحامل القُرآن أن يُعرف بليلهِ إذا النَّاس نائمون، وبنهاره إذا النَّاس مفطرون، وبحزنه إذا النَّاس يفرحون، وببكائهِ إذا النَّاس يضحكون، وبصمتهِ إذا النَّاس يخوضون، وبخشوعه إذا النَّاس يختالون»[1].

وعن الفضيل بن عياض رحمه الله قال: «حامل القُرآن حامل راية الإسلام لا ينبغي أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو تعظيماً لحقِّ القرآن»[2].

نورٌ على مرِّ الزَّمان تألَّقا ... وأضاءَ للدُّنيا طريقاً مشرقا
وهُدى من الرَّحمنِ يهدينا به ... للصَّالحاتِ وللمكارمِ والتُّقى
هذا كتاب الله أعذبُ منهلٍ ... أَنعِمْ به من موردٍ لمن استَقَى
قد صانه ربُّ العبادِ بحفظهِ ... وحماه حتى لا يضيعَ ويخلقَا
طوبى لمن حفظ الكتابَ بصدره ... فبدا وضيئاً كالنجوم تألَّقا
وتمثَّلَ القرآنَ في أخلاقه ... وفعاله، فبه الفؤادُ تعلَّقَا
وتلاه في جنح الدُّجى متدبِّراً ... والدَّمعُ من بين الجفون ترَقرَقَا

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٦٧٣٤)، والزهد لأبي داود (١٧٣)، والزهد لأحمد بن حنبل: ١٦٢/١.

(٢) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٣٦٧).



هذي صفاتُ الحافظين كتابَه | حقّاً فكن بصفاتهم متخلِّقَاً
يا حافظَ القرآن رتِّل آيـه | فالكلُّ أنصَتَ للتِّلاوةِ مُطرقَاً
يا حافظ القرآن .. لست بحافظٍ | حتى تكون لما حفظتَ مُطبِّقَاً
ماذا يفيدُكَ أن تُسمَّى حافظاً | وكتابُ ربِّك في الفؤاد تمزَّقَا
يا أمَّتي ..! القرآنُ حبلُ نجاتِنا | فتمسَّكي بعراهُ كي لا نغرقا
ولتجمعي حول الكتابِ شتاتَنا | حتَّى نزيل تناحراً وتفرُّقاً
ولتجعليه محكّماً في أمرنا | وثِقي بوعد الله أن يتحقّقا

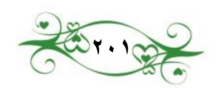
٣. ثمرات تدبّر القرآن وآثارها على وعي المسلم وإدراكه.

أ. اليقينُ بأنّ القرآن كلامُ الله تعالى.

إنَّ من أعظم فوائد تدبُّر القرآن الكريم، يقينك وإدراكك العميق بأنّه كلام الله تعالى، خالق الإنسان والأكوان، يقول العلامة ابنُ السَّعدي رحمه الله: «من فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصلُ العبدُ إلى درجة اليقين والعلم بأنَّه كلامُ الله، لأنَّه يراه يُصدِّقُ بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً، فترى الحكم والقصَّة والإخبارات تُعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقةٌ متصادقة، لا ينقُض بعضها بعضاً، فبذلك يُعلم كمال القرآن وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور، فلذلك قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾(النساء) أي: فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلاً»[1].

---

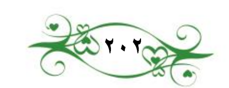
(١) تفسير السعدي ١٨٩/١.



ولا شكّ أنّ لهذه الحقيقة أثراً كبيراً، في إدراك المسلم لحقائق القرآن، وتدبّره فيها، بعدما تيقّن بأنّه كلام الله تعالى، وأنه بالتالي: لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعندئذٍ يُفتح له بابٌ كبير للمعرفة. وأيُّ ذكرٍ أعظمَ من كلام الله، إنَّ القلوب إذا فقُهت مراد الله من آياته؛ سار أصحابها إليه باطمئنان وثباتٍ لا تُزعزعه بِدَعُ المحدثين ولا تأويلات الجاهلين ولا فتن المضلين:

نزّه فؤادك عن سوى روضاته فرياضُه حلٌّ لكلّ منزّه
والفهم طِلّسْمٌ لكنز علومه فاقصد إلى الطِّلّسْم تحظ بكنزه
لا تخشَ من بدع لهم وحوادث ما دمت في كنف الكتاب وحِرزه
من كان حارسه الكتاب ودرعه لم يخشَ من طعن العدو ووخزه

وفي قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص]، جاء قوله تعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾، تالياً لقوله تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ التَّذكُّرَ منزلةٌ مُتَرَتِّبَةٌ على حسن التَّدبر، فمن قام بشيءٍ من حق التَّدبُّر كان له من التذكر نصيب على قدر لبّه، وكثيرًا ما يقرنُ التذكر بأولي الألباب: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (البقرة: ٢٦٩) واللب هو خالص القلب الذي به يكون التعقل والتفكر والتذكر، والله -عز وجل- قدْ حَثَّ عبادَه على تدبُّره مقرِّرًا اتِّساقه قائلا- سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ (النساء: ٨٢) فقرَّر أنَّ ما يكون من عند غير الله -سبحانه وتعالى فيه الاختلاف



الكثير، أمَّا ما كان من عنده ـجل جلالهـ فلا اختلاف فيه البتة، ولكنْ فيه تصريفُ البيان عن المعاني المحقق لبيان المراد كماله.

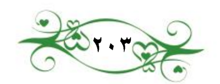
وفي هذا دعوة ربانية وإغراء كريم بالعكوف على تدبُّر البيان القرآنيّ والوقوف على اتساقه وتناسبه، فإنه لن يؤمن المرء بأن القرآن الكريم من عند الله ـعز وجلـ إيماناً مؤسساً على علم وعرفان إلا إذا استفرغ جهده في هذا التدبّر، فهو من جليل العبادات»[1].

ب. تزويد المسلم برؤيةٍ معرفيّة كونيّةٍ شاملة.

رؤيةٍ (تُطلعُ العبدَ على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وتَتُلُّ في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه وتشيد بنيانه وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم وتريه أيام الله فيهم وتُبصره مواقع العبر وتُشهده عدل الله وفضله، وتُعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

---

(١) من كلام الدكتور محمد توفيق في كتابه العزف على أنوار الذكر.



وبالجملة: تُعرِّفه الرب المدعوَّ إليه وطريقَ الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه، وتُعرِّفه في مقابل ذلك ثلاثةً أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه؛ فهذه ستة أمور ضرورية للعبد معرفتها ومشاهدتها ومطالعتها)[1].

٤. ثمرات تدبّر القرآن وآثارها على واقع حياة المسلم.

أ. شحذ إرادة المسلم وهمّته إلى الاجتهاد في العمل الصالح.

ذلك أنّ معاني القرآن الكريم (تُنهض العبدَ إلى ربه بالوعد الجميل، وتُحذِّره وتُخوفه بوعيده من العذاب الوبِيل، وتحثُّه على التضمر والتخفُّف للقاء اليوم الثَّقيل، وتَهديه في ظُلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل، وتصدُّه عن اقتحام طرق البدع والأضاليل، وتبعثه على الازدياد من النِّعم بشكر ربه الجليل، وتبصره بحدود الحلال والحرام وتوقفه عليها لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل، وتثبت قلبه عن الزَّيغ والميل عن الحق والتحويل، وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل، وتناديه كلما فترت عزماته وونى في سيره: تقدم الركبُ وفاتك الدليلُ، فاللحاقَ اللحاقَ والرحيل الرحيل، وتحدو به وتسير أمامه سير الدليل، وكلما خرج عليه كمين من كمائن العدو أو قاطع من قطاع الطريق نادته: الحذرَ الحذرَ! فاعتصم بالله واستعن به وقل: حسبي الله ونعم الوكيل)[2].

---

(١) مدارج السالكين ١/٤٥١ ـ٤٥٣.

(٢) مدارج السالكين: ١/٤٥١.



هذا بالإضافة إلى أن تدبر القرآن سبب لتسلية النفس وتثبيتها، وحثها على الاقتداء بمن سبقها من أنبياء الله ورسله والصالحين من عباد الله وإمائه، قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (هود: ١٢٠).

ب. حلُّ المشكلات الواقعيّة.

ففي تدبر القرآن من الحكم العظيمة، ما يكفل لنا إذا تدبرناه أن نحلَّ مشاكلنا جميعاً، يقول أحدُ الفضلاء: اتَّصل بي رجلٌ فقال: أريد أن أطلِّق زوجتي، لقد كثرت المشاكلُ بيننا؛ فقررت أن أطلقها.

قال الشيخ فأجبتُه قائلاً: كيف أنت مع القرآن؟

فقال: أحفظ منه، ولكن مع كثرة المشاكل نسيتُ منه الكثير.

قال الشيخ: ليس الحفظَ أعني، وإنما أعني التدبر.

فقال: أنا مقصّر في جانب التدبر.

قال الشيخ: تدبّر القرآنَ زمناً، ثم أخبرني ما النتيجة؟.

قال الشيخ: فمضى زمنٍ، ثمَّ اتصل بي ليخبرني أنَّه من أسعد الناس، بعد أن أقبل على القرآن متدبراً، وأنّه قد وجد أنّ تلك الأسباب التي دعته إلى اتّخاذ قراره بطلاق زوجه، كان كثيرٌ منها يقوم على الوهم واتّباع الهوى والظّنّ.

إنَّ الإنسان إن حافظ على ورده من تلاوة القرآن مع التدبر، صار التدبرُ له سجيةً وعادة، فنظر إلى كل أموره في دينه ومعاشه نظرة متأملة متدبرة، وأعطى



كل ما يعرض له حقه المناسب من النظر والاهتمام، فكان هذا أدعى لاستقامة أحواله وشؤونه كلها، وهذه فائدة عظيمة.

قال مسروق: «ما سأل أصحابُ محمد عن شيء؛ إلا وعلمُه في القرآن، إلا أنَّ علمنا قد قصر عنه»[1]، وقال شيخ الإسلام: «وندمتُ على تضييع أكثر أوقاتي مع غير القرآن»[2]، فالقرآن مورد يرده الناس، فينال كل منهم بقدر ما قُسم له، كغيث السَّماء الذي سالت منه أوديةٌ بقدرها.

وهذه امرأةٌ اتَّصلت بأحد طلاب العلم، وشكَتْ له ما تجده في نفسها من الشعور بالعنت والإحباط، بسبب أنّ قطار الزواج قد كاد يتجاوزُها، فأختُها الصغرى قد جاء من يخطبُها، وستتزوج هذا الصيف، وأخوها الأصغر منها كذلك سيتزوّج، وبقيت هي تعاني ما تُعاني من الهمّ والغمّ، وسنوات العمر تمضي بها!

قال لها الشيخ: اقرئي سورة الطلاق، بتدبُّر حرفاً حرفاً، وكرِّريها وطبِّقي ما فيها، هذه معايشة القران!

يقول الشيخ: لم يمضِ أسبوعان، حتّى اتّصلت بي، مبشّرةً بأنّها بحمد الله قد خُطِبت!

وامرأةٌ قدّر الله عليها وعلى زوجها عدم الإنجاب، ما تركت باباً من أبواب الطّب إلا وطرقته هي وزوجها وولجته، تقول: حتى وصلنا إلى حدِّ اليأس! ذهبت أموالنا وذهب جهدنا أدراج الرّياح، تقول: في يوم من الأيام،

---

(١) النبذ في آداب طالب العلم: ص ٥٧.

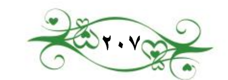
(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب: ٢/٤٠٢.



طرق أُذُنيَّ صوت الإمام يقرأ سورةً كنت أحفظها منذ المرحلة الابتدائية، فكأنّي أسمع فيها هذه الآيات للمرة الأولى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ (نوح: ١٢) الاستغفار يأتي بالبنين! فبدأت أستغفر وأستغفر، وأوالي الاستغفار، فلم تمضِ أشهر قليلة، إلا وأنا أشعر بثقل الحمل!

ويحدثني أحد الإخوة ممَّن نحسبهم من الأخيار، يقول: تغاضبتُ أنا وزوجتي، وخرجت إلى المسجد أفكرُ: أبقى في المسجد إلى ساعةٍ من الليل! يقول: واللهِ لما دخلت إلى المسجد وجلست، وجدت شيئاً يدفعني نحو البيت بقوةٍ فرجعت، فإذا بزوجتي تبتسم، قائلةً: والله إني أعلم أنك سترجع! قالت: إنّما هو الاستغفار، وقول الله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ (نوح: ١٠) منذ خرجتَ وأنا أستغفر الله على ما جرى!

وأعرفُ كذلك أحدَ طلاب العلم، يقول: ما واجهتني مشكلةٌ في حياتي، إلا وبدأت بالاستغفار، فتنحلّ بإذن الله، لأنَّ هذا وعدُ الله! قد يقول لك قائلٌ: فلان فعل ذلك ولم يتحقَّق! ولكن حذاري من السير في هذا الطريق: اتِّهم نفسك! أين صدقك؟ أين قلبك؟ وقد كان أحد الإخوة من مشايخ الهند يترجم كتاب: (ليدبروا آياته)، يقول: فغضبت على زوجتي وهي في الهند وأنا في الرياض، وعزمت على قرار قد يصل إلى الطلاق، وأخبرتها بذلك بعيد العصر، وبعد المغرب كنت أترجم تدبر قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧)، فوجدت عجباً، فاتصلت بزوجتي، وأخبرتها برضاي عنها، وبينت لها أن السبب ما قرأته من فائدة ناشئة عن تدبر هذه الآية لأحد طلاب العلم.



أخي، هذا هو القران، لكن أين التدبر؟

ت. فتح أبواب الرّزق والخير.

من آثار تدبّر القرآن، أنّه يؤتيك مفاتح الرزق والخير، سمعتُ أحد طلاب العلم، وهو يُشرف على أحد المشاريع الخيرية، يقول: كانت تواجهني مشكلات في تحصيل الدعم المادّي لمشاريعنا الخيرية، وجمع التبرعات اللازمة من الناس! يقول: سبحان الله! في يوم من الأيام، كنتُ في أحد المجالس، فقرأ أحد المشايخ سورة الليل: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ فانفتح لها صدري، كنت أتصوَّر فقط أن القضية في موضوع المال، فإذا هي أوسع! في أيِّ شيءٍ: إنَّ سعيكم لشتَّى، انظر للناس غادين ورائحين، كلٌّ إلى حال سبيله، بعضهم إلى أهله، وبعضهم إلى تجارة، وربما بعضهم ذاهبٌ إلى عملٍ لا يُشكر عليه: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾﴾ يقول: من بعد تدبُّري لهذه الآية، لم تواجهني أيَّة مشكلة، بل صار النّاس هم الّذين يبحثون عنّي، وكنت أقول للعاملين معي: حقِّقوا الشروط الثلاثة الأولى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾﴾ أمّا الرابعة ليست لكم، وإنما هي من فعل الله لكم! وهذا هو فقهُ عمر الّذي رأيناه لما قال: «إنِّي لا أحمل همّ الإجابة، ولكن همّ الدعاء، فإذا أُلهمتُ الدعاءَ فإنَّ الإجابة معه»[1]!

---

(١) ذكره في اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/٧٠٦.



ث. تحقيق الأمن من الخوف والحفظ الإلهيّ.

وسأذكر لكم قصّتين للدّلالة على هذا المعنى والأثر القرآنيّ، قصة قديمة وقصة حادثة!

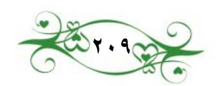
أما القصة القديمة، فانظرها في تفسير القرطبي لقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ (الإسراء: ٤٥)، قال بعد أن ذكر قصصاً من السيرة وأخبار السلف في شأنها: «ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منثور من أعمال قرطبة مثل هذا. وذلك أنى هربت أمام العدو وانحزت إلى ناحية عنه، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يسترني عنهما شي، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن، فعبرا عليَّ، ثم رجعا من حيث جاءا، وأحدهما يقول للآخر: هذا ديبله، يعنون شيطاناً. وأعمى الله عز وجل أبصارهم فلم يروني، والحمد لله حمداً كثيراً على ذلك»[١].

وأنا واللهِ أعرف من المعاصرين أشخاصاً لم يعلموا بقصة الإمام القرطبي، ابتلاهم الله بالمحن في بعض البلاد، فيقولون: إذا أقبلنا على المحنة بدأنا نردد قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (يس: ٩)، فينجُون ولا يُمَسَّون بسوء!

أما القصة المعاصرة، فقد دخلت بيت أحد الوجهاء في الكويت، وكنت

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/٢٧٠.

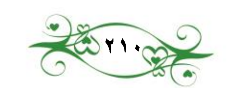


أعرفه تالياً لكتاب الله جلَّ وعلا، يقرؤه بخشوع وتدبر وتأمُّل، وهو من أهل الدعوة ومن أهل الخير، نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً، فلما دخلت بيته، قلت: يا شيخ، ماذا فعلوا في بيتك أيام الغزو العراقيِّ للكويت؟ فقال لي كلمةً تعجبت منها: أرأيتَ هذا الأثاث الذي في البيت؟ قلت: نعم! قال: والله هو الأثاث الذي كان فيه قبل الغزو، سرقوا كلَّ البيوت التي حولي ودخلوا بيتي ولم يأخذوا منه شيئاً! ليس تورُّعاً منهم، فقد استباحوا الدِّماء والأعراض في البلاد، فما الذي حماه؟ لقد كان في مكة يتلو القرآن، فمن الذي حفظه، لا ريب أنّه هو الله جل وعلا!

فيا إخوتي الكرام، ويا أهل القرآن، إنّ في تلاوته وتدبّره حمايةً وأماناً من الخوف!

٥. ثمرات تدبّر القرآن وآثارها على مصير الإنسان في الحياة الآخرة.

إنَّ حياة الآخرة مرهونة بالقرآن فلا صلاح لمن لم يتبعه، ولا هداية لمن لم يستضيء به، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ (الأنبياء:٥٠) وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ (طه:١٢٦)، فدلَّ ذلك على أن ذكره هو آياته التي أنزلها، ولهذا لو ذكر الرجل الله سبحانه وتعالى دائماً ليلاً ونهاراً مع غاية الزهد، وعبده مجتهداً في عبادته ولم يكن متبعاً



لذكره الذي أنزله وهو القرآن، كان من أولياء الشيطان ولو طار في الهواء، أو مشى على الماء»[1].

والحياة الحقيقية في الآخرة والتي هي الحيوان محرمة على موتى الأحياء في الدنيا، قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (الأعراف: ٣٥، ٣٦).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ قَالَ: «يَجِيءُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، حَلِّهِ فَيُلْبَسُ تَاجَ الْكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ زِدْهُ فَيُلْبَسُ حُلَّةَ الْكَرَامَةِ. ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ، ارْضَ عَنْهُ، فَيَرْضَى عَنْهُ. فَيُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَارْقَ وَتُزَادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةً»[2].

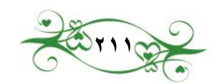
عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا»[3]، قوله: (يقال) أي عند دخول الجنة (لصاحب القرآن) أي: مَنْ يلازمه بالتلاوة والعمل، (وارتق) أي: اصعد إلى درجات الجنة، (ورتل) أي: اقرأ بالترتيل ولا تستعجل بالقراءة (كما كنت ترتل في الدنيا) من تجويد

---

(١) الفتاوى: ١١/١٧٣.

(٢) سنن الترمذي (٢٨٣٩) صححه الألباني.

(٣) سنن الترمذي (٢٨٣٨) صححه الألباني.



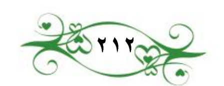
الحروف ومعرفة الوقوف (فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها)، قال الخطابي: جاء في الأثر أنَّ عدد آي القرآن على قدر درج الجنة في الآخرة، فيُقال للقارئ: ارق في الدرج على قدر ما كنت تقرأ من آي القرآن، فمن استوفى قراءة جميع القرآن استولى على أقصى درج الجنة في الآخرة، ومن قرأ جزءاً منه كان رقيُّه في الدرج على قدر ذلك، فيكون منتهى الثواب عند منتهى القراءة.

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ وَلا يَغُرَّنَّكُمْ هَذِهِ الْمَصَاحِفُ الْمُعَلَّقَةُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَنْ يُعَذِّبَ قَلْبًا وَعَى الْقُرْآنَ» (١).

وعَائِشَةَ عَنْ النَّبِيِّ قَالَ: «مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ» [البخاري ٤٥٥٦]، والسَّفرة: الرُّسُل؛ لأنهم يسفرون إلى الناس برسالات الله، وقيل: السفرة: الكتبة، والبررة: المطيعون، من البر وهو الطاعة، والماهر: الحاذق الكامل الحفظ الذي لا يتوقف ولا تشق عليه القراءة لجودة حفظه وإتقانه، قال القاضي: يحتمل أن يكون معنى كونه مع الملائكة أن له في الآخرة منازل يكون فيها رفيقاً للملائكة السفرة؛ لاتصافه بصفتهم من حمل كتاب الله تعالى. قال: ويحتمل أن يراد أنه عامل بعملهم وسالك مسلكهم. والماهر أفضل وأكثر أجراً؛ لأنه مع السفرة وله أجور كثيرة، ولم يذكر هذه المنزلة لغيره، وكيف يلحق به من لم يعتن بكتاب الله تعالى وحفظه وإتقانه وكثرة تلاوته وروايته كاعتنائه حتى مهر فيه؟! والله أعلم.

---

(١) رواه الدارمي (٣١٨٥).



وعن بريدة قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلا يَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ» أي السَّحرة، قَالَ: ثُمَّ مَكَثَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَآل عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا الزَّهْرَاوَان يُظِلان صَاحِبَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَان أَوْ غَيَايَتَان أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ، كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ، فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ! فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ! فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الْهَوَاجِرِ وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ، فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لا يُقَوَّمُ لَهُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا، فَيَقُولان: بِمَ كُسِينَا هَذِهِ؟ فَيُقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ. ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ فِي دَرَجَةِ الْجَنَّةِ وَغُرَفِهَا، فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ هَذًّا كَانَ أَوْ تَرْتِيلاً»(١).

ثانياً: ثمرات تدبر القرآن على صعيد نهضة الأمّة الإسلاميّة.

ونتناول فيه المسائل الثّلاثة التالية:

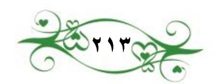
١. العلاقة بين تدبر القرآن والسنة ونهضة الأمة.

٢. السِّمات التي تتميّز بها نهضة الأمّة الإسلاميّة.

٣.شمول المنهج القرآني وفاعليّته.

---

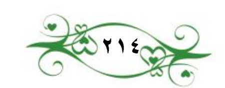
(١) السلسلة الصحيحة (٢٨٢٩).



١. العلاقة بين تدبر القرآن والسنة ونهضة الأمة.

إن هذه العلاقة بينة واضحة لكل من علم حقيقة هذا الكتاب العظيم وحقيقة السنة النبوية المطهرة؛ ومن نظر فيما سبق ذكره من فوائد وأهمية تدبر القرآن والسنة ازدادت هذه العلاقة وضوحاً لديه، فالعمل بالكتاب والسنة لازم من لوازم تدبرهما، وهذا العمل هو المقدمة الصحيحة لتحقيق نهضة الأمة نهضة حقيقية؛ وهذه حقيقة ثابتة شرعاً وعقلاً وتاريخاً.

أما من جهة الشرع: فإن كتاب الله عز وجل كتاب هداية عامة وشاملة، بين الله سبحانه وتعالى فيه للناس الطريق التي توصلهم إلى سعادة الدارين، وقد جاء فضلاً عما يتعلق بأصول الإيمان والعبادات الموصلة للفلاح في الآخرة، بتشريعات وقواعد تضبط حركة الناس في هذه الحياة في شتى نواحيها؛ السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، فالسياسية مثل ذكره تعالى قول بني إسرائيل لنبيهم: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٤٦)، فيستنبط منه ضرورة نصب إمام يسوس الرعية ويقودها، والاقتصادية مثل قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ (البقرة: ٢٧٥)، والاجتماعية مثل قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} (الحجرات: ١٠)، وغير ذلك، وقد جاءت بعض هذه التشريعات مفصلة وجاء بعضها على شكل قواعد عامة تكفلت السنة المطهرة بتفصيلها، وهذا كله داخل في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ (الإسراء: ١٢)، فكل ما يحتاج الخلق إليه لصلاح دنياهم وآخرتهم قد



فصله الله عز وجل في كتابه وسنة نبيه عليه السلام، علم ذلك من علمه وجهله من جهله، مصداقاً لقول النبي ﷺ: «إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله و سنتي، و لن يتفرَّقا حتى يردا عليَّ الحوضَ»[1].

وكذلك قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ (النحل: ٨٩)، قال السعدي رحمه الله: «في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه أتم تبيين بألفاظ واضحة ومعان جلية»[2]، وقال الشنقيطي رحمه الله في تفسيرها: «لا شكَّ أن القرآن فيه بيان كل شيء، والسنة كلها تدخل في آيةٍ واحدة منه، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر: ٧)»[3]، ثم نقل رحمه الله تأكيداً لذلك نقلاً طويلاً عن السيوطي في كتابه (الإكليل في استنباط التنزيل) نورد منه فقرات لبيان المراد، فمن ذلك نقل السيوطيُّ عن بعضهم قوله: «ما من شيء إلا يمكن استخراجه من القرآن لمن فهَّمه الله تعالى، حتى إن بعضهم استنبط عمرَ النَّبي ﷺ ثلاثاً وستين من قوله في سورة المنافقين: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ (المنافقون: ١١)، فإنها رأس ثلاث وستين سورة، وعقبها بالتغابن ليظهر التغابن في فقده»، ولا يخفى ما في هذا الاستنباط من التكلف، ثم نقل

---

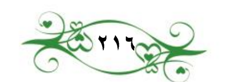
(١) المستدرك: ١/١٧٢ (٣١٩)، وحسن الألباني إسناده في منزلة السنة في الإسلام: ١/١٨.

(٢) تفسير السعدي: ١/٤٤٦.

(٣) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/٥٨.

السيوطيُّ عن المرسي قوله: «جمع القرآن علوم الأولين والآخرين، بحيث لم يُحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم به، ثم رسول الله ﷺ، خلا ما استأثر الله به سبحانه، ثم ورث عنه معظم ذلك ساداتُ الصَّحابة وأعلامهم؛ مثل الخلفاء الأربعة، ومثل ابن مسعود، وابن عباس حتى قال: لو ضاع لي عقالُ بعيرٍ لوجدته في كتاب الله. ثم ورث عنهم التابعون لهم بإحسان، ثم تقاصرت الهمم، وفترت العزائم، وتضاءل أهل العلم، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه.

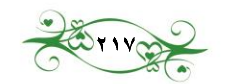
فنوعوا علومه، وقامت كل طائفة بفن من فنونه»، ثم شرع السّيوطيُّ يفصل في ذكر العلوم الإسلامية التي استخرجها العلماء من القرآن الكريم، فذكر علوم: التفسير وأصول الدين وأصول الفقه والفقه والتاريخ والقصص والخطابة والوعظ وتعبير الرؤيا والفرائض والمواقيت والمعاني والبيان والبديع، ثم قال: «وقد احتوى على علوم أخر من علوم الأوائل، مثل: الطب والجدل والهيئة، والهندسة والجبر، والمقابلة ... وغير ذلك»، ثمّ قال السُّيوطيُّ رحمه الله: «قلتُ: قد اشتمل كتاب الله على كلِّ شيءٍ، أما أنواع العلوم فليس منها بابٌ ولا مسألة هي أصل، إلا وفي القرآن ما يدلُّ عليها»، ثم علَّق الشنقيطيّ رحمه الله على كلام السيوطي بقوله: «وإنما أوردناه برمته مع طوله؛ لما فيه من إيضاح أنَّ القرآن فيه بيان كل شيء، وإن كانت في الكلام المذكور أشياءُ جديرةٌ بالانتقاد،



تركنا مناقشتها خوفَ الإطالة المملة، مع كثرة الفائدة في الكلام المذكور في الجملة»[1]، وما دام الأمر كذلك فإن التمسك بهذا الكتاب والعمل به كفيل بتحقيق النهضة المنشودة، وما دام هذا العمل لا يمكن أن يتم دون تدبر كلام الله، فهذا دليل أكيد على العلاقة بين هذا التدبر وبين النهضة المرجوة، ولا شك أن كل ما سبق ذكره ليس منوطاً بتحقيق تدبر الكتاب فحسب بل وتدبر السنة النبوية كذلك، لما سبق وبيناه.

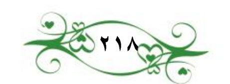
أما من جهة العقل: فمن المعلوم أنَّ من صنع شيئاً وأتقن صنعه كان من أعلم الناس بما يَصلح له هذا الشيء، وما يُصلحه في ذاته وما يُعطبه، ولهذا نرى أهل الصناعة يرفقون بكل آلة يصنعونها نشرة توضح كيفية تشغيلها وصيانتها والظروف الواجب توفرها لتؤدي عملها على أكمل وجه، والمحاذير التي ينبغي تجنبها كي لا تتعرض الآلة للعطب أو يضعف أداؤها؛ ولله المثل الأعلى، فهو سبحانه وتعالى خالق كل شيء، خلق الإنسان وخلق ما يحيط به من أكوان، وكل ذلك منه على أكمل وجوه الإتقان كما قال عز وجل: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ (النمل: ٨٨)، فهو أعلم بما يصلح له الإنسان وما يصلحه وما يفسده، فلما قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ

(١) ينظر أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/٦٠ ـ٦٤.



﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠). ثم إنه سبحانه وتعالى وصف نفسه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ (الحج: ٦٥)، ومن آثار هذه الرأفة والرحمة بهم أنه لم يتركهم في هذه الدنيا هملاً، بل أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب ليرشدهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم؛ ولما أنزل الله آدم عليه السلام إلى الأرض بين له أن هدىً منه تعالى سينزل عليه وعلى ذريته، وبين عاقبة من اتبع ذلك الهدى وعاقبة من خالفه، فقال: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ (طه: ١٢٣، ١٢٤)، وهذا الهدى هو الدليل الذي يرشد الإنسان لما يصلحه ليأخذ به وما يفسده ليتقيه.

وقد بيَّن الله سبحانه وتعالى أنَّ أهل الكتاب لو أقاموا ما أُنزِل إليهم من ربهم لسعدوا في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٦٥ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ﴾ (المائدة: ٦٥، ٦٦)، وقال سبحانه: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ (الأعراف: ٩٧)، وأعظم هاد للإيمان والتقوى تدبر القرآن، أفلا يعقل بعد كل ما



سبق ألا يكون القرآن الكريم كفيلاً بتحقيق سيادة الأمة وعزها ونهضتها؟ وكيف لا يكون كذلك وهو آخر الكتب والمهيمن على ما سبقه منها، المنزل على هذه الأمة التي هي آخر الأمم وخير الأمم!

وهذا الذي دلَّ عليه العقل قد نص عليه القرآن الكريم صراحة، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ (النور: ٥٥).

وأما التاريخ فهو خير شاهد على العلاقة الوثيقة بين تدبر القرآن الكريم والسنة النبوية المستلزم العمل بهما وبين نهضة الأمة، بل إن أصل وجود هذه الأمة كأمة لم يكن إلا بالأخذ بهذا الكتاب العزيز كما بينا، ثم إن هذه الأمة المسلمة التي كان ينظر إليها الشرق والغرب نظرة استخفاف في أول نشأتها ويصف أهلها بالحفاة العراة قد فتحت المشارق والمغارب ونشرت فيها راية التوحيد، ثم أقامت واحدة من أعظم الحضارات المدنية التي عرفها التاريخ في مدة وجيزة، فتقدمت العلوم وتطورت وتنوعت ولم يترك أهل الإسلام باباً من أبواب العلوم الدنيوية النافعة إلا طرقوه وفتحوه.

لقد تحققت نهضة الأمة العلمية، دينية ودنيوية، يوم تمسك أهل

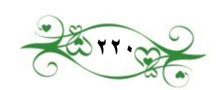


الإسلام بعرى هذا الدين العظيم وتدبروا آيات كتابهم حق التدبر، لا أدل على ذلك من كون كثير من علماء الطب والهندسة والفلك والعمارة وغيرها كان لهم حظ من علوم الشريعة قل أو كثر، ولا تكاد تجد واحداً منهم إلا وقد تخرج في صغره على شيخ أو مؤدب يعلم القرآن.

إن التاريخ يشهد أن هذه الأمة ما عرفت العز إلا بتمسكها بكتاب ربها عز وجل وسنة نبيه عليه السلام، وما أصابها من نكسات أو هزائم إلا عند تفريطها في التمسك بهما، وهذه سنة ماضية لم تتخلف حتى مع أصحاب رسول الله ﷺ يوم كان عليه السلام بين أظهرهم، كيوم أحد ويوم حنين.

وهل ضاعت الأندلس يوم ضاعت إلا بتفريط أهلها في التمسك بتعاليم كتاب ربهم وسنة نبيهم؟ لقد قامت في الأندلس دولة قوية وقامت فيها نهضة علمية دينية ودنيوية، حتى صارت قرطبة منارة العلوم في أوروبا حيث كان طلاب العلوم الدنيوية من أنحاء القارة ينهلون من علوم المسلمين فيها، فكانت الغلبة للمسلمين بالسلاح كما كانت لهم الغلبة الحضارية، حتى صار بعض الأوروبيين يتشبهون بالمسلمين في ملبسهم ومأكلهم وكلامهم، مما دفع بالكنيسة إلى إصدار عقوبات بالحرمان في حق أولئك لما رأته في فعلهم من خطر عليها وعلى النصرانية!

فلما زال ملك المسلمين وحضارتهم هناك كانت لهذا الزوال أسبابه، حيث ركن أهل الأندلس للدعة والتنعم، وانتشرت فيهم المخالفات لكتاب



رب البريات، فعلت أصوات القيان والعيدان من قصورهم وبيوتهم وفشت فيهم المنكرات، غيروا فغير الله عليهم، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال]، قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن تمام عدله، وقسطه في حكمه، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه»[1]، وبعد أن كان أهل أوروبا يتشبَّهون بالمسلمين في الأندلس، فرَّط المسلمون في دينهم، فانعكست الآية وصار المسلمون يتشبهون بهم، ثم سقطت الأندلس، وحصل من المآسي على المسلمين ما اللهُ به عليمٌ.

وقد تنبه ابن خلدون رحمه الله لهذه الأمور قبل سنوات عديدة وفطن بفراسته أنها مقدمة النهاية، فقال في مقدمته: «إذا كانت أمة تجاور أخرى، ولها الغلب عليها، فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير، كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة، فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم، حتى في رسم التماثيل في الجحران والمصانع والبيوت، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء، والأمر لله»[2]!

وهكذا لو ذهبنا نتتبع التاريخ لوجدنا كل انتكاسة وكل هزيمة تنزل بالمسلمين إنما سببها مخالفتهم لتعاليم دينهم الحنيف وترك العمل بشيء من

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٧٨.

(٢) مقدمة ابن خلدون ١/٧٣.

كتاب ربهم وسنة نبيهم، هذا العمل الذي هو لازم من لوازم تدبر الكتاب كما بيَّنا مراراً.

٢. السِّمات التي تتميّز بها نهضة الأمّة الإسلاميّة.

من أهم هذه السمات ما يأتي:

أ. أنها نهضة دينيّة ودنيويّة.

ب. أنها نهضة تقوم على العقيدة والشريعة.

ت. أنها نهضةٌ تستهدف الأمة الإسلامية.

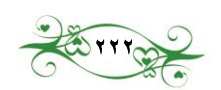
ث. أنها مهمّة شاقّة وعبء عظيم.

ج. أنها وعدٌ إلهيٌّ وحقيقة شرعيّة.

أ. نهضةً دينيّة ودنيويّة.

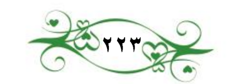
إنّ نهضة الأمة الإسلامية لا بد أن تكون نهضة دينية ودنيوية، وبالتالي فإن التدبر الذي له أثر في هذه النهضة يتعلق بأمرين رئيسين؛ الأول التدبر في أمور دينها، والثاني التدبر في أمور دنياها، وهذا الثاني مشترك بين هذه الأمة وغيرها، إذ كلُّ العقلاء من بني الإنسان يتدبرون في أمور دنياهم ومعايشهم لتحصيل أكبر قدر من المصالح، ودرء أكبر قدر من المفاسد، بل إن هذا مما تشترك فيه جميع الحيوانات بالغريزة التي غرسها الله فيها، كل بحسبه.

ولَئن وجد من الأمم من يتدبر في أمر دينه أيضاً، فإن مما يميز هذه الأمة عن غيرها أنه لا انفصال بين أمور دينها ودنياها، بخلاف غيرها من الأمم إذ



الدين عندهم لا يتعرض لأمور الدنيا بالشمول الذي يميز الإسلام، فهو تعرّض محدود، وبرغم ذلك فإنه لا يخلو من فساد في الغالب؛ إما لتحريف هذه الأديان عما أنزله الله، وإما لأنها ليست من عند الله ابتداء، بل هي من وضع شياطين الإنس والجن، وما كان هذا حاله فلا يخلو من اضطراب وتناقض، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء:٨٢)، ومن ثم فهو لا يصلح أن يكون عاملاً من عوامل النهضة، ولهذا لا نرى بين الأمم في الشرق والغرب من يجعل الدين عاملاً من عوامل النهضة، فالدين عند كثير منها مقصور على البِيَع والصلوات ودور العبادة، فإن تجاوزها لواقع الأمة كما نراه عند اليهود مثلاً، فكعامل توحد معنوي، وكعصبية تجمع بين أبنائها دون أن يكون له كبير دور في تنظيم وتسيير شؤون الأمة.

أما هذه الأمة فدينها هو الدين الذي ارتضاه الله عز وجل للعالمين، وهو كفيل بتحصيل المنافع والمصالح الأخروية والدنيوية، ودفع ما يفسد على الناس دنياهم وأخراهم، فالتدبر في أمور الدين يدفع المسلمين للتدبر في أمور دنياهم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ (الأنعام: ١٦٥)، فالمؤمن الذي يعلم أن الله عز وجل سريع العقاب وأنه غفور رحيم يبادر إلى فعل الخيرات والتقرب إلى الله بالإيمان والأعمال الصالحات، وهذا أثر من آثار التدبر في هذه الآية وأمثالها، وقد وعد الله سبحانه الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن يستخلفهم في الأرض كما مر معنا في آية النور، وهذا الاستخلاف لا يستقيم ويستمر إلا بالتدبر في شؤون الحياة، فلا انفصال عند المسلمين بين الأمرين، بل أحدهما يكمل الآخر، قال ابن كثير في تفسير



آية الأنعام السابقة: «أي: جعلكم تعمرون الأرض جيلاً بعد جيل، وقَرْناً بعد قرن، وخَلَفاً بعد سَلَف ... [و] فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان، وله الحكمة في ذلك، كقوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾ (الزخرف: ٣٢) ... ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحنكم به، ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره»(١).

فبناءً على ما سبق فإن التدبر الذي ندعو إليه ونحض عليه أمتنا أفراداً وجماعات، هو أولاً التدبر في أمر الدين؛ وهذا يشمل أصليه الرئيسين كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ الصحيحة، وثانياً التدبر في أمر الدنيا وهو يشمل التدبر في واقع الأمة في الماضي والحاضر لاستخلاص الدروس والعبر ودراسة الإمكانات والقدرات ووضع الخطط للمستقبل، وبهذا يُعلم أن التدبر المطلوب هو في الكتاب والسنة ابتداءً، ثم في واقع الأمة في الماضي والحاضر، تبعاً لذلك.

ب. نهضة تقوم على العقيدة والشريعة.

إن التدبر في واقع الأمة، انطلاقاً من التدبر في القرآن الكريم، والذي نرجو أن يمارسه المسلمون أفراداً وجماعات، حكاماً ومحكومين، سيوصل إلى نتيجة لابد منها؛ وهي أنه لا عزَّ لهذه الأمة ولا نهضة لها من وهدتها التي سقطت فيها إلا بالعودة إلى شرع ربها عز وجل، كما قال عمر رضي الله عنه: «إنا كنا

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٨٤.

أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله»[1]، وإلا بتحقيق ما حققته الأمة في السابق حتى نالت شرف الريادة، كما قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لن يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولَّها»[2].

إن هذه النتيجة التي يؤدي إليها التدبر الصحيح لواقع الأمة، هي الحقيقة المهمة التي تغيب اليوم للأسف عن الواقع العمليِّ لكثيرٍ من الدَّعوات الإصلاحية المعاصرة، برغم رفعها لشعار الإسلام، وأعني بذلك الحركات التي ظنَّت أن طريق النهضة إنما يكون بمنافسة أعداء الله في كل مجال تفوقوا علينا فيه، وأنَّ وسائل ريادة هؤلاء في عالم اليوم هي وسائل الريادة التي ينبغي لنا أن نسلكها، وهو الأمر الذي أدى ببعض هذه الحركات للدعوة لجعل العمل السياسي شغلنا الشاغل كي نصل إلى التمكين عبر صناديق الانتخابات، وأدى بالبعض الآخر للدعوة لتحقيق التفوق الاقتصادي في عالم الصناعة والمال والتجارة لتعود لنا الريادة، وأدى بفريق ثالث للقول إن سبيل النهضة والخلاص هو حيازة المعارف والعلوم الحديثة فهي أساس كل تقدم وتمكين؛ والأمل معقود أن تعيد هذه الحركات النظر في قناعاتها، وأن تتدبر واقع الأمة في الماضي والحاضر في ضوء تدبر الكتاب والسنة، توفيراً للجهود والطاقات والأوقات أن تهدر فيما لا يجدي.

---

(١) المستدرك: ١/١٣٠ (٢٠٧)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

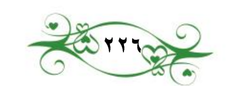
(٢) ينظر اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام ١/٣٦٧.



إن مما ينبغي أن يكون واضحاً أننا لا ننكر أثر كل ما تدعو إليه هذه الحركات، فلا ريب أن كل هذه الوسائل هي من وسائل العيش الكريم، ومن أسباب التفوق في عالم اليوم، وأنها من أعظم أسباب استغناء الأمة عن أعدائها، وقطع الطريق على تدخلاتهم المستمرة في شؤون الأمة، ولكنها لا يمكن أن تكون هي وسيلة التمكين الصحيحة لهذه الأمة إن جردت عن الضوابط الشرعية، كما أنها لا يمكن أن تكون سبب التمكين الرئيس لهذه الأمة – وإن كانت من الأسباب الداعمة له – وهذا ما تثبته سيرة النبي عليه السلام ويثبته تاريخ المسلمين، بل تثبته بعض تجارب الواقع المعاصر كذلك، وهذه ثمرة من ثمار التدبر الذي نحن بصدده.

فما يُروى في كتب السيرة وكتب التفسير من رفض النبي ﷺ عرض كفار قريش أن يكون ملكاً عليهم مقابل ترك دعوته يردُّ على من يرى سبيل النهضة والتمكين في انتهاج العمل السياسي، فقد كان بإمكان النبي عليه السلام أن يقبل عرضهم ويوطد ملكه ومن ثم يفرض عليهم ما يشاء، فدل تركه عليه السلام وإقرار الله عز وجل له على تركه أن هذا ليس هو الطريق لتحقيق التمكين المنشود.

وفي العصر الحديث تجارب متعددة، تتفاوت من حيث درجة قربها وبعدها من تحقيق هدفها في التمكين السياسي، لكن نتائجها كلها تؤكد أن هذا ليس هو الطريق. إنَّ الدعاة يفرحون عندما يرون الشارع يموج بأعداد ضخمة



من المسلمين المؤيدين لتحكيم الشريعة في المجتمع، أو عندما تصوت الجماهير للداعين إلى ذلك فيحققوا مكاسب في الانتخابات، وهذا بلا شك أمر مفرح لأنه يدل على مدى ارتباط الأمة بأصولها، وأن نداء الإيمان يلقى قبولاً لدى فئات كثيرة في المجتمع، لكن الواقع يشهد أن هذه التحركات الشعبية العاطفية سريعةَ الانفعال، قصيرةُ النفس وسريعةُ الخمود كذلك، فهي لا تستطيع الصبر والانتظار وتحمل المشاق في سبيل تحقيق الأهداف، وعند أول ريح وأول اختبار جدي تنحسر هذه التحركات ويبقى السياسيون لوحدهم في الميدان، وصدق رسول الله ﷺ حيث قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل»[1]، فالغثاء هو الزَّبَد الذي يحمله السيل، وهو يكون منتفخاً منتفشاً عليه، ويكون من الكثرة بحيث يغطيه، يحسبه المرء شيئاً وما هو بشيء، إنما هو هواء وخواء، سرعان ما يتلاشى مع توقف السيل.

ويحسن بنا هنا أن نذكر موقفاً للشيخ الألباني رحمه الله يدل على بُعد نظره ويصلح نموذجاً لتدبر الواقع في ضوء تدبر الكتاب والسنة، فعندما قيل له إن الملايين يتظاهرون في الشوارع مطالبين بتحكيم شرع الله، قال كلمته المأثورة: «فكم عدد المصلين في المساجد في صلاة الفجر؟ »[2]، إذ قد علم بثاقب

---

(١) السلسلة الصحيحة (٩٥٨).

(٢) قالها الشيخ الألباني رحمه الله تعليقاً على التظاهرات المؤيدة لجبهة الإنقاذ في الجزائر في العقد الأول من هذا القرن.



بصيرته أنَّ العبرة ليست بالعواطف التي تذبل وتخمد بأسرعَ مما تشبُّ وتتوقَّد، بل العبرة بالثَّبات والاستقامة، وبأن يصبح هذا الدينُ متمكناً في القلوب، وتصدِّق ذلك الجوارح: «قل آمنت بالله ثم استقم»[1]، فإن فعل المسلمون ذلك فإن رحمة الله واسعة وفضله ومنَّه لا حدود له، وحينها يأذن الله بالتمكين، كما قيل: «أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم، تقم لكم في أرضكم»، ولا يعني هذا الاقتصار على عمل القلب دون الجوارح! كلا بل هذا لا يكون أبداً، فإذا قام بالقلب عمل انعكس على الجوارح والأعمال لزاماً.

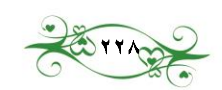
وأما التمكين الاقتصادي فقد أتى النبي ﷺ المدينة والأسواق والأموال بأيدي اليهود كما هي اليوم، فما نازعهم ﷺ شيئاً من ذلك، حتى إنه عليه السلام قد مات ودرعه مرهونة عند يهودي، فلو كان هذا هو سبيل التمكين لما فرط فيه البتة، بل قد صح عنه عليه السلام أنه قال: «جُعِل رزقي تحت ظل رمحي»[2]، فدل على أن الرخاء الاقتصادي إنما هو تابع للتمكين في الأرض لا العكس، وهذا بيِّنٌ واضح من تاريخ الفتوح لمن تدبره بما لا يحتاج إلى مزيد تدليل عليه.

وأما تحصيل العلوم والمعارف الدنيوية، فرغم أن النبي صلى الله عليه

---

(١) صحيح مسلم (٣٨).

(٢) صحيح البخاري: ٢/٣٣٦ تعليقاً، باب ما قيل في الرماح، ومسند أحمد ٢/٥٠ (٥١١٤ – ٥١١٥). وعن حديث المسند قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٤/٨١: إسناده صحيح.



وآله وسلم قد هيأ أمته منذ رحلة الهجرة للنصر على فارس ثم هيأها بعد ذلك يوم الخندق للنصر عليها وعلى الروم، إلا أنه عليه السلام لم يشغل أصحابه بمنافسة هاتين الحضارتين فيما بين أيديهما من علوم ومعارف دنيوية، وهذا دليل كذلك على أن هذا ليس هو سبيل التمكين.

إنَّ تاريخ الإسلام والمسلمين ليشهد على عكس ما ترجوه كثير من دعوات النهضة السياسية والاقتصادية والعلمية، تاريخ الإسلام والمسلمين شاهد على أن كل هذه الأسباب لم تكن يوماً من الأيام هي السبب الرئيس لريادة المسلمين ونهضتهم وتمكينهم في الأرض ابتداءً، بل العكس هو الصحيح، فإن الأمة ما تقدمت وازدهرت في هذه الميادين إلا نتيجة لتمكنها في الأرض، فعندما بسط الإسلام سلطانه في أرجاء المعمورة بعد أن فتح البلاد بالسنان وفتح القلوب بالقرآن، أتت الدنيا أبناءه راغمة فقامت لهم في مدة وجيزة حضارة لم يعرف الوجود لها مثيلاً.

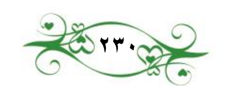
ولا بد هنا من التأكيد والتشديد مرة ثانية على أننا لسنا ـ بما قررناه آنفاً ـ نقلل من أهمية السبق في تلك المجالات والعمل على تقويتها، لا والله! فكلها من باب الإعداد المأمور به، وقد أرشدت الشريعة إلى أهمية الأخذ بنحو تلك الأسباب، قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾(الأنفال: ٦٠)، ولكن الإشكال كما ذكرنا إنما يكون في الأخذ بها مطلقة دون هدف أو باعث مرضٍ، أو أن تكون غير منضبطة بالشرع ولا



مسخرة لإعلائه ونشره، ولا منبثقة عن مقاصده بالدرجة الأولى، أو أن يتم التعامل معها على أنها أو بعضها تمثل أسباب النهضة الرئيسة.

ختاماً، فإنني أرجو أن أكون قد وُفقت فيما مضى من كلمات في تسليط شيء من الضوء على هذا الموضوع الذي أحسب أنه بالنسبة للأمة على قدر كبير من الأهمية، فالأعداء متربصون، وسهامهم التي يوجهونها للأمة تزداد شراسة يوماً بعد يوم آخذة صوراً شتى. ورغم ما في الأمة من ضعف ظاهر، إلا أن مخاوف أعدائها منها ومن نهوضها تزداد بمرور الأيام، فبين الفينة والأخرى تخرج من بينهم صيحات التحذير من خطر الإسلام والمسلمين عليهم، وكثير منهم يرى ضرورة استغلال الفرصة المتاحة بسبب ضعف المسلمين لزيادة ضعفهم وتوجيه ضربات تمنعهم من النهوض في المستقبل، وبعضهم يرى أن الفرصة متاحة الآن للقضاء على الإسلام وأهله مما يحتم عليهم عدم تفويت الفرصة.

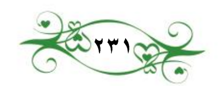
ورغم يقيني التام أنهم لن ينالوا مرادهم الذي يخططون له، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٣) و(الصف:٩)، إلا أن هذا لا يعني تجاهل الأخطار المحيطة بالمسلمين، ولا يعني الاسترخاء، بل لا بد من العمل الجاد والدؤوب لتغيير واقع الأمة وانتشالها من الضعف والهوان الذي تعاني منه، وأول خطوة على هذا الطريق تتمثل في القيام بواجب التدبر على وجهه الصحيح، إذ يستلزم العمل والقيادة والريادة وإقامة علم الجهاد.



ت. نهضةٌ تستهدف الأمة الإسلامية.

إننا عندما نتحدث عن نهضة أمتنا، فإننا نختلف مع كثير من التيارات والاتجاهات الموجودة اليوم على الساحة في بلاد المسلمين ممن ينادي كثير منها بوجوب النهضة، وأول اختلاف بيننا هو أننا لا نرى أمتنا أمة إلا بالإسلام، ونحن وإن كنا نعلم أن العرب مادة الإسلام فإننا لا نرضى أن تكون القومية العربية هي الجامعة، ولا أن تكون الأمة التي نريد نهضتها هي الأمة العربية المنعزلة عن باقي المسلمين، فهذه النعرة القومية من الجاهلية التي أتى الإسلام بإبطالها. أما من يتكلمون عن الأمة العربية، فالعرب ما كان لهم شأن يذكر قبل الإسلام، وما من أحد يستطيع أن يزعم أنهم كانوا أمة واحدة بمعنى الأمة، فقد كانوا قبائل متنازعة متصارعة يغير بعضهم على بعض ولا توجد بينهم أي دعوة للتوحد أو الائتلاف. وقد سجل الله سبحانه وتعالى ذلك على الأوس والخزرج في معرض امتنانه عليهم بالرسالة فقال عز من قائل: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ (آل عمران: ١٠٣)، وحال هذين الحيين مثال لما كانت عليه بقية أحياء العرب من التفرق والتشرذم، إلى أن جاء الإسلام وجعل لهم شأناً وجعلهم جزءاً من أمة عظيمة، فبأي عقل يدعو أولئك القوم إلى رابطة القومية العربية بمعزل عن الإسلام، والعرب ما صارت لهم قيمة تذكر إلا به، إن هذا لشيء عجاب!

وأما من ينادي بالنهضة القطرية أو الإقليمية، فمشروعه ليس مشروع



أمة ابتداءً، وطالما أنه لا يعارض أو يناقض بقوله أو فعله مشروع النهضة الكبير للأمة الإسلامية فلا إشكال لنا معه، بل قد يكون مشروعه لبنة من لبنات نهضة الأمة إذا قام على احترام ثوابتها وخصوصياتها، والانطلاق من أصولها.

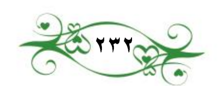
فأمتنا هي الأمة الإسلامية التي تجمع بينها دعوة التوحيد، والتي لا فرق فيها بين عربي وأعجمي بداعي الجنس أو اللون أو غير ذلك من أمور الجاهلية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)، وقال عليه السلام: «يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى»[1]، فإذا تقرر هذا الأمر فتعالوا بنا أيها الفضلاء نقف وقفات مع التدبر وأثره في تحقيق هذه النهضة المنشودة.

ث. مهمّة شاقّة وعبء عظيم.

إن المهمة شاقة والعبء عظيم، هذا أمر لا شك فيه، لكنها ليست أشق من مهمة أصحاب النبي ﷺ، يوم انطلقوا حاملين راية الإسلام للمشارق والمغارب بحال، ومسيرة الألف ميل كما يقال تبدأ بخطوة، ويكفي في هذا المقام أن نتذكر أن قيام دولة اليهود – التي زرعت في قلب الأمة كالخنجر المسموم – إنما بدأ بفكرة، أتبعها تخطيط وعمل دؤوب لتنفيذها وإخراجها إلى أرض

---

(١) مسند أحمد ٤٧٤/٣٨ (٢٣٤٨٩)، قال الأرنؤوط: إسناده صحيح.



الواقع، ففي المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد ببازل السويسرية عام ألف وثمانمائة وسبعة وتسعين وضع قادة اليهود مخططاتهم لقيام دولتهم في فلسطين، وقالوا: إن طبقت هذه المخططات كما ينبغي، فستقوم دولة إسرائيل بعد خمسين سنة، وفي عام ثمانية وأربعين أي: بعد خمسين سنة تقريباً من وضعهم هذه المخططات والبدء في تنفيذها قامت دولة إسرائيل.

ورغم أنهم يهود جبناء مغضوب عليهم، إلا أنهم أخذوا بالأسباب ففكروا وخططوا وعملوا وتآمروا، فحققوا من الدنيا ما يريدون، ولو شاء الله ما كان هذا ليتم لهم ولكنها سنة الله في الابتلاء والاختبار، ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ (آل عمران: ١١٢)، فهل يعجز أهل الحق في المقابل عن تحقيق ما أراده الله منهم ووعدهم بإنجازه لهم إن اتبعوا سبيله؟ اللهم لا!

إن من يتطلع لنهضة مستقبلية تغير الأحوال القائمة في الحاضر دون النظر إلى الماضي القريب والبعيد ليأخذ منه الدروس والعبر يفرط في مصدر عظيم من مصادر المعلومات التي تعينه على رسم السياسات ووضع الخطط، ومن لم يستفد من دروس الماضي وأخطائه يوشك أن يقع فيها ثانية، وقد قال النبي ﷺ: «لا يُلدغ المؤمنُ من جحر واحد مرتين»[1]، والتدبر السليم لهذا التاريخ

---

(١) السلسلة الصحيحة (١١٧٥).

الطويل يُجنِّب الأمة تكرار أخطاء الماضي ويساعدها على تلمس طريق النهضة المرجوة بإذن الله.

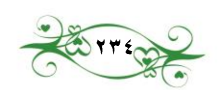
لقد جرّبت الأمةُ في مراحلَ عديدةٍ من تاريخِها المعاصر مناهجَ عديدةً ومذاهب وأفكاراً كثيرة، فهل وجدت فيها حلاً لأزماتها؟ لقد جرّبت الأمةُ القومية ونادت بها، وقال قائلهم:

بلادك قدمها على كل ملّة ومن أجلها افطر ومن أجلها صُمِ
وأهلاً بكفر قد يوحِّد بيننا ويا مرحباً من بعده بجهنّمِ

ورفعت تلك الشعارات الجاهلية ردحاً من الزمان، فماذا جنت من تلك الشعارات، وتلك القومية التي جعلوها إلهاً يُعبد من دون الله؟ لم تجنِ منها الأمة توحّداً ولا تألُّفاً ولا قوة ولا منعة، بل زادت الأمة تفرقاً وتشتتاً وصارت الهزائم تنزل بها كلما خاضت معاركها تحت تلك الشعارات، فمرة نكبة، وأخرى نكسة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وجرَّبت الأمة الاشتراكية لعلّها تجد فيها الغِنى ورغد العيش ونعيم الدنيا، فما جلبت علينا الاشتراكية إلا تدهور الاقتصاد، وضنك العيش، وتفرق الكلمة والحقد الدفين بين أفراد المجتمع وطبقاته.

وجرّبت الأمة العلمانية (فصل الدين عن الدولة) وحوصرت المساجد، بل وعودي المصلون في المساجد، فماذا كانت النتيجة؟ هل ارتقت الأمة، هل



انتصرت على أعدائها، هل تقدّمت على غيرها أو ما زالت في مؤخرة ركب الأمم؟!!.

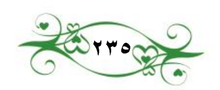
لذا فعلى الأمة أن تصبر على التغيير، وتعلم أنّه يستحقّ كلّ جهدٍ يُبذل في سبيله وكل قطرة عرقٍ أو دمٍ، ذلك لأنّه هو الطريق الذي يحقق للأمّة عزّتها واستقلالها، ويخرج بها من مضايق الأنظمة والأوضاع الجاهليّة!

ج. وعدٌ إلهيٌّ وحقيقة شرعيّة.

إن نهضة الأمة التي نتحدث عنها، هي النهضة التي تتطلع لها القلوب، وتتشوَّف لها النفوس ليزيح بها الله عن الأمة ما أثقل كواهلها منذ عقود، من ذل وهوان وضعف جعلها في ذيل الأمم بعد أن كانت تأخذ بنواصيها وتقودها أمداً طويلاً؛ هذه النهضة التي ستعيد الأمة بإذن الله إلى مكانتها اللائقة بها التي ارتضاها لها رب العزة سبحانه وتعالى، وإني أشهد الله أنني على يقين من أنها آتية لا محالة، لا عن رجم بالغيب، بل إيماناً وتصديقاً بموعود الله على لسان رسوله عليه السلام في كثير من الأحاديث، مثل قوله ﷺ: «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر، إلا أدخله الله كلمة الإسلام، بعز عزيز أو ذل ذليل، إما يُعزُّهم الله عز وجل فيجعلَهم من أهلها أو يذلهم فيدينون لها»[1]، وقوله: «إن الله زوى لي الأرضَ؛ فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنَّ أمتي سيبلغ

---

(١) مسند أحمد بن حنبل: ٤/٦ (٢٣٨٦٥)، قال الأرنؤوط: إسناده صحيح.



ملكُها ما زُوي لي منها»[1]؛ ومع هذا اليقين فإنني على يقينٍ آخر من كون هذه الريادة لن تأتيَ الأمةَ على طبق من ذهب، بينما هي لاهية غافلة غارقة في البطالة! بل لا بدَّ من الأخذ بالأسباب والتوكل على الله، كما قال عليه السلام في الحديث الذي لا أَمَلُّ من ذكره والتذكير به: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد؛ سلَّط اللهُ عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[2].

فحصر عليه السلام الطرق المؤدية إلى العز والرفعة في الدنيا في طريق واحد هو الرجوع للدين، مصداقاً لقوله جل وعلا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾(النور: ٥٥).

وما دامت هذه الأمة لم تصبح أمة إلا بالإسلام فإن نهضتها لا يمكن أن تقوم على أسباب دنيوية بحتة، بل لا بد أن تكون نهضة دينية ودنيوية، وأي محاولة لفصل دين الأمة عن دنياها لا يمكن أن تحقق النهضة ولا يمكن أن تؤتي أكلها البتة.

٣.شمول المنهج القرآني وفاعليّته.

وفيه مسألتان:

---

(١) سنن الترمذي (٢١٧٦)، وصححه الألباني.

(٢) سنن أبي داود (٣٤٦٢)، وصححه الألباني.



أ. شمول المنهج القرآني وتكامله.

ب. فاعلية المنهج القرآني.

أ. شمول المنهج القرآني وتكامله.

إن القرآن منهج شاملٌ متكاملٌ، إذ فيه كلُّ ما يطلبه العباد في معاشهم وما يُسعدُهم في مَعادهم: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾(النحل: ٨٩).

فيه: نظامُ الأسرة، ونظام المجتمع، ونظام الحكم، ونظام القضاء.

فيه: شفاءُ الأمراض، وتصحيحُ العقيدة، وتقويمُ الفكر، وتهذيبُ السلوك.

فيه: بيان حق الوالد على ولده، وحق الولد على والده، وحق الحاكم على المحكومين، وحق المحكومين على الحاكم.

وفيه: بيانُ حق الفرد على المجتمع، وحق المجتمع على الأفراد،

وفيه: بيان حق الزوجة على زوجها، وحق الزوج على زوجته،

وفيه: بيان حقِّ الأخ على أخيه، وحقِّ أولي القُربَى، وحقِّ الجار على جاره،

وفوقَ ذلك كلّه، فيه: بيانُ حق الله على عباده، فهل يا تُرى تكون الحياةُ شيئاً آخرَ غير ما ذُكر؟

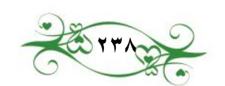
قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ (١)



قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ (الكهف: ١، ٢)، قال القرطبيُّ: «أي: مستقيم الحكمة، لا خطأ فيه ولا فسادَ ولا تناقُضَ»[1]، وقد فصّلَ الله تعالى فيه كلَّ ما يحتاجه العباد، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ (الإسراء: ١٢)، وإنّما أنزل الله الكتب السابقة على أنبيائه لهذا الهدف وتلكم الغاية، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد: ٢٥).

والآياتُ التي تدلُّ على هذا المعنى لا حصرَ لها، جميعاً تؤكّد أنَّ الغاية الأساسيَّة من إنزال الكتب السّماويّة، هو إصلاحُ الأرض بمنهج السَّماء، ولما أنزل الله آدم عليه السلام إلى الأرض بيّن له أن هُدىً منه تعالى سينزل عليه وعلى ذريته، وبين له أيضاً عاقبة من اتبع ذلك الهدى وعاقبة من خالفه، فقال: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ (طه: ١٢٣، ١٢٤)، فالحياة الحقيقية إنما تكمن في تطبيق ما أنزل الله تعالى على رسله، والقيام بما أوجب الله فيها من الواجبات واجتناب ما نهى الله عنه فيها من المحرمات، وكلُّ ذلك مبيَّن في

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٣٠٣.



كتاب الله تعالى. والناظر إلى حياة الكافرين ومن أعرضوا عن الذكر الحكيم رآها جحيماً لا تُطاق، وأكثر حالات الانتحار توجد في تلك البلاد التي لا قرآن فيها، لقد عجز أهلها عن مسايرة الحياة، عجزوا عن العيش، كيف والدِّين هو أول مقومات الحياة، ولذا كان أولَ الضروريات الخمس، كما بيّن علماءُ مقاصد الشريعة.

إن الكفار على عهد النبي ﷺ علموا أن مصدر الهدى هو القرآن، وعرفوا أنه يُنبت الإيمانَ في القلب كما ينبت الزرعُ الماء، فعمدوا إلى إيقاف ماء الحياة وسرّها، فتواصَوا بينهم ألا يقربوا القرآن ولا يستمعوا له، قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت: ٢٦)، فصاروا بذلك من الأموات.

ولو فهم المشركون والكفار أنَّ ما يجب عليهم نحوَ القرآن هو فقط مجردُ القراءة والتّبرُّك؛ لما كانوا حاربوا النَّبيَّ ﷺ، وخاضوا ضدّه تلك المعارك الدامية، ولكنَّهم فهموا أنَّ المراد بالدعوة الإسلامية القرآنيّة، هو هداية الإنسان على الصّعيد الفرديِّ والاجتماعيِّ والدّوليّ، بإقامة أحكام القرآن وضوابطِه فيها جميعاً.

ولذا فإنّنا نجد في القرآن نماذجَ لشتّى ضروب الإصلاح، فعلى صعيد الإصلاح السّياسيّ، نجد في القرآن الكريم تحذيراً من نموذج الاستبداد السِّياسيِّ الفرعونيّ، وما يقوم عليه من الجَور والظّلم والفساد، وتقسيمِ أبناء



الأمة إلى شيعٍ وطوائفَ، يستضعف بعضُها بعضاً، كما نجد من ناحيةٍ أخرى إغراءً وحضّاً على إقامة نموذج الحكم القائم على أساس مبادئ العدل والشُّورى.

كذلك عرض الله عز وجل علينا في القرآن، قصة لوط عليه السلام مع قومه، والمفاسد الأخلاقية في تلك الرذيلة التي ذكرها الله عز وجل على لسان لوط، عندما خاطب قومه فقال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الشعراء: ١٦٥)، وبيّن كيف عالج لوط عليه السلام بالإيمان وبالعقيدة والتوحيد هذا الفساد الأخلاقيَّ، وأسَّسه بعد ذلك على المنهج الإيمانيِّ.

وذكر لنا الله عز وجل في قصة شعيب نقض قومه للمكيال والميزان، وما يتعلقُ بهذا الانحراف في مجال الاقتصاد والمعاملات المالية، وكيف قوَّم ذلك شعيب ﷺ بالمنهج الإيماني وبالرسالة الرَّبَّانيَّة، كل ذلك ليُبين للأمة أن كلّ شأن من شؤون حياتها لا بد أن ترجعَ فيه إلى كتاب ربها.

لقد خاطبَ القرآنُ كلَّ شيءٍ في هذا الإنسان، خاطب عقله بالتدبّر والتأمّل، وخاطب قلبه بالموعظة والتذكير، وخاطب جوارحه بتعليمها ما أراد الله عز وجل منها، من البصر وغضّه، والسّمع وكفه عن الحرام، وفي هذا القرآن ذكرٌ للجبال السَّاجدة، والألسن الذَّاكرة، كلّ ذلك مذكور في كتاب الله عز وجل فهو شامل لكل شيء في حياة الإنسان، وانظر كذلك إلى الشمول من وجه ثالث، فهو الذي يشمل في خطابه كلّ أصناف الجنس البشري. فقد خاطب الرجال، وخاطب النساء، وذكر منهج الصغار والأطفال، ومنهج

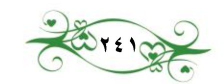


الرجال الكبار، فلا يخرج عن هذا القرآن شيء أو صنف من الناس مطلقاً، فلهم جميعاً خطاب، ولهم تنبيه، ولهم آداب، ولهم تعليم وهداية. ثم انظر إلى الشمول من وجه رابع، فإنك تجد شمول القرآن ينظّمُ سائر مناحي الحياة: ففيه منهج متكامل في الحكم والسياسة، ومنهج متكامل في العسكرية والجيش، ومنهج متكامل في المال والاقتصاد، ومنهج متكامل في الحياة الاجتماعية، ومنهج متكامل في سائر ما تحتاج إليه هذه الحياة، فأنت ترى منهجاً كاملاً في الأسرة المسلمة، وفي تربية الأبناء، وفي رعاية المجتمع، وفي الحقوق بين الزوجين وما يتعلّق بالعلاقة بين الرجل والمرأة، وما يتعلّق بحيض النساء، وما يتعلّق بالأطفال، وما يتعلّق بالاستئذان، بأدقّ أمور تفاصيل الحياة، كلّ ذلك مذكور له أصل وكليات في كتاب الله عز وجل، وحُقّ لأمة هذا كتابها ألاّ تستبدل به شيئاً، وألاّ تطلب في غيره هداية، فأين المتدبرون؟

ب. فاعلية المنهج القرآني.

إنَّ المسلم يستطيع أن يرى بجلاء، ويستدلَّ بحجة بالغة، على فاعلية هذا المنهج الربانيِّ القرآنيِّ بأمور، من أظهرها ثلاثة:

الأول: مقارنة الأحكام والتشريعات السماوية الإلهية، بالأحكام والتشريعات البشرية الأرضية، الشرقية أو الغربية، وقد صنّف علماء الإسلام ومفكروه في ذلك المؤلفات التي تدفع الشبه وتبين الفرق الواسع بين الهدى الراسخ المنزل والدساتير المتغيرة المحدثة، سواء أكانت شرقية اشتراكية أم غربية



رأسمالية، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾(النساء: ٦٥).

والثاني: مقارنة واقع من طبّق الوحي الإلهي واستقام عليه حق الاستقامة كحال الصدر الأول من هذه الأمة، مع واقع من أعرض فضرب عن الذكر صفحاً وذهل عنه كحال جُلّ دويلات الإسلام التي تناثرت في عجز الزمان.

والثالث: مقارنة حال من أخذ به مع حاله قبل الأخذ به، والتاريخ شاهد على حال العرب في الجاهلية، مدوِّن لما صاروا إليه بعيد الإسلام.

ثم إن بإمكان كلّ مسلم أن يقف ويتأمّل حال المجتمعات المسلمة، إن استقامت على شرائع الإسلام وشعائره وأحكامه، فتخيَّلْ يا أخا الإسلام مجتمعاً فُصِّلت فيه الحقوق وحُفظت فيه الحدود، وقام فيه الناس بالواجبات العينيَّة والفرائض الكفائيَّة، وساد فيه الصِّدقُ والإخلاص، وشاعت فيه مظاهرُ الأخوة بين الناس .. أو باختصار تصوّر مجتمعاً كان منهجه القرآن؟ أوَ يتخلّف مثل هذا المجتمع أو يتقهقر؟ إذا قلت: لا والله، فقد أصبت ووفقت لموافقة ما جاءت به النصوص الواعدة بذلك إن حقّق الناس شرطها: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (الأعراف: ٩٦)، ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾(الجن: ١٦)، ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء: ٩). وغيرها مما تعلم.



ولكن هل تعلم أنَّ من الذي قد يُعيق تحقيق الشرط؟ هو أنت!

نعم أنت، فأنت اللبنةُ الأساسية التي متى استقامت، استقامت أسرتها ثم عشيرتها ثم شعبها ثم أمتها! فحذار أن تكون من هؤلاء: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ (الأحزاب: ١٨).

فهلاّ رجعت إلى أحسن الحديث، كلامِ ربّك تدبّراً وفهماً ثم تمسّكاً والتزاماً؟

وَلْتوقن بأن هذه هي الخطوة الأولى والأخيرة في طريق تغيير واقع الأمة والخروج بها من مآزقها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

إن مشكلة عدم التطبيق والالتزام بالقرآن والإقبال عليه مع أنها عظيمة الآثار وخيمة العواقب إلا أن مشكلة الشك في كونه هو المخرج وهو الحل أكبر وأعظم، بل قد تؤدي إلى الكفر بالله تعالى والخروج من الملة إذا قصد القائل بها ما يقول.





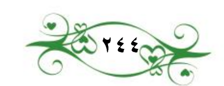
الخاتمة

لقد تقرر مما سبق ذكره في هذا الكتاب أن سبيل الحياة الحقيقية الهانئة التي يرضاها الله تعالى في هذا الكتاب العزيز فلا حياة بغيره ولا سعادة بسواه، فالعيش بغير القرآن منهاجاً هو الموت عينه، لأن القرآن هو الروح التي متى افتقدها العبد فهو في عداد الأموات.

ولقد عاش الرعيل الأول من هذه الأمة مع القرآن فتحققت لهم تلك الحياة السعيدة التي وصفها الله تعالى في كتابه، ولقد ذاق السلف طعم تلك الحياة وعرفوا مصدرها فوثّقوا علاقتهم به تدبراً وعملاً.

إن أمتنا اليوم تجرّب كل ما أنتجته أفكار العباد القاصرة من نظريات زُعم أنها تحقق السعادة وتجلب الرخاء والرغد، ولكن لم تجنِ الأمة من وراء تلكم النظريات الأرضية إلا الشقاء والمصائب، وما بقي لها إلا أن تقدم على الكتاب الذي ستسأل عنه يوم القيامة تدبراً وتطبيقاً وتحكيماً.

ولقد بدا واضحاً أن العز الذي كان يرفل فيه سلف هذه الأمة ما هو إلا نتيجة لتمسكهم بالقرآن وتعلقهم به وحياتهم معه وتدبّرهم له، وبذا حصل لهم الظفر على الأعداء وتحولوا من رعاة للأغنام إلى رعاة للناس وقادة للشعوب والأمم، وما دام أن السبب في ذلك هو القرآن الذي بين أيدينا فما



علينا إذا أردنا طريق العز والمجد والسؤدد إلا أن نسلك ذلك الطريق لتكون عاقبتنا كعاقبتهم ويحصل لنا ما حصل لهم، وما أوقع الأمة في هذه الهوة العظيمة إلا بعدها عن مصدر عزها وكرامتها، فقد أعزها الله بهذا الكتاب العزيز فلما ابتغت العزة في غيره أذلها الله.

كذلك يبدو مما سبق طرحه تهافت المتشائمين اليائسين الشاكين في أن يكون للقرآن ذلك الدور الكبير في تحوّل الأمة من الأزمة إلى النهضة، وتغيّر حالها مما هي فيه إلى الريادة والقيادة والتقدم.

إن الأمة عند رجوعها إلى القرآن لا ترجو بذلك مجد الدنيا وعزها فقط ولكنها تطيع بذلك ربها ونبيها صلى الله عليه وسلم لتدخل جنة عرضها السموات والأرض، وما ذلك العز والمجد على طريق القرآن إلا عاجل البشرى في الدنيا، ولأجر الآخرة خير وأبقى.

إن من أهم مراحل تحكيم وتطبيق القرآن في سائر نواحي الحياة هي مرحلة التدبر والتعرف على معناه، ولقد عني السلف الصالح بهذه المرحلة عناية قصوى ليقينهم أن ما بعدها متوقف عليها، فلا سبيل إلى فهم القرآن ولا إلى تطبيقه إلا بتدبره والوقوف على معانيه، ولأهمية تلك المرحلة نجد أن القرآن كثيراً ما يحصر الغاية من إنزالها فيها مع أن الغاية من إنزال القرآن أبعد من مجرد التدبر، وكيف لمن وقف مع تلك المعاني والعظات الباهرات ألا يطبق ما حوت من أسباب سعادة الدنيا والآخرة.



إن مما زاد بلاء الأمة وبعدها عن كتاب ربها الآراء الضالة المضلة التي فسّر بها أهل البدع القرآن، فصرفوا الأمة إلى تلك البدع وأبعدوها عن صافي عقيدتها وصحيح دينها، ولقد بذل السلف رحمهم الله الجهود العظيمة التي كشفت زيف تلك الأقوال وباطل تلك البدع، ولم يزل في هذه الأمة خلف عدول ينفون عن كتاب الله انتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

ولعل من المناسب في خاتمة هذا الكتاب أن أنقل كلمة عميقة لأخي فضيلة الشيخ/صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف، حيث تعتبر مهمة في ضبط مفهوم التدبر، حيث قال[1]: «موضوع التدبر كما أنه موضوع مهم والجميع يأنس له إلا أنه أيضاً موضوع محفوف بالمزالق، فهو مهم من جهة أمر الله جل وعلا به ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢)، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (محمد: ٢٤)، وقال بعض السلف من لم يتدبر القرآن فإن على قلبه قفلاً منعه من تدبر القرآن وهذا الذي أثنى عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم و أئمة الإسلام في أن المنتفع بالقرآن هو المتدبر لهذا القرآن، وابن القيم رحمه الله في كتابه الفوائد وفي غيره أطنب في ذكر أصول هذا المنهج بما يجعل القلوب خالصة من رؤية الدنيا في

---

(١) ألقاها في ختام ورشة العمل التي كانت تحت عنوان: (التدبر في حلق ومدارس ودور تحفيظ القرآن الكريم) بالتعاون مع مركز تدبر بديوان المسلم في يوم الأحد الموافق ٥/صفر/١٤٣٢هـ.



تلاوة القران، وهذا المطلب المهم يحتف به مزالق، فإن كلمة التدبر كلمة أخص من التفسير وأخص من معرفة المعاني، فهي كلمة تحتاج إلى ملكة علمية تجمع ما بين فهم الاعتقاد الصحيح وفهم أصول التعامل مع القرآن الكريم، ذلك لأننا لا نريد أن يكون التدبر ناتجاً عن مسرح من مسارح الفكر، فنقع في نوع من الإثم حيث يقول البعض في القرآن برأيهم، ومن قال في القرآن برأيه فقد أخطأ ولو أصاب، فالمطلوب من الإخوة الذين يدرسون هذا الموضوع أن يؤسسوا لفهم قواعد السلف الصالح في التدبر، لأن الفرق العقدية المختلفة السابقة، وأيضاً الفئات الموجودة حالياً الفكرية العقلانية والتنويرية وغيرها، الكل يقول دخلنا إلى القرآن من ميدان التدبر، والتدبر أوسع من معرفة التفسير حسب ما يطرحون، وهذا صحيح من جهة لكنه من جهة أخرى محتف بالمخاطر، لأن المتدبر لا ينزع في تدبره إلى محض رأي يراه، وقد يؤول الأمر إلى أن يجعلوا القرآن مطواعاً لأفكارهم، فتؤسس أفكار ثم يؤتى بالقرآن ويستدل به على تلك الأفكار نزعاً إلى مفهوم التدبر، وهذه مزلة كبيرة ومزلة قدم لا يصلح أن تغفل من الاهتمام حين الحديث عن التدبر، المدارس الفكرية في تفسير القران الكريم متعددة، فهذا نزع إلى تفسير بالرأي المجرد أخذاً من التدبر، وهذا نزع إلى تفسير علمي مجرد بغرض ذكر الإعجاز ونحوه بنزعة إلى التدبر كما يقولون، وآخر نزع إلى مدرسة سلوكية صوفية أخذاً من التدبر، فالذين أخذوا الإشارات الصوفية في السلوك الصوفي أكثر استدلالاتهم من



القرآن وقالوا نزعنا إلى التدبر، فإذاً موضوع التدبر وعبادة التدبر مطلوبة وواجبة، لأن الله جل وعلا أمر بها حيث ذم المشركين والمنافقين بعدم تدبر القرآن، وهنا فرق ما بين التدبر وما بين التعلم والتفسير والعمل، لأن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتعلمون القرآن والعلم والعمل جميعاً، وهذا معنى أخص من التدبر لأن التدبر في الغالب يخاطب القلب ولا يخاطب العقل، والمعرفة تخاطب العقل ولا تخاطب القلب، ولذلك قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: عاملنا القلوب بالتفكر فأورثها التدبر فرجعنا بالتدبر على التفكر، وحركنا القلوب بهما، فإذا القلوب لها أسماع وأبصار، فالتدبر ليس معرفة، فالمعرفة: العلم بالتفسير، العلم بالمعاني، العلم بالمعنى الإجمالي بمقاصد السورة العامة، أما التدبر فهو النظر إلى كلام الله جل وعلى في مخاطبته لعباده بهذا الكلام، هذا خطاب للقلب كما ذكره بعض أهل العلم منهم ابن القيم حيث ذكر أنه خطاب من الله لعبده، فمن تدبر القرآن وجد فيه هذا الخطاب، الذي ينسلخ منه القلب إذعاناً وقشعريرةً ولين جلود، وهذا لابد من تحصيله. والتدبر طرح في مناسبات كثيرة في السنوات الأخيرة، والذين طرحوا التدبر منهم من أرادوا بالتدبر التفسير فقالوا لا بد من تدبر القرآن يظنون كلمة التدبر معناها التفسير والتدبر أوسع من التفسير، لأن التفسير معرفة المعنى الإفرادي للكلام أو تفسير المفردات أو التفسير اللغوي أو التفسير الموضوعي هذه معرفة، لكن التدبر هو تنزيل هذه المعرفة لخطاب القلب فيما يظهر لي من تحرير كلمة التدبر، فبعد أن يعرف معنى التفسير وفق منهج السلف بلا أهواء، ويعرف



المعنى.. معاني المفردات وفق ما دلت عليه اللغة، وتكلم عليه أئمة التفسير من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن نقل ذلك عنهم، أو الاجتهادات المقبولة في تفسير القرآن باللغة أو نحو ذلك ينتقل منه إلى تحريك هذا المعنى لإصلاح القلوب وإصلاح السلوك، يعني أن المعرفة الآن جزء من التدبر، فإذاً من منهاج التدبر نخرج من الاجتهادات الفكرية لمعلم القرآن أو غيره وإلا فقد يواجه الأبناء بعد فترة بمدارس فكرية مختلفة باسم التدبر ينقلها الأساتذة للطلاب، والأساتذة كل ينزع إلى ما عنده من العلم أو ما عنده من الرؤية للحياة، وبالتالي يحدث عندنا خلل في أمر عبادي أردناه» ا.هـ.

وختاماً لم ينقطع الرجاء في الله تعالى ولن ينقطع في أن يردّ الأمة إلى قرآنها رداً جميلاً، فتعز في الدنيا وتسعد في الآخرة، إنه نعم المولى ونعم النصير، ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف: ٢١)، والحمد لله أولاً وأخيراً، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

ثادق

مساء يوم الخميس

١٤٣٢/٧/٧هـ



فهرس المحتويات











